رواية

يوسف المحيميد

أكثر من سلالم

مكتبة نوميديا 126
Telegram@ Numidia_Library

المركز الثقافي العربي

يوسف المحيميد

أكثر من سلالم

يوسف المحيميد

أكثر من سلالم

رواية

المركز الثقافي العربي

الكتاب

أكثر من سلالم

تأليف

يوسف المحيميد

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 304

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-929-6

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 - 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت - لبنان

ص.ب: 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 - 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

هناك طريقٌ تتعرَّج وتضيق جدّاً، لكنها تنفذ دائماً

إهداء

هشام
يجمعني بك حرف الشين،
وشغف الحياة.

«رشا»

(1)

قبلاته تشبه طيراً يلتقط الحبَّ

أخيراً فعلتِها يا رشّو يا بنت سعيد! همستُ لنفسي، وأنا أعضُّ شفتي السفلى بقلق.

في الممرّ الطويل المؤدّي إلى كابينة الطائرة بوينغ 777 كنت أمشي بخطوات سريعة إلى الأمام. لم ألتفت أبداً نحو أبي، الذي استطاع الدخول معي إلى مدخل الممرّ، بعدما أقنع الأمن أنه سيطمئنّ على جلوسي عند رقم البوابة الصحيح، فوافقوا لأنهم يعتبرونني كائناً فاقد الأهلية، وطوال جلوسه معي قبيل الرحلة، كان يحيطني بنصائحه، بألّا أصاحب من هبَّ ودبَّ، وألّا أثق بأي أحد، وألّا أذهب إلى أماكن لا أعرفها، وأن يقتصر خروجي على الأشياء الضرورية، كانت أمي صالحة، وأختي زهرة، وأخواي سعد وحسن في الصالة العلوية بالمطار، يقفون خلف الزجاج، كلما ألتفت نحوهم، وجدتهم يلوّحون بأيديهم، تبلَّل وجهي، وقد أحسست بدمع أمي، وخجلت من نفسي لأنني أبكيتها، وأحزنتها على فراقي.

تفحَّص الموظف بطاقة صعود الطائرة وجواز سفري، وتأكّد من تأشيرة الدخول إلى الأراضي الأميركية، قال -وهو يناولني الجواز

وبطاقة الصعود-: «بالسلامة». هرولت وعلى ظهري حقيبتي، لم أنظر خلفي، ولا حتى مرة واحدة، خشية أن يصرخ بي أبي كما في المسلسلات الخليجية: «رشا ارجعي، غيَّرت رأيي، لن تسافري إلى أميركا!» لكنه لم يفعل بالطبع، ولم أتوقف إلّا حينما رميت جسدي المنهك، المفكّك تماماً بعد محاولة الانتحار الفاشلة التي أقدمت عليها قبل تسعة أيام، جلستُ بجوار الشبّاك، وجلس بجانبي رجل أربعيني، لم يلتفت نحوي، ولم يكلّف نفسه بإلقاء التحية، ولم يبتسم أيضاً، كل ما فعله لحظة أن أقلعت الطائرة، أن أرجع مسند مقعده للخلف، ودخل في نوبة نوم مخيفة، كان يشخر مثل حوت، وكلما تعالى شخيره فزّ فجأة، كمن يدفع موتاً مباغتاً.

بينما المضيفة تقرأ التعليمات، تنبَّهت إلى أنني لم أقفل هاتفي المحمول، كانت أمي تنشج بحزن: «بغيت اسمع حسّك قبل تقفلين جوالك». هدَّأتها، ومازحتها قليلاً وأنا أخنق عبرة تتسلل، ووعدتها بألّا تشعر بفقدي، سأتصل بها كل دقيقة، وأترك هاتفي المحمول مفتوحاً حتى في الليل، فتنهدَت بحزن، ودعَت لي قبل أن أقفل الخطّ، وأربط حزام المقعد.

حينما أقلعت الطائرة، لم أنظر من النافذة نحو الرياض وهي تختفي ببطء، ولم أندم أو أبكِ، كنت أمتلك قوة وشجاعة، بل سعادة كبيرة أن أصبحت داخل هذا الصندوق السحري الذي سيلقي بي في أرض الأحلام، نيويورك التي لا تنام، نيويورك كيفن في فيلم Home Alone 2، بلازا هوتيل، سنترال بارك، تايم سكوير، تمثال الحرية، برودواي، مانهاتن، بروكلين... يا اللّه! كنت كل لحظة حينما ينتهي فيلم أشاهده في شاشة المقعد أمامي، ألتفتُ نحو الرجل

الأربعيني الغارق في نومته العميقة، أودُّ لو ألكزه، كيف تنام وأنت في الطريق إلى المدينة التي لا تنام؟

شعرت بحرجٍ شديد حينما امتلأت مثانتي، كيف أوقظ هذا النائم كجنازة، لأمرَّ بينه وبين مسند المقعد المقابل، صحيح أن جسدي صغير وضئيل، لكن طاولة جاري كانت مفتوحة أمامه، وعليها هاتفه المحمول، وقد أقفل تماماً فرصة العبور إلى الممر، كنت أفكّر، ماذا لو نبّهته قائلة: لو سمحت! ولم يستيقظ، أي حرج لي، وأنا واقفة، بينما ركاب المقعد الخلفي يتطفلون عليّ، ماذا لو اضطررت إلى أن أمسَّ كتفه برفق كي يستيقظ، وكيف لي أن ألمس جسد رجل غريب، وماذا لو عدتُ بعد الحمام، لأجده دخل في الغيبوبة مجدَّداً؟ مما يضطرني إلى إيقاظه مرة أخرى، يا اللّه ما هذا الحرج؟

تحمَّلتُ كثيراً حتى كدت أبكي لفرط امتلاء مثانتي، فجأةً قررت أن أفعلها، وأرفع هاتفه المحمول بهدوء من على طاولة المقعد، ثم أرفع الطاولة وأقفلها بهدوء، وأحاول التسلل بخفة كقطّة أليفة، لكنني مجرد أن وضعت يدي على هاتفه المحمول، حتى تحرَّك وتململ، ثم تنبَّه في اللحظة التي قلت فيها: المعذرة؛ خشيت أن يظن أنني سأسرقه. لكنه ابتسم خجلاً، وأخذ هاتفه وأقفل الطاولة، وانعطف بجذعه يساراً تجاه الممر، دون أن ينهض، يا للحماقة، ألا يعرف التعامل مع فتاة؟ خرجتُ إلى الحمّام، وحين عدت قلقة أن يكون نام ثانية، وجدته واقفاً في الممر يقوم بعمليات إحماء، كمن سيدخل في ماراثون طويل، أو كمن يستعد لجولة ثانية من نوم أكثر عمقاً.

عدت إلى مقعدي، وتنقلت بين أفلام الرحلة المتاحة، معظمها

أفلام قديمة، اخترت فيلم Are We There Yet، وأطلقت بصري من النافذة، حيث السُّحب البيضاء، وهذا السديم الذي أخذني عنوةً إلى طفولتي البعيدة، حينما كان أبي يحبني كثيراً، وكذلك أمي، وهما لا يرفضان لي طلباً، كنت في المراهقة أتمنى أن يقول لي أحد: لا، لكن ذلك لم يحدث، عشت طفولة مثالية، أو بالأحرى طفولة مدللة، كل الألعاب الجديدة من ديزني لاند، تصلني قبل الآخرين، كنت محسودة كثيراً من قبل قريناتي من الأقارب، والصديقات، لكن الأمر بدأ يتغيّر شيئاً فشيئاً، منذ أن ساءت العلاقة بين أبي وأمي بعد زواجه من فتيحة، وتحوّله إلى شخص آخر، يبحث عن أي سبب، ولو كان تافهاً، كي يثور ضدّي، لا أعرف لِمَ كان يفعل ذلك، هل بسبب حدّة أمي وانفعالها المستمر ضدّه؟ أم بسبب تأثير زوجته الثانية فتيحة؟ لم يعد أبي يضع القمر في يدي، ولم تعد الشمس تتسلل إلى غرفتي بخجل، كان يدخل ويفتعل أي شيء للشجار، مجرَّد الشجار، كأن أجهِّز الغداء بدلاً من الخادمة، أو يجبرني على الذهاب لبيت عمتي، فتحوّلت إلى شخصية مختلفة، عنيدة، أرفض كل شيء يطلبه، حين يأمرني بفعل شيء، أفعل عكسه تماماً، أصبحت فتاة نزقة، كنت ألفت انتباهه وتقصيره معي، صار يتهم أمي بأنها تحرّضني على الرفض والتمرد، بينما لو كنت مكانها لخلعته منذ سنوات طويلة، فأنا لا أحب الرجل المتسلِّط والمستبد، الذي يعتقد أن دوره في إلقاء الأوامر، وليس المشاركة في حياة طبيعية.

أتذكّر أول مرة صفعني كيف بكيت لساعات، لم أكن أبكي ألماً، لكنني شعرت بالمهانة والحزن، لأن من فعل بي ذلك هو أبي

الذي طالما أغدق عليَّ حبه وعطفه وحنانه. بعد ذلك صرت لا أكترث له، وازداد عنادي حتى أصبحت قادرة على أن أجعل العالم كله يقف على قدم واحدة، أفعل ما يغضبه قصداً، وأختبئ في غرفتي بعد أن أرتدي ملابس ثقيلة تحت قميصي، وأغلق باب غرفتي جيداً، لكنه يعود ويجلدني بالعقال، وبالحزام أيضاً، حتى اعتدت الأمر، فلا أبكي أبداً، أتركه يفعل ما يريد، ثم أدخل الحمّام، وأتحمم تحت ماء ساخن، وأغيّر ملابسي، ثم أخرج لأمي دون دمعة واحدة، بعد أن يكون قد غادر البيت.

كنت شقيَّة وشرسة، أفعل ما أريد، فلا يمضي شهر دون أن أوقِّع تعهُّداً بعدم تكرار خطأ ارتكبته في المدرسة، إما أن ألبس بشكل مخالف للنظام، وإما أثير الفوضى في الصف، ما يوقعني في فخّ توقيع تعهُّد، أو عقوبة الفصل ليوم أو يومَين أحياناً، وهذا ما يغضب أبي مني كثيراً، لكن أمي خلاف ذلك، فقد كانت سعيدة وفخورة بي، كأنها تعوّض ضعفها بقوتي! كأن لا شيء يعنيها سوى تحقيق درجات عالية، وهذا ما أفعله، فرغم الشغب والعبث والفوضى والتمرُّد، كنت أنجح بتفوق، وأنافس على الترتيب الأول، وربما هذا ما قادني، وفيما يشبه الورطة، إلى كلية الطبّ بجامعة الملك سعود، رغم كل الحماقات التي ارتكبتها أثناء المقابلة الشخصية، فما زلت أتذكر كل التفاصيل حينما جلست أمام دكتورة تسألني عن سبب رغبتي في الالتحاق بهذه الكلية، كيف وضعتُ ساقاً فوق أخرى، وتحدثتُ بلا مبالاة، لا أتذكر إن كنتُ ألوك علكاً في فمي، لكنني لا أنسى استفزازي لها مراراً، كي تطردني، غير أنها لم تفعل.

دخلت غرفة المقابلات الشخصية، كنَّ ثلاث سيدات، في الوسط أربعينية ترتدي بلوزة صفراء بلون الليمون، بنظارة طبية فوق أنفها، كنت أمشي بطريقة مستهترة حين دلفت، وألقيت السلام، فأشارت لي بالجلوس:

«هلا رشا، قولي لي، ليه تبغين تدرسين طب؟».

«لأن معدلي عالي، وأبغى أصير دكتورة، وأهلي يبغوا أصير دكتورة».

«طيب ليه تبغي تصيري دكتورة؟».

«لأن ما فيه وظائف للبنات في السعودية، إلا معلمة، أو طبيبة، أو موظفة بنك، وأنا أكره البنوك والمال والاقتصاد، ولا عندي صبر أكون معلمة!».

«كيف ما عندك صبر؟ طيب اللي ما عنده صبر كيف يتحمل كلية طب؟».

«أقصد لو استفزتني الطالبات في المدرسة، يمكن اضطر إلى ضربهنّ!».

«طيب وإذا جاء لك مريض واستفزك، تضربينه بعد؟».

«لا طبعاً، أطرده فوراً من العيادة!».

«يا بنتي الطب عمل إنساني، يحتاج التضحية والصبر!».

«يمكن، بس في السعودية، صعب نضحي في عالم ذكوري!».

تنهَّدت الدكتورة بعمق، كأنها تتساءل، ما هذه الحمقاء؟ صمتت لوهلة، ثم سألتني:

«طيب يا رشا، كيف تقضين أوقات فراغك؟».

«إنترنت... أقرأ أحياناً... أشاهد التلفزيون... زيارات وطلعات سوق...».

«ماذا تقرأين؟».

«غالباً روايات».

ثم فجأة سألتني عن لون الجدار خلفي، فضحكت، وأنا أتساءل: هل هذا سؤال؟ وقلت إنه أبيض أو حليبي، فرفعت حاجبيها وهي تستغرب سخريتي، قائلة إنه قد يكون للسؤال معنى، فابتسمت وأنا أقول ممكن، إلا أن يكون له معنى في الطب.

«طيب رشا، لو فيه مرض معدي، أو مدينة فيها حرب، هل أنت مستعدة للمغامرة بحياتك لإنقاذ الناس؟».

«يعتمد على المحرم، إذا عنده استعداد يغامر معي، تعرفين ما أقدر أسافر من غير محرم!».

«شكلك مجبرة على حضور المقابلة، والتقديم على كلية الطب!».

قالت ذلك، وتمنّت لي الهداية والتوفيق، خرجتُ وأنا على ثقة بأنني لن أقبل في الطب، بعد هذه الجرأة، أو الوقاحة في بعض الإجابات، لكن المفاجأة الكبرى أن تمَّ قبولي، رغم أنني أخبرت أمي أنهم لن يقبلوني إطلاقاً، فقد فشلت في إقناعهم، لكن يبدو أن استفزازي لهم، ووقاحتي أيضاً، كانت مثيرة وجاذبة!

كنت أفكر حينما دخلت كلية الطب بجامعة الملك سعود، أن أتخصَّص في طب العيون، بعدما عشت طفولتي المبكّرة مع جدتي العمياء، حيث لم يسعفها الطب في علاج الماء الأزرق، الذي كان أمراً سهلاً إلى حدّ بعيد، لكنني الآن، وقد صعدت هذه الطائرة

الضخمة صوب الحلم الأميركي، غيَّرت رأيي، وفكَّرت بطب الأسنان، كي أضمن للنساء في بلادي أسناناً قويّة وحادّة وصلبة، لينتقمن عند الحاجة ممن يمعن في إيذائهنّ، لم أكن متأكدة من ذلك قبل أن أصل إلى لوس أنجلوس، وأوفّق بالدراسة في جامعة عريقة، جامعة جنوب كاليفورنيا، وتروق لي الجامعة، ومكتباتها، وكلياتها، وفنونها، وكلية الأسنان فيها، والأصدقاء الذين صاروا أهلي وقبيلتي!

كلّ شيء كان مختلفاً، الطبيعة والفضاء والهواء والغيم والبشر والعالم، حتى النظرات والابتسامات مختلفة، يبتسم لي زملائي في المحاضرات، ومن لا أعرفه في الممرات، فأبتسم بدوري، وينتهي الأمر، يبادر بعضهم صباحاً: صباح الخير رشا، فأردُّ التحية، وينتهي الأمر أيضاً، قد يناقشني أحدهم في المقهى المقابل للكلية، وكذلك ينتهي الأمر، بينما حين ضبطت عبد الإله متلبِّساً وهو يقيسني بنظراته، في مادة العملي، بمستشفى الملك خالد الجامعي، تصاعد هرمون الأدرينالين، وارتبكت، وأضعت الدكتور والشرح، وما أن ابتسم لي في الأسبوع التالي، حتى شعرت بنمل يصعد فوق أذنَيَّ، وصُدغَيَّ، كما لو أنه يدعوني للخروج معه، صحيح أنني كنت جريئة، وأحب المزاح والتعليق، ما جعل معظم زملائي الطلاب لا يجدون حرجاً في الحديث معي، على خلاف زميلاتي اللاتي ينتقدن مزاحي وبساطتي معهم، مع أنني أضع مسافة احترام معهم، باستثناء عبد الإله الذي غامر، وكنت أشعر به قبل ذلك، وتبعني في الممر، بعد نهاية درس العملي، طالباً رقم هاتفي المحمول، فاعتذرت منه بلطف. مضى بهدوء، وظننت أنه انهزم، لكنه فاجأني في اليوم التالي

بشريحة هاتف جديدة، وبطاقات شحن، ناولني إياها، طالباً أن أحادثه من خلالها، بما أنني متحفِّظة على رقمي الخاص، ووطئت هذا العالم الشائك، فتحدّثت بالمحمول، ولأول مرة مع شاب، فكلّ اتصالاتي وعلاقاتي منذ الطفولة، وحتى الجامعة مع صديقاتي البنات!

كان عبد الإله شاباً وسيماً، طويلاً، ملامحه حادّة ودقيقة، وبشرته مغسولة بحقول الحنطة، شاربه خفيف للغاية، ولا يكفّ عن المزاح واللهو، كنت في البدء أستغرب كيف لمن لديه مثل عبثه وجنونه أن يلتحق بكلية صعبة وصارمة كالطب، تحتاج إلى عمل دؤوب، وصبر واجتهاد؟ منذ اللحظة الأولى انسقت خلف سخريته ومزاحه، لم أتصوَّر أنه يتلاعب بي، بل اعتبرت عبثه المراهق جنوناً يجذبني، بل يأسرني، قبل أن يرديني برصاصته الأخيرة.

ورغم أن ظهرَي كفَّيه كانا خاليَين من الشعر تقريباً، إلا أن أصابعه الطويلة النحيلة، حين تتخلل أصابعي، وتلتف حول كفَّي، تدخلني في لذَّة مدوّخة، يا اللّه كم كانت قبلاته تشبه طيراً بارعاً يلتقط حبات القمح من تربة البيدر، في البدء كنت أتسلَّى. أشاغب. أكتشف. أختبر كل شيء، نظرته الساهمة، ملمس كفِّه، طعم القبلة حين يتململ النمل داخل شفتَيّ، كنت أجرِّب لكنني فيما بعد أحببته بجنون، وكنت أظن أنه يبادلني ذلك، ولن يتخلّى عني يوماً، ولا عن حبه المقدَّس، كما كان يسميه!

(2)

أيامي غربان سوداء تقف على سترة السطح

في مدرستي الثانوية، تفننت في شغبي، كنت أثير الفوضى في الصف، وفي طابور الصباح، ساحة المدرسة، المقصف، أينما ذهبت. ألبس بشكلٍ مخالف للنظام، أطيل أظفاري من فترة إلى أخرى، فمن يتخيّل أن الأظافر الطويلة الجميلة ممنوعة، والمناكير ممنوعة، ومرطب الجلد ممنوع، والماكياج حتى لو كان خفيفاً، والمرآة أيضاً، حتى جلب المرآة إلى المدرسة كان مخالفة، فكنا ننظر إلى وجوهنا في المرآة الدائرية الصغيرة لمبراة قلم الرصاص.

ومن أسوأ اللحظات حينما يحرموننا الفسحة بالإنصات لمحاضرة شيخ يجلس في غرفة الحارس، ويحكي في الميكروفون عن حجاب المرأة المسلمة، والزوجة الصالحة، وعذاب القبر وغيرها. كنا نجلس في الساحة على الأرض رغم حرارة الطقس، كأننا معتقلون يتشمّسون في باحة السجن، وكم مرة التفتُّ نحو صديقتي لأحكي، أو أوشوشها، فأعاقب بأن أسمع المحاضرة واقفةً.

ما زلت أتذكر دهشتنا ذات فسحة، إذ نفطر في الساحة، حين

أدخلوا جنازة وهمية تحملها أربع طالبات، يمشين بمؤثِّرات صوتية تحذيرية، وعيد وأنين وبكاء، كنا في لحظة وجوم، حتى إن إحدى صديقاتي، واسمها هبة، أدارت رأسها نحوي وأغمضت كطفلة، وهي تغرس وجهها في كتفي لكيلا ترى. أنظر في وجوه الطالبات المذهولات، معظمهنّ أصابهنّ الخرس، وتوقّفن عن الأكل، وقلة من هنّ مثلي يكتمن ضحكاتهنّ الخبيثة!

قبيل الامتحانات بأيام، كنت أنكَبُّ على الكتاب المقرَّر بنهم، وألتهمه، فأنال الدرجة الكاملة، لأثير غيظ بعض المعلّمات، خاصة معلّمة الأحياء، التي ينتهي العام دون أن تشرح لنا شيئاً، وإنما تحوِّل حصة الأحياء لحفظ جزء عمَّ. في الجامعة لم يكن الأمر بهذه السهولة، كان مختلفاً تماماً، فليس ثمة كتاب واحد يسهل التهامه، وحتى الكتب والمراجع لا تغني عن محاضرة الدكتور، ففي نهاية الفصل الأول، تورّطتُ في الاختبارات، وحملت معي ثلاث مواد، أذكر أنني أخبرت أمي، فلم تكترث، قالت المهم أن تتخرَّجي دكتورة، وتصيري مثل خالتك عزَّة، وعمّك عبد العزيز (خالتي عزَّة استشارية نساء وولادة، وعمّي عبد العزيز استشاري باطنة).

هذا البرود من قبلهم جعلني أكثر إهمالاً، وعرضة للطرد، لولا شخصيتي المرحة، التي جعلتني معروفة لدى جميع أساتذة الكلية، بل تناقلوا نكاتي، أتذكّر كيف كان الطلاب والطالبات في منتهى الجدّية وهم يجيبون كيف تغيَّرت حياتهم بعد انتظامهم في الطب، بما أحاط بها من جدِّية وانضباط ومذاكرة، حين جاء دوري قلت لهم إنني صرت دكتورة رشا، أكتب وصفات طبيَّة لأهلي وأقاربي، فضجَّت القاعة ضحكاً، حتى الدكتور الرزين لم يتمالك نفسه وهو

يقول: أهم شيء دكتورة رشا ركزي على المسكنات، بندول وما شابه.

كانت خفَّة روحي تنقذني من الفشل مراراً، تجاوزت السنة الأولى دونما إنذار أو طرد، وفي السنة التالية، جاء عبد الإله نجدياً وسيماً وجذّاباً، وقادني إلى جنَّة العشق، ومأوى اللذة، حيث كانت سلالم الطوارئ في طرف المبنى هي المأوى، وقد جذبني إليها أول مرة، وقطفنا قبلتنا الأولى هناك، ومذّاك كلما جفَّت شفاهنا، وعطشنا، تسلّلنا مهرولين هناك، كقطَّين بلديَّين، لنلتحم في عناق أبدي حميم.

كبر حبنا، واستطال، لم تعد القبلات وقودنا، بل الشغف والوله الذي يأكل أطرافنا، كنا نحكي في اليوم عشرات المرات، نحكي لساعات طويلة، وحينما نكفَّ عن الكلام، نشعل الكلمات في هواتفنا المحمولة، ونرمي لهيبها وحنينها في سلة الرسائل الفضيَّة، حتى جاء اليوم الأسود، أذكر أنني كنت في غرفتي، بجلال صلاتي، أصلي العشاء، وقد فرغت من كتابة ورقة علمية، بينما ألحَّ جوالي بالرنين المتواصل، وحينما توقف عاد مجدَّداً، فلم أعرف قراءة التحيات في التشهد الأخير، وحينما التقطت الجوال، لمحت رقماً ثابتاً:

«ألو، رشا؟».

«نعم، من حضرتك؟».

«أنا أم عبد الإله!».

ارتجفت، وانعقد لساني، ولا أعرف ماذا قلت، كل ما أتذكره أنها قالت لي بحزن وحزم:

«أنتِ ما تخافين اللّه، غاسله مخ ولدي، أخطب له بنت أختي،

ويرفضها، لأنه يفكر يتزوجك! بعدين أيش نوع العلاقة بينكم؟ وكيف تعرفينه؟».

أصبحتُ خرساء لوهلة، كيف عرفت؟ وكيف حصلت على رقم جوالي؟ وكيف أخبرها ومنحها رقمي دون أن يخبرني؟ أي تابع وجبان هذا العبد الإله، أي أخرق هو؟ كيف لم يرسل لي رسالة على الأقل، كي أستعد لمواجهة كتلك المواجهة غير العادلة، على الأقلّ تصبح الكفّتان متوازنتَين بيني وبين أمه!

استجمعت قواي، وحبست حشرجة صدري، وقبضت على العبرة التي تتسلل في حلقي، ثم تشجّعت وأنا أطمئنها:

«لا تتضايقي خالتي، أهم شيء رضاك، ما لك إلا الذي يرضيك، أوعدك من اليوم ما أتصل، ولا أرد عليه، أنا ما أبغى مشاكل يا خالة!».

استكانت، وأكَّدت من جديد بأنه لن يتزوج إلا ابنة خالته، وحذّرتني بطريقة جعلتني أنهار باكية حينما أقفلت الخط في وجهي، رغم أنني متماسكة وقتها، لكنني أنتفض غضباً منه، فكَّرت أن أتصل وأشتمه، وألعن الخامس من أجداده، لكنني تذكرت الوعد الذي قطعته لأمه، فكففت عن ذلك.

قررت أن أتوقف تماماً، أن أقوّي قلبي، لأحذف حبه المقدّس من نافذة غرفتي، حتى أسمع صوت ارتطامه على بلاط الحوش، حاولت أن أفكر لدقائق، لكنني عجزت، فكتبت له رسالة غاضبة، وطلبت منه أن يوقف هذه العلاقة، وأن يتحاشى وجودي في الكلية، وكتبت في آخر الرسالة أن هذه آخر رسالة، وسأغلق الرقم الذي جلبه لي نهائياً.

كنت بحاجة إلى أن أحكي وأبكي، اتصلت بصديقتي سامية، من أيام الثانوي وحتى الجامعة، كانت تعرف علاقتي به من أول يوم، حكيت لها كل التفاصيل عنه، عن حبنا الذي ينمو، عن خططنا للزواج، عن أحلامنا بعد ذلك، وكانت تفاجئني أحياناً، بألّا أصدق وعوده، لأنه لعوب وغير جاد، ولأنني أغضب منها حين تحكي عن حبيبي بهذه الطريقة، صارت تتحاشى ذلك، ولا تعلّق إلّا بما أحب أن أسمع، تنهَّدتُ، وأنا أرخي رأسي على مسند المقعد في الطائرة، وأهجس متسائلة، لماذا يستيقظ الديكتاتور الصغير في دواخلنا، ويقمع من يريد أن يكشف لنا الواقع والحقائق؟

بعد ضياع الحلم تغيّبت عن الجامعة ليومَين متتاليَين، قلت لأمي إن الكلية تنظِّم معرضاً خلال هذين اليومين، وليس ثمَّة محاضرات خلالها، فانطلت الكذبة على أمي، كما الحيل والأكاذيب التي أتفنّن دائماً في رسمها بحرفة، لم أتنبّه لاتصال سامية زميلتي في الكلية إلا مساءً، قالت إنه يبحث عني كالمجنون، وسألها عني، فقالت له إنها لا تعرف، وطلب منها أن تتصل بي من جوالها، كي يحادثني، لكنها اعتذرت، لم تعرف سامية ما حدث لي، رغم أنها تعرف علاقتنا العميقة.

تمنيت أن أتغيّب لليوم الثالث على التوالي، لكنني لم أستطع، فالغياب الثالث عن التطبيق، يعني الحرمان مباشرة من المادة، فاضطررت إلى الذهاب بقلب مكسور، قمت صباحاً، تحممت، جعلت الماء الساخن يذيب حزني العميق، كانت قطرات الألم تنساب في فتحة التصريف، جفّفت شعري الطويل، ولففته في دوائر، ثم عقدته، رسمت حاجبي الهلاليين النحيلين، ووضعت أحمر

الشفاه، ارتديت جينزاً وقميصاً على عجل، واختبأت تحت عباءتي حاملة معي حقيبة المذكرات والكتب.

كيف أحضر ولا يراني؟ كيف أتحاشاه؟ أتوارى عنه؟ أختبئ عن مرمى عينيه؟ أجزم أن ذلك مستحيل، فهو حتماً ينتظرني بجنون، وهذا ما حدث، لكن هل كنت لا أريده، هل رغبت أن أتحاشاه حقاً؟ لِمَ إذاً ذهبتُ باكراً إلى المستشفى، لِمَ كنت هناك قبل العملي بنصف ساعة تقريباً، ما إن وصلت عند الاستقبال، حتى كانت سامية تتصل، وتسألني عن مكاني، سرت نحوها، وما إن عثرت عليها قرب غرفة الأشعة الصوتية، حتى ظهر فجأة بوجه مخطوف، توسَّل نحوي، وهو يمسك بيدي طالباً أن نسير معه، كان يتمتم بأن عليّ أن أسمعه لدقائق، سرنا أنا وسامية خلفه، في نهاية الممر كان سلَّم الطوارئ خالياً تماماً، فجأة، وبلا مقدمات، عانقني بقوة أمام دهشة صديقتي، في البدء كانت يداي مدليتان بلا مبالاة، لكن احتضانه المجنون، وقبلاته على رأسي، وجبيني، وكفِّي، وبكاءه المرّ، وهو يردّد: «أنا أحبك رشا، أحبك وحدك، لا أحب أحداً سواك»، جعلني أشهق في نوبة بكاء: «وأنا أحبك وأموت فيك»، قلت ذلك وأنا أتشبّث بعنقه، وأضع رأسي فوق صدره، أتذكَّر كيف كانت صدمتي كبيرة وأنا أرى رجلاً يبكي أمامي، كان يهمهم مرتعشاً، ويعدُ بألّا يتركني أبداً، وسيتزوجني رغم أنف العالم، وابنة خالته لا تعنيه إطلاقاً، فهي موجودة أمامه لسنوات، ولم يفكر فيها نهائياً، ذبتُ عشقاً وأنا أردّد بعبرة خانقة: «ربي يخليك لي، ولا يحرمني منك» ويجيب: «آمين، آمين، ويخليك لي». ظللت نصف ساعة في حضنه، ورأسي على صدره، يمسِّد شعري، ثم يرفع وجهي برفق،

ويتأملني بعينَين دامعتَين، هامساً: «أحبك»، بينما صديقتي تتأمل وتتنهَّد، ثم في النهاية طلب مني وعداً، بأن أكون له، وأن يكون لي، مهما حدثت من صعوبات في حياتنا، وتعاهدنا أمام صديقتي سامية، مخزن أسرارنا الكبير.

أصبحت سلالم الطوارئ، تلك التي لا يستخدمها أحد، هي غرفتنا الأثيرة، فيها احتضنته، وفيها جرَّبت القُبلة الأولى، والقبلات الخاطفة المسروقة، والقبلة الطويلة العميقة؛ القبلة الناعمة، القبلة القوية الشرسة، كأننا في فيلم من أفلام الستينيات المصرية، وكانت صديقتي سامية هي المُشاهد الوحيد، لم نذهب يوماً دون أن تكون معنا، تراقب السلَّم خشية الطارئين، لتنبّهنا ما إذا عاجلنا أحدهم ممن لا يطيق انتظار المصاعد، وجاء مستعجلاً نحو السلالم، مع أنها تذوب كثيراً في المشهد، وتنسى المراقبة غالباً، لكنها في كل الحالات مفيدة، لو جاء أحدهم فجأة إلى سلَّم الطوارئ، فوجود ثلاثة أشخاص أكثر أماناً، وأسهل تفسيراً، من وجود رجل وامرأة وحدهما في مكان قصيٍّ كهذا، كم كانت تلك اللحظات من أجمل لحظات حياتي، وأكثرها شغباً وجنوناً، أتذكَّر في أحد اللقاءات، بينما عبد الإله يتأمّل عينَيّ، ولم يكن جرَّب أن يقبّلني في فمي، سألني إن كان ممكناً أن يفعل، ويقبّلني في فمي؟ فخجلت وسكت، فاقترب ببطء من وجهي، وفعل ذلك، فتأوّهت سامية، وهي تزفر بلؤم: «اللّه لنا». فتوقف حبيبي المجنون، والتفت نحوها مبتسماً: «ليه اللّه لك؟ تجربين؟» صاحت بجذل: «قدَّام»، فاقترب منها، وهما ينظران نحوي بابتسامتَين خبيثتَين، فابتسمت لهما وأنا أقول: «عادي، جرِّب، أدري أنك تحبني»، فقبَّلها بشكل خفيف وعابر،

دفعته وأنا أقول: «أكثر، أعرف أنك لن تستغني عني لو قبّلت بنات العالم كله»، فابتعد عنها، وأقبل نحوي يعانقني بلهفة، ويمطر فمي ووجهي كله بقبلات متتالية، ثم يقضم أرنبة أنفي بأسنانه، وهو يغمغم: «يا حبي لك!».

تنهّدت رشا مسترخية على مقعدها في ظلام كبينة الطائرة، المتجهة غرباً، وهي ترسم ابتسامة صغيرة مواربة، وتستعيد حكايتها العجيبة، قصة الحب التي جعلتها تجلس على هذا المقعد الوثير، هاربة من كل الذكريات التي كانت صندوقاً سحرياً رائعاً، متسائلة بدهشة، كيف يمكن أن يذبل هذا الحب المقدّس، كما كان يسميه عبد الإله؟ كيف؟

فكّرت أنها لن تنام رغم طول هذه الرحلة، لن تنام فرحاً بالمجهول، أم هرباً من بيت منهار، ومن حب مدمّر، ضغطت زرّ طلب المضيفة، وطلبت قهوة أميركية، وأغمضت تستعيد العالم الذي تركته هناك في الأسفل، نعم هو العالم السفلي، وأنا رشّو الجريئة، الطائرة في العالم السماوي، من حقي أن أهرب من عالم بشع وقذر، بحثاً عن حياة أخرى، حياة جديدة ومختلفة.

لم أشعر بالشهور الأربعة التي مضت، مرقت كأربع حمائم بيضاء عبرت فوق منزلنا بحي السليمانية، حيث أجلس تحت شجرة التوت الوارفة، كانت تلك الشهور هي فقط البيضاء التي شعرت معها بذاتي، ما عدا ذلك كانت أيامي غرباناً سوداء، تقف على سترة السطح، ولا تكفُّ عن النعيق، بينما ألتقط ملابس أخوتي من على حبل الغسيل!

(3)

كما لو كان طفلاً يتسلَّى بدمية

كنتُ أرضه اللدنة، وظننته مائي السخي، بينما كان الضوء الذي يهب شجرة حبنا الصغيرة همسنا الليلي الطويل، حلمتُ بشجيرة يانعة، فيها طبيبان، رشا وعبد الإله، وثلاثة قناديل صغيرة تملأ البيت بالضوء والضحكات، هكذا أمعنتُ في الحلم أربعة أشهر كاملة، كنت أبرّر غيابه أحياناً بانشغاله، حتى الضوء الذي نشعل به ليلنا افتقدته، لم يعد عبد الإله الذي عرفته، وأدمنت حبه، حينما أتصل به كعادتنا، لكي نسهر معاً، لا يجيب، يعتذر بحجّة مذاكرته مع صديقه، وحينما أجد هاتفه المحمول مشغولاً، يبرِّر بأنه يحادث صديقه، مرة يساعده في حلّ مشكلة عائلية، وثانية يجادله حول مباراة الأمس، وثالثة يناقشه بجدوى الاكتتاب في شركة جديدة، وهكذا يستمرُّ هاتفه المحمول مشغول ليلاً، وتستمر الأكاذيب والإهمال، حتى إنني حينما أتحدث عن مستقبلنا وزواجنا كان يجيب بلا مبالاة: «اللّه يسهّل»!

لم أفكِّر ولو لوهلة بأنه لن يختلف عن الآخرين الذين يختارون حبيباتهم، وفي النهاية تختار أمهاتهم زوجاتهم. هل ما زلت فعلاً

حبيبته، أم أن للحب مدة صلاحية، تنتهي بانتهاء الشغف الأول؟ ولكن هل يبرعم الحب كالشجر؟ ينفض أوراقه الصفراء والميِّتة، كي يورق مجدّداً؟ هل عبد الإله يشعر بقلق، يفكِّر كما أفكِّر؟ لماذا لم تعد مكالماتنا كما كانت في البدايات، ساعات تجرُّ ساعات؟ لماذا أصبح الواحد منّا يطمئن على الآخر كمن يؤدي واجباً؟

هل كان أصلاً كاذباً منذ البداية؟ هل يعبث بمشاعري وحبي الكبير، ولم يكن جادّاً؟ لا، لم يكن كذلك، لو لم يكن جادّاً لما عرَّفني إلى أخته المقرَّبة جداً منه، أخته سلوى طالبة الاقتصاد بجامعة الملك سعود، حين جلسنا ثلاثتنا في مقهى المساء، وتحدثنا طويلاً كصديقتين، إلى درجة أننا نسينا وجود عبد الإله، الذي تنحنح بخفة روحه واقفاً: «استأذنكم، جلستي ما لها داعي، أشوفكم بكرة!» فضحكنا واعتذرتُ منه، بينما سلوى أجابته بلؤم: «اللّه معك!».

ما الذي تغيَّر إذاً؟ هل هدأ الحب شيئاً ما، لأنه افتقد التحدي الذي كان يشعر به عبد الإله في البدايات، فبعد أن أصبحت الأمور واضحة، وأحبَّتني عائلته كلها، وكل شيء يسير في طريقه إلى الاكتمال، لم يعد يهتم بالموضوع كثيراً. هل صحيح أن الهدف حين يصبح على مرمى ذراع يتلاشى، وحين يكون مستحيلاً يدقّ الباب بخفرٍ مثل غريب في منتصف ليل؟ هل حينما اقترب عبد الإله تلاشى، حينما استحال سفري للدراسة تسلَّل نحوي وأنا أرقد على سرير أبيض؟

أتذكَّر، كانت السابعة مساءً، وقد خططت مع سلوى بأن تدعوه بعد أيام، في الثامن عشر من إبريل، الذي يوافق مولده، إلى غداء في مطعم عبد الوهاب، فأباغتهما بحضوري فجأة. كنت قد ادّخرت

مكافآتي الجامعية لثلاثة أشهر، لأجهِّز كعكة جميلة، تومض فوقها شموع عمره، وكذلك لأجلب له هدية تليق به، اقترحت سامية أن أقتني له محفظة جيب، قضيت ساعات أطوف المحال المختصة بإكسسوار الرجال، حتى عثرت على زرَّي أكمام فضيَّين جميلَين من مونت بلانك، وجدتهما لائقَين بحبيبي، فكرت أن هاتَين القطعتَين الصغيرتَين، أمسك بهما معصميه كي لا يهرب منّي أبداً، فكلما بدَّل ثوبه، وضع هاتين القطعتين الثمينتين في الثوب الآخر، وكأنني أنقل القيدين من ثوب إلى آخر، وأدعوه لأن يتذكرني على الدوام.

لم أتصل به خلال اليومَين السابقَين لحفل عيد ميلاده، أردت أن يكون دخولي المطعم مفاجأة جميلة له، وما إن أرسلت لي سلوى تخبرني أنهما جلسا في جلسة مقفلة، حتى هبطت من السيارة، وطلبت من النادل أن يحمل الكعكة أمامي، ويغنون «هابي بيرثدي تو يو» تقول لي سلوى فيما بعد إنه حين سمع الأغنية ظلَّ يسخر كعادته. فتح النادل الباب وهو يغني ومعه آخران، ودخلت خلفهما وأنا أردِّد، فعانقني ضاحكاً، وعلى ملامحه دهشة، ثم التفت نحو أخته: «أقول ما هي عادة تعزميني!».

أطفأ الشموع، وتناولنا قطعاً صغيرة، وهو كل فينة ينظر في جواله، ثم مسح فمه، حيث قطعة كريم صغيرة، والتفت نحو سلوى: «لما تخلصوا كلمي راجو، أنا عندي موعد مع الشباب»، وقبل أن ينهض أخرجت علبة الهدية من حقيبتي، وناولتها إياه، التقطها وشكرني، وهو يقبلني ببرود، خرج مهرولاً أمام وجومي.

عمَّ الصمت لوهلة، حاولت سلوى أن تمازحني، وتقول إنه خبل وهذا أسلوبه، كنت حزينة وغاضبة جداً، لِمَ يفعل بي ذلك؟ ما

الذي تغيَّر في حياته؟ حياتنا؟ أي شيء فعلته لم يرق له؟ لماذا لم أعد أثير اهتمامه؟ أين لحظاتنا المدهشة في بيتنا الصغير «سلَّم الطوارئ»؟ كيف أستعيد لحظة بكائه، وأفهمها، حينما جاء يعتذر عن اتصال أمه؟ أين وعوده بأن نبقى معاً، وأن نعيش لبعضنا، مهما كانت الظروف؟ ها هي الظروف أصبحت رائعة، وها هي أختك صارت صديقتي، لكنك أنتَ لم تعد أنت، فماذا جرى؟

استأذنت من سلوى، حاولت أن تخفّف الأمر ضاحكة: «معقول رشا، تتركيني وحدي؟». طلبَت أن نأكل قليلاً حتى يصل سائقها، جاملت لدقائق، لكنني لم أستطع أن أضع شيئاً في فمي. اعتذرت منها، وخرجت. لم أكن أمشي بتثاقل، بل أهرول، كأنما يفضني الغضب والشر. طلبت من السائق الهندي آصف أن يرفع صوت إذاعة بانوراما، لم أرغب بمحادثة صديقتي سامية، كي أفضفض. كنت أسمع صوت عبد المجيد ينوح، اللعنة، لماذا يغني كما لو كان يبكي، رغم أغانيه الطربية المعتادة، فتّشت خانة الرسائل في جوالي، قلت يمكن أن يعتذر عن خروجه المبكّر من حفلة عيد ميلاده، لكنه بالطبع لم يفعل!

فكَّرت أن أرسل له، أشتمه، أو أعاتبه على قلة أدبه، وعدم احترامه لكل ما فعلت لأجله، من ترتيب المناسبة، والتورتة، والهدية، بل مجرَّد شعوري به وتفكيري الطويل يستحق التقدير أو حتى المجاملة.

لم أتمالك نفسي طويلاً، فقررت أن أتصل به، وأحسم هذا الأمر معه، رغم شعوري بالمرارة، وأن هناك أمراً سيّئاً، فالرجل يرى بقلبه امرأة أخرى، حين لا يرى المرأة الجاثمة أمامه، حتى لو

كانت تلوِّح له طويلاً كي تجذب انتباهه، باله وتفكيره في مكان آخر.

لا أعرف لماذا شعرت، ولأول مرة، أن قلبي ينقبض حين رأيت اسمه في جوالي، فترددت في الاتصال، وقررت أن أنتظر حتى أصل إلى البيت، وأحادثه من غرفتي، حين مررت بأمي وهي تتابع مسلسلها التركي المفضَّل. سألتني لِمَ عدتِ سريعاً، وقد كنت كذبت عليها بأنني ذاهبة مع سامية للعشاء احتفالاً بعيد ميلادها، فأخبرتها أنها لا تريد أن تتأخر، وهرولت إلى غرفتي، ورميت بجسدي على سريري، دون أن أخلع بلوزتي، اتصلت به مباشرة، فلم يجب، انتظرت دقائق كي يتصل، لكنه لم يفعل، فأعدت الاتصال به، ولم يجب، ولا أتذكر عبارات الرسالة الغاضبة التي أرسلتها له، أتذكَّر أنه اتصل بعدها بدقائق، ضاحكاً كعادته، وكأن لم يحدث شيءٌ، لكنه حين شعر بجدّيتي توقف لوهلة، كنت أسأله لماذا تغيّرت؟ وأضفت: «سمعت عني شيئاً ضايقك؟» فنفى بجدّية هذه المرة، وهو يقول: «ما شفت منك إلا كل حب واهتمام وإخلاص». هدأ وجيب قلبي قليلاً، ثم حفّزته أن يصارحني بداخله، أن يحكي بصدق: «صح اتفقنا نكون مرة واضحين مع بعض؟ أي شيء أقوله لك، وأي شيء تقوله لي؟».

أجاب موافقاً، ثم اعترف!

لم أستطع أن أستوعب، أبداً لم أفهم كيف فعل ذلك، ولا كيف يقوله لي بكل هذه الوقاحة والاستهتار والرعونة، كانت صدمتي كبيرة وهو يعترف، لم يكن يعترف بحزن، أو بأسف، أو حتى بشعور بالذنب، بل يحكي كما لو كان طفلاً يتسلَّى بدمية، يملُّ منها ثم يرمي بها بعد أن يتلفها، بعد أن ينتف ذراعيها واحدة واحدة، ثم يخلع

رأسها، ويفكّر أن يترك قدميها، ليضحك وهو يرى كيف لدمية أن تمشي بقدمين، ومن غير رأس ويدين، كنت أنا الدمية رشا، أمشي في غرفتي ليل الثامن عشر من إبريل بلا رأس، وبلا يدين، كنت أصطدم بالجدران، وبخزانة الملابس، أتعثّر بحافة السرير وأسقط، أتعثّر بالكرسي وأسقط، كنت أشعر بالدوار، اللعنة عليَّ أبداً، أشعر بالدوار ولا أسقط، حتى وأنا بلا رأس، وبلا يدين استند بهما عند السقوط، كم تمنّيت أن أُكبَّ على وجهي، وتتحطم أسناني الأمامية، وينكسر أنفي الذي قبَّله مراراً عند سلَّم الطوارئ، لكنني سألته كطفلة: وأنا؟

لم أكن مصدّقة، ظننتها من مزاحه السخيف، فكيف تتصل به فتاة بالخطأ، ثم يقع في حبها؟ أي جنون وعبث هذا؟

وأنا؟

كنت أسأل وأنا أطوف كذئبة في غرفتي، ماذا ستفعل بي؟ في أي نفاية سترمي بي؟ كنت أسأل: «من جد تتكلَّم؟ تحب غيري؟ وأنا؟ وين موقعي من الإعراب؟»، كان يقول باستهتار بغيض: «أنتِ زوجتي وأم عيالي إن شاء اللّه»، صرخت به: «زوجتك، وتكلّم غيري؟».

قال ببرود: «أنتِ تحبين الصراحة، وكنت أقدر أمشّيها عليك، وأكذب، ولا أعلّمك إني أكلّم أحد».

تنهّدتُ بعمق شديد: «شكراً على صراحتك، بس لازم تختار، يا أنا؟ يا هي؟».

أجاب بوقاحة، وقد ندمت كثيراً إذ انتظرت إجابته: «لا، أختاركم كلكم».

كأنه اختارها، لكن بطريقة غير مباشرة، فأجبت بحدّة: «أجل أنا ما أبغاك، انتهى كل شيء».

قلتها بجرأة وشجاعة، وأقفلت الخطّ في وجهه، وانهرت باكية، ظللت أبكي طوال الليل، وفي الصباح كانت عيناي متورّمتَين، وقلبي مكسوراً، وصداع هائل يجثم فوق كتفي، تحسست ذلك الشيء الذي يبث الصداع، كان رأسي إذاً لم يزل فوق كتفَي الصغيرَتين، ذاك الشيء المسمّى: رأس، إذاً لم يخلع الطفل العابث رأس الدمية كما ظننت، حينما عصف بي الدوار البارحة، لم يزل لي رأس يوجعني، رأس أفكّر به، يحمل عينين وشفتين، يحمل أنفاً يتنفس الهواء، ويميّز الروائح، ويشم العطر والوردة، ويمكن أن يقبّله رجل آخر، له اسم آخر، وثقافة أخرى.

لكنه لم يُوقف قبحه، ولم يكفّ عن وقاحته، وتحدّيه السافر الذي لم يقتلني، بل جعلني أقوى، وحرَّرني من حبّه إلى الأبد، وقد أرسل لي رسالتَين صباحيتَين: «تعتقدي أنني ملاك، ما أخطئ، أنا بشر، بني آدم، أي إنسان ممكن يخطئ»، وبعدها بنصف ساعة كتب رسالته الأخيرة: «رشا، أنا عارف أنك تحبيني، وما تقدري تتركيني، وراح ترجعي لي غصب عنك».

أي سخف، وأي ادّعاء يركب عقلك أيها الوغد الصغير؟ عليك أن تعرف أيَّ قوة في داخلي، وأنا أقول لنفسي: «أنتِ بنت رجال، ويجب أن تمسحي هذا الأبله من خارطة الإنسانية كلها». رسالته هذه مسَّت كرامتي، وولَّدت في داخلي قوة هائلة، حتى إن ظللت ساعات طويلة، وليالي لا تنتهي من البكاء، كنت أبكي كل ليلة، وأنا لا أتخيّل كيف انهار حلمي الجميل، وحتماً لو خُيِّرت بين دراستي

وحياتي مع حبيبي كزوجين، لاخترت الثانية، لكنه وقد داس كرامتي، ومسح بها بلاط غروره، فلا يمكن أبداً أن أبقيه يوماً في ساحة ذاكرتي الصغيرة، عليَّ أن أرمي به من الأعلى!

هكذا قررت بحزم أن أهجره إلى الأبد، لكنني خشيت من وجوده معي في الجامعة، وأن يؤذيني، أو يغويني يوماً، ويجذبني إلى بيتنا المخبأ عند سلالم الطوارئ، كي يتسلَّى بتقبيلي، لكنني لن أسمح له إطلاقاً بمجرد الحديث معي، أو حتى النظر إليَّ.

(4)

هل أرقص في بيتي القديم؟

كنت مع زميلاتي في مقهى الكلية، أتذكَّر أن الوقت كان ربيعاً، وهنّ يتحدثن عن فتح القبول في بعثات الملك عبد اللّه إلى الخارج، كنت أنصت كطفل يكتشف الأشياء، لأول مرة أسمع عن برنامج يتكفّل بالسفر والدراسة في أفضل جامعات العالم، ويمنح المكافآت للطالبات والطلاب المقبولين. لم يكدن يتحدثن في موضوع آخر حتى هرولتُ تجاه غرفة المكتبة الصغيرة في القسم، وأمام شاشة الجهاز كنت أردِّد في سرِّي: «وجدتها»؛ تأملت بوابة القبول، فكَّرتُ، سأفتح هذه البوابة وأدلف، كأنني أليس في بلاد العجائب، سأجري خلف الأرنب الأبيض الجميل، وأهوي في عالم آخر، سأصغر وأكبر، سأكبو وأنهض، وأقتحم الباب السرِّي في جذع الشجرة الكبيرة: أميركا، سأركض في ولاياتها ومدنها، وأكتشف أسرارها، سأبحث عن حياة أخرى، بعيداً عن هذا العالم الممل، عن هذه الجامعة، عن بيتنا، عن حي السليمانية، وشجرة التوت العتيقة، عن أهلي، عن أبي، وعن عبد الإله. أريد أن أكون أقوى، وأعتمد على نفسي بعيداً عن أهلي وناسي.

تصفّحت شروط القبول، شروط لا تعني شيئاً، ألا تقل نسبة الثانوية عن 85 بالمئة في قسم العلوم الطبيعية، ولا تقل درجة اختبار القدرات عن 70 بالمئة، وألا يكون قد مضى على حصوله على شهادة الثانوية العامة أكثر من ثلاث سنوات من العام الدراسي 2003-2004، كلها شروط عادية، ما جعلني أرتعش فرحاً، وقلبي يرفرف متململاً في قفصي الصدري، ليطير كعصفور من النافذة، يحلّق حول نخلة قصيرة، ويحط على عسيبها، يزقزق قبل أن يرمي فضلاته اللزجة على بلاط فناء الكلية، فأبتسم وأقول له: تعال يا قلبي، عد إلى قفصك، فلم يزل في الأمر بقية، شروط وشروط، فالطريق طويل يا عصفوري المغامر!

هناك قبول ولو مشروطاً من جامعة معترف بها، وتأشيرة دراسة من الولايات المتحدة، واعتماد مالي، ومحرم، و. . . و. . . إلخ.

أقفلت الجهاز، وقررت أن أتدبَّر الأمر بهدوء، في الطريق إلى البيت كانت الرياض مقطّبة منتصف يوليو، تحدِّق بي من خلف زجاج السيارة، وترسل نحوي شجرها الذي يعصف به العطش، كما أنا، ذلك العطش الذي يجفّف الحلق والروح، العطش إلى شيء لست أعرفه. شمس الظهيرة حارقة وهي تصفع وجه السائق الهندي آصف رغم نظارته الشمسية الرخيصة. مرقت بجوار أمي وهي تتحدث في هاتفها، دخلت غرفتي، وبدلت ملابسي، ثم صليتُ الظهر على عجل، وهاجس السفر يحلّق فوق رأسي الملفوف بشرشف الصلاة، وما إن جلست على الجهاز، حتى تسابقت الأحرف في خانات طلب الابتعاث على «أون لاين»، وحينما توقفت أمام اسم المرافق، وأنه يجب ألا يكون موظفاً، أو أن يتقدم بطلب إجازة، ليقيم مع الطالبة

في مقرّ ابتعاثها طوال مدة الدراسة، تعثرتُ لدقائق، أفكّر، ثم تهورت وسجّلت اسم أبي، وأخذت رقم هويته الوطنية، من دفتر العائلة، كنت أحتفظ بصورة منها، وأكملت الطلب، ثم أرسلته «أون لاين»، ضغطت «إدخال» بقلب شجاع ومغامر، ثم استرخيت على ظهر الكرسي، وتنفست بعمق.

في اليوم التالي كنت أفكر، هل سيتم استلام طلبي، والتعامل معه بجدّية؟ هل سأتمكن من تمرير موضوع المرافق، لحين الموافقة على ابتعاثي، ثم أفاتح أهلي وقد تأكدت أن كل شيء جاهز للبدء في حياة جديدة؟ كانت الأسئلة تطوف في رأسي المغامر.

في ليلة الحادي والثلاثين من يوليو 2006 كنت أنتظر إعلان الترشيح المبدئي بوجل، كان تحدّياً كبيراً أن أخطو عتبة في سلّم غامض نحو الشمس، يا لها من دهشة، وسعادة سرّيّة أن أجد اسمي مضيئاً، رشا بنت سعيد، وأن عليّ حضور المقابلة الشخصية في منتصف أغسطس، رغم سعادتي العابرة كان ثمّة قلق يحيط بي، هل لهفتي على الدراسة في الخارج، ورغبتي الكبيرة، وأخذ الأمر في منتهى الجدية، سيجعلني أفشل في المقابلة، على عكس لا مبالاتي أثناء مقابلة جامعة الملك سعود؟ وهل عليّ أن أكرّر تجربة السخرية في هذه المقابلة؟ أم أن الأمر يختلف، والأشخاص يختلفون؟

أنهيت المقابلة، كنتُ جادّة ومتّزنة، خرجت مطمئنة نوعاً ما. وطلبت من آصف أن يتجه إلى أروما كافيه، كانت سامية تنتظرني هناك، لم أخبرها من قبل بما فعلت، كنت أخشى أن تثنيني عن قراري، وما إن أخبرتها أنني جئت من مقابلة شخصية للابتعاث حتى

وجمت لوهلة. ظننت أنها ستسعد لي، تناقشني، تفكّر معي ماذا عليَّ أن أفعل لأقنع أهلي، لكنها تفرَّغت تعاتبني لماذا لم أخبرها، لماذا خبّأت عنها.

هل علينا أن نكون كتاباً مفتوحاً؟ ألا توجد عبارات غامضة يجب أن تبقى غامضة وسرِّية؟ لماذا تتحول علاقة الحب مع الأصدقاء إلى سلطة مؤذية أحياناً؟ وأكثر من هذا لماذا يجب عليَّ وأنا أتجرَّع كوب الموكا أن أبرِّر لها، بأنني لست متأكدة من انطباق الشروط، وأنني سأتجاوز بعض مراحل التقديم على الابتعاث. حتى النادل لاحظ انفعالها وقلقها وهي تهزُّ ساقها بتوتر.

حين جلست مع أمي سألتني عن سامية، وحدثتها بشكل عام، وكنت أقاوم رغبة إخبارها بأنني عدت من مقابلة شخصية للقبول في الابتعاث إلى الخارج، لكنني قلت سأنتظر ظهور نتائج القبول النهائي بعد أيام قليلة.

استيقظت فجر الثاني من سبتمبر. ثمة نسمة هواء ساخنة تحرِّك ستارة النافذة المطلَّة على الشارع، كانت سيارة النظافة الصفراء تقلب صندوق النفاية داخلها، بينما يتشبث عاملان في ركنيها وهي تهدر في العتمة. فتحت جهاز الكمبيوتر، وفتحت على البوابة الإلكترونية لوزارة التعليم العالي، ولم تعلن النتائج بعد، هبطت متسللة من الدرج. صنعت لي قهوة أميركية والتقطت قطعة بقلاوة، ثم عدت إلى غرفتي.

الساعات القليلة قبيل الثامنة كانت تمثِّل دهراً، تتمطى ببطء، جاءت الثامنة ولم تُعلن النتائج، قمت بتحديث الصفحة مرة بعد أخرى، وقبيل التاسعة أضاءت لافتة القبول النهائي، قائمة أسماء

عديدة، حرَّكت «الماوس» الذي صار يركض، مثل عجلات سيارة تبتلع عيون القطط أسفلها، وصلت النهاية ولم أجد اسمي، تسلل خدر بارد في أناملي، عدت مجدَّداً، ولكن بقراءة متفحِّصة، أركز على الترتيب الأبجدي، حتى أشرق اسمي أخيراً، يا إلهي. . . يا لها من لحظة عظيمة!

تركت الجهاز وركضت نحو غرفة أمي، ولم أجدها. كانت في المطبخ تبهِّر قهوة الصباح، ارتعبت وهي ترى لهاثي. قلت لها: «قبلوني»، لم تفهم لوهلة، ثم أخبرتها بما فعلت، واحتضنتها من الخلف، وأنا أناغيها: «انسي الموضوع يا رشا، وركزي في دراستك»، وأضافت وهي تضع الدلة على الآنية: «بعدين أنتِ في أحسن الجامعات، ماذا ينقصك؟».

بعد بضعة أيام، بينما أقف أمام آلة بيع المشروبات الغازية في المستشفى، أضاء رقم هاتف ثابت في شاشة هاتفي المحمول، ظننته عبد الإله، متخفياً خلف رقم مجهول لا أعرِفه، أجبت بحذر وتردُّد، وبصوت منخفض ومتعثر، وما إن عرَّف المتحدث بنفسه، حتى تركت الآلة مرتبكة، قبل أن أدخل رقم البيبسي دايت، مع أنني غرست خمسة ريالات في جوفها، هرولتُ نحو زجاج مطل على حديقة صغيرة: «نعم أنا رشا بنت سعيد أستاذ».

قال لي المتصل من وزارة التعليم العالي، أن أحضر تعهُّداً خطيّاً من والدي، بأنه سيترك العمل طوال مدة الدراسة، وحين حاولت الالتفاف والمراوغة، أجاب بنبرة أبوية: «يا بنتي، ما تقدري تراسلي الجامعات في أميركا من غير ضمان مالي، والضمان المالي لا تصدره الوزارة بدون التعهد من المرافق، الذي هو والدك».

أجبت بثقة وادعاء: «صحيح يا أستاذ، لكن الوالد لن يأخذ إجازة من عمله، إلا بعد أن تتم الأمور، ويتأكد من دراستي».

لمحت السيدة التي كانت تقف خلفي أمام الآلة، ترفع يدها نحوي، وتشير إلى الآلة، التي التهمت نقودي، وصاحت مراراً كي أختار ما أريد، لكنني لن أختار سوى أرض الحلم، أميركا، لهذا كنت أنصت بلهفة للمتحدّث: «يا بنتي، هو يكتب التعهد أولاً، ولا يأخذ إجازة الآن، فقط يتعهد أنه سيأخذ إجازة من العمل، ويرافقك كمحرم طول فترة دراستك».

«ممكن أستاذ رقم جوالك؟».

«لماذا؟».

«أرجوك ساعدني، لو احتجت أسألك، أسهل لي اتصل فيك، بدلاً من سنترال الوزارة!».

«طيب، هذا رقمي».

«أول ما أجيب التعهد سأتصل بك، ألف شكر أستاذ».

كنت أرفرف، كأنما نبت لي جناحان من فرح، كأنني لا أمشي في الممرات، بل أطير، نسيت الآلة، والعطش، نسيت البيبسي دايت، لا أريد ميرندا ولا رد بول، أريد أن يكتمل الحلم، الذي بدأ بخطوة صغيرة، ويحتاج إلى صبر وشجاعة، وعراك مع أمي وأبي، كيف سيقبلان أن أسافر وحدي إلى أرض غريبة؟ كيف أقنعهما؟ الأمر حتماً مستحيل، هكذا فجأة تضاءلت فرحتي، لم استمرّ في الطيران كما قبل قليل، بدأت أهبط وأتثاقل، لا غيم ولا سماء، مجرَّد أبواب تُقفل أمامي، كلما أدرت أُكرة باب بشجاعة، عاندني الباب التالي، حتى شعرت أنني في غابة أبواب موصدة، تكبر

الأبواب وتستطيل، وأنا أصغر وأتقاصر، وكلما انتابتني هذه الحالة تنفست، وقلت في داخلي، سأفعلها، حينما أريد ذلك، وأردد في سرّي، أنني أريد هذا الشيء بقوة، سيتحقق حتماً.

في اليوم التالي، وقبل المحاضرة الأولى، تسللت نحو سلَّم الطوارئ، لا أعرف لماذا اخترته بحثاً عن العزلة، كأنما في ذلك إشارة ما، اتصلت مباشرة بالأستاذ الذي احتفظت برقم جواله، عرّفت بنفسي حالما أجاب، تمنيت أن يكون الوقت مناسباً للحديث، ثم أضفت:

«أستاذ أحتاج منك خدمة وجميلاً لن أنساه لك طول عمري».

«تفضلي».

«اللّه يخليك ويرحم والديك أعفيني من موضوع التعهد، طلع لي الضمان المالي بدونه!».

ظننت أن يغضب، أو أن يقفل الخط في وجهي، لكنه بطريقته الأبوية الحانية، ودونما أدنى انفعال، قال بهدوء:

«يا بنتي، لازم تفهمين أنه حتى لو أعطيتك الضمان المالي، وسافرتِ لأميركا، لا يمكنك الدراسة من غير مرافق، الملحقية هناك ترفض أصلاً تفتح لك ملف من غير مرافق، من شروط فتح الملف والصرف على دراستك وجود مرافق».

«عارفة أستاذ، أنا أحلها بعدين، أنت سهلها من هنا، لحد ما أقنع الوالد، لأنه متردد ولم يقتنع تماماً، وما أبغى البعثة تفوت علي، اللّه يخليك يا أستاذ».

«طيب أشوف، ذكّريني بكرة أحاول، رجاءً لا تتصلي، أرسلي رسالة تذكير فقط».

«أبشر، مشكور أستاذ».

في الصباح التالي أرسلت له رسالة لطيفة فيها دعوات له، لكنه لم يجب، وحين اقتربت الواحدة ظهراً، أرسلت له مجدَّداً، بعدها بدقائق أرسلَ: «إيميلك».

تغيّبتُ عن المحاضرة الأخيرة، وقد جلست أمام الجهاز، كل دقيقتين أفتح بريدي الإلكتروني ولا أجد أي رسالة، ثم أذهب إلى خانة البريد غير الهام ولا أجد شيئاً.

هل يتلاعب بي، أم لم يستطع، لماذا تعاطف معي، وأنصت لي، ولكنه قال لا تتصلي رجاءً. هل كنت مزعجة في إلحاحي؟ لا أعرف، لم يعد أمامي سوى ملاحقة هذا البريد الإلكتروني، وإن لم أنجح، لا بدَّ أن أواجه أبي.

كانت الساعة تقترب من الثانية ظهراً، حين وجدت رسالة في بريدي الإلكتروني، فتحتها، كانت الاعتماد المالي، وكانت خطوتي العظيمة نحو بوابة الشمس.

لقد فعلها هذا الرجل الشهم، هل أرفرف، أم أركض نحو سلالم الطوارئ، وأتدحرج منها بجنون، هل أرقص في بيتي القديم «بيت الطوارئ»، الذي لا يوجد فيه سوى درج، وباب زجاجي، ونافذة طولية، هل أودّع اللحظات البعيدة، حيث احتضنني عبد الإله، وبكى، وفرَّط بي، أم أهبط نحو الآلة الصغيرة وأشرب نخب الحياة، بل سأركض نحو النخلة الشامخة، وأهمس لها، هل ستأتين معي هناك حيث الحلم الأميركي؟

هرولت نحو السيارة، وركبت خلف آصف، ورغم رائحته

الكريهة، كنت أشم عطوراً نفاذة، وأفكر بالخطوة التالية، كيف أدبِّر قبولاً من جامعة أميركية، لا بدَّ أن تخدمني الدكتورة سهير، فهي خريجة إحدى جامعات كاليفورنيا، قلت لنفسي غداً صباحاً أمرُّ عليها، وأتفاهم معها.

اتصلت أمي وطلبت أن أمرَّ محل سعد الدين، لأجلب معي بقلاوة، كنت أود أن أصارحها، بأن الأمر أصبح حقيقة، لكنني تماسكت أمامها وأنا أقول: «بقلاوة بس يا أم سعد؟ قولي سعد الدين كله»، فأخذت لها بقلاوة، وتشيز كيك، ورروشيه، وفي داخلي احتفال سرِّي بالموافقة على ابتعاثي إلى الولايات المتحدة.

في الصباح التالي، وقفت أمام مكتب الدكتورة سهير، إذ تحادث طالبتين في موضوع دراسي، ما إن خرجتا حتى دخلت، تنبّهت إلى أنها ستخرج لمحاضرتها، فلم يتبقَّ إلا خمس دقائق على بدء المحاضرة، أخبرتها أنني أريد مساعدتها بالحصول على قبول من جامعة أميركية. كانت ترتب أوراقها داخل ملف رمادي، طلبت أن أمرَّ بها في وقت آخر، دوَّنت ساعاتها المكتبية في ورقة، ثم خرجت.

أثناء وقت الصلاة، مررت بمكتبها، فاستفسرت عن تخصُّصي الدراسي المتوقّع، وذكرَت لي جامعتَين في لوس أنجلوس، جامعة جنوب كاليفورنيا، وجامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس، أخبرتني أن إحداهما خاصة، والثانية حكومية، وأنهما من أبرز الجامعات في أميركا، والحياة في لوس أنجلوس جميلة جداً، وخصوصاً أنها قريبة من مناطق سياحية رائعة، مثل إرفاين، وسانتا مونيكا، ولاغونا بيتش، وغيرها. أذكر أنني لم أنم ليلتها إلا فجراً، تجوّلت في المدينة، زرت مقاهيها، وفنادقها، ومتاحفها، وكل المدن الصغيرة

المجاورة لها، كنت أركض مجنونة مع خرائط غوغل، أتفقَّد الشوارع والحدائق، وكلّما تعبت جلست على كرسي حديقة، ثم ركضت في الطرقات، حتى بلغت الجامعتين اللتين ذكرتهما لي، تجولت داخلهما، يا اللّه، كانت ليلتي تلك حالمة وساحرة، ناجيت فيها ربي: يا رب، حقّق حلمي وأملي، أريد أن أرى عالمك الجميل بعيداً عن مدينتي الرمادية تلك!

بعد أيام، شاهدتني الدكتورة في أحد الممرات، وأشارت بيدها أن أتبعها، وفي مكتبها ناولتني صفحة مطبوعة، قالت هذا قبول مشروط من جامعة جنوب كاليفورنيا، شكرتها وناولتها ظرفاً صغيراً بداخله ألف ريال تعبيراً عن الامتنان، تمنَّعت قليلاً، لكنها أخذته شاكرة، وطلبت منها أن تعيد إرسال القبول على بريدي الإلكتروني، الذي كان مشروطاً باجتياز معهد اللغة، أو الحصول على درجة 6,5 في امتحان التوفل، خرجت أمشي، أهرول، أطير، نتوءان صغيران يبرعمان تحت إبطيّ، يتمدَّدان، جناحا فرح وأمل، يا إلهي، ما هذا يا رشّو، أي حلم أنتِ فيه!

هكذا عشتُ لحظاتٍ مذهلة، معي الضمان المالي، وقبول جامعة أميركية، وسأحصل على تذكرة السفر، وأحجز موعداً في السفارة الأميركية للحصول على تأشيرة دراسة، يا اللّه، أنا لا أصدِّق، لكنني كلما تذكرتُ أهلي، خاصة أبي، تعكَّر مزاجي، وهمست في نفسي بعدما شبكتُ يدَيّ ببعضهما وأغمضت: ستسافرين رشا، ستذهبين خلف المحيط!

سارعت بحجز موعد في السفارة، لم يعرف سائقنا الهندي آصف سبب ذهابي إلى السفارة، جعلته يوقف سيارته في المواقف

قبيل السفارة، افترضت أنه لن يعرف أنني ذاهبة إلى مدخل السفارة، فقط طلبت منه أن ينتظرني، ولو اتصلت به أمي، يخبرها أنه ينتظرني عند المستشفى الجامعي، كنت أطلب منه أن يكذب، وأكرمه كل فترة بخمسين ريالاً، وأحياناً أكثر، وأقول له: «هذه لتساعد ابنك في دراسته بالجامعة بالهند»، بينما هو وأنا نعرف أنها ثمن لسكوته عن أشياء بريئة وجريئة أحياناً.

كنت متوترة من السفارة، الانتظار، الوجوه المطاطية خلف الزجاج السميك، الميكرفون ذي الصوت المكتوم، البوابة الحديدية الدائرية، الجنود، النظرات المرتابة، كنت مضطربة وأنا أعيد مراجعة أوراقي للمرة الألف، وأتخيّل المقابلة الشخصية، الأسئلة غير المتوقعة؛ ثمَّة شعور ثقيل يحطُّ على قلبي، وأن الأمر شائك، فأميركا لم تعد أميركا، أميركا 2006 ليست أميركا 2001 وما قبل 11 سبتمبر، فرغم السنوات الأربع التي مرَّت لم تزل الذاكرة الأميركية طريَّة، ودم الضحايا لم يجفّ بعد. حين وقفت أمام الموظفة كأنني تلميذة في الصف الرابع الابتدائي، أبتسم ببلاهة، وأجيب عن كل سؤال بقولي: أمم، كما تعرفين... ثم أثرثر برعشة خفيفة لا تلبث أن تخبو. كل سؤال يسقط فوقي، مثل كرة سلة ثقيلة تخبط رأسي على حين غرة.

في نهاية الأسئلة المتلاحقة، نبَّهتني السيدة الشقراء إلى أن موعد بدء الدراسة في القبول المرفق قريب جداً، وليست متأكدة إذا كان الوقت يكفي لحين استلام التأشيرة، مؤكدةً بأن أسرع في حجز السفر، أجبتها أنني سأتدبّر الأمر، المهم التأشيرة، والأكثر أهمية المرافق، أعني أبي، كيف تفهم معنى مرافق؟ أو محرم؟ كيف؟

سألتها عن الموعد المتوقّع لاستلام التأشيرة، فأجابت ثلاثة إلى أربعة أسابيع، وستصلني رسالة على جوالي، شكرتها وقد تمنت لي يوماً سعيداً.

الأيام بطيئة، وتتحول إلى سلحفاة هرمة حين ننتظر أمراً ما، ونتحفز لأجله. مرَّ أسبوع، أسبوعان، ثلاثة دون أن تصلني رسالة، في مطلع الأسبوع الرابع ازداد توتري، فكَّرت أن أتصل بالسفارة، لكنني أسمع أن الاتصال يعقِّد الأمور، وعليَّ الانتظار فحسب.

لا أعرف كيف مرَّت هذه الأسابيع الثلاثة، كم مرة فتحت رسائل هاتفي المحمول، وكم مرَّة فتحت بريدي الإلكتروني، وكم مرَّة هبط طيف عبد الإله من سقف غرفتي مثل عنكبوت أسود بعينين زجاجيتين، ربما عشرات، مئات المرات وأكثر.

كنت أشبه طفلاً يجلس عند زجاج نافذة سيارة مسرعة، ويعدُّ أعمدة الإضاءة على الطريق، وفي كل مرَّة ينسى أو يخطئ العدّ، يعيد من البداية. كنت أعدُّ على أصابعي الأيام وأسماء الأقارب والزائرين، حتى بدأت أشعر بالضيق، وأفقد الأمل تدريجيّاً.

ذات ضحى صيفي، تنبّهت على ضغط مثانتي، توضأت وصليت، كنت شبه نائمة، أفتح عيناً تجاه شاشة جوالي، وأجد رسالة واردة، فتحتها وكم كانت دهشتي كبيرة. رسالة من السفارة الأميركية تفيد بالمراجعة واستلام الجواز.

ما زلت أتذكَّر تلك اللحظة المذهلة، حينما استلمت جواز السفر، ولم أنتظر صعود السيارة، فبينما كنت أمشي تجاهها في مواقف الساحة الخارجية بجوار السفارة، صرتُ أفتّش الصفحات، حتى توقفت عند التأشيرة/ الحلم، كانت صورتي تزهو، بجوار

معلومات اسمي تحت ورقة رسمية فاخرة ملصقة، على رأسها يتبدَّى هذا الجمال (US VISA).

«كل شيء جاهز الآن للمعركة!».

تنفّستُ بعمق، والسيارة ترقص في دوارات حي السفارات، بينما ينساب صوت فيروز بسخاء وبذخ: «بتذكر آخر مرة شفتك سنتا... بتذكر وقتا آخر كلمة قلتا... وما عدت شفتك... وهلأ شفتك» آه يا فيروز، غني وتذكري، وموتي حنيناً، أما أنا فسأهتز طرباً مع موسيقاك، ومع سيارتي التي يقودها الكابتن العظيم الملقب بآصف، وهي تلتفّ كل فينة حول دوّار كبير، وتمضي في شوارع محفوفة بالأشجار، في حي ليس كأحيائنا، حي للأجانب الذين يريدون الشجر والشمس والساحات والهواء الحرّ، أما نحن فلنذهب إلى بلادهم كي نشم الهواء الحرّ، يا للمفارقة!

فكَّرتُ في داخلي، وابتسمتُ بخفر.

(5)

الشمس تدخل كي تكنس حزني

في غرفتي جمعت أوراقي، وبدأت أفكّر بحقيبة السفر ومتطلباته، أي وهم أعيشه؟ وأي جنون؟ كنت أعرف أن السفر وحدي مستحيل، صحيح أنني سافرتُ مع أهلي كثيراً، زرنا مدناً أوروبية: لندن، باريس، ميونيخ، وشرق آسيا، وصحيح أن أمي تثق بي هناك، وتعتمد عليَّ في معرفة أسماء الشوارع، وطلب التاكسي، والتنقّل بين المعالم، لكن فكرة السفر وحدي إلى بلاد غريبة، ما وراء المحيط، وأنا فتاة أنتمي إلى هذا المكان، إلى الصحراء والجبال، هي أمر غير وارد إطلاقاً، ومع ذلك كنت أدفع الأمل حتى آخره، وأقول لنفسي مع كل هاجس: ستُفرج يا رشا!

كنت عائدة من الجامعة ذات ظهيرة، فوجدت أمي تشاهد برنامجاً سياحياً عن جزر المالديف، انحنيت وقبّلتها بحنان، وشاغبتها: «شكل الماما ناوية على المالديف» فابتسمَت، وسألتني عن الجامعة، فجلست بجوارها، وأمسكت بيدها، تنهَّدت وأنا أقول لها: «ماما، فيه موضوع مرة مهم، أتمنى توافقين عليه»، تأملتني بحذر وريبة: «خير؟» قلت لها: «إن شاء اللّه خير»، ثم شرحت لها

أن الدراسة في الغرب مختلفة تماماً عن هنا، خاصة في المجال الطبي، وأخبرتها أنني قدمت على البعثة بالإنترنت، وحصلت على قبول مبدئي، ثم أخبرتها بالخطوات التي قمت بها، لكنها فجأة سحبت يدها من بين يدَيّ، وأكدت أن الأمر مستحيل، وذكرت لي أنها تقلق حينما أتأخر في الجامعة، وهي على بعد كيلومترات من المنزل، فكيف ببلاد بعيدة وغريبة، واستعدت يدها أقبّلها مراراً، طالبة منها ألّا تقف في طريق مستقبلي، لكنها فاجأتني وهي تبكي، وتقول إنها أم، كيف يمكن أن تنام وأنا خارج البيت، كيف تأكل، وتشرب، وأنا بعيدة!

وبعد أن وعدتها أنني سأكون معهم، بالاتصال المباشر، وبالفيديو، وستعرف ماذا أفعل كل لحظة، ومتى أنام، وأصحو؛ وبعد ساعة من الثرثرة، ملَّت أمي وحسمت الأمر بأن رفعت صوت التلفزيون، وهي تهشُّ بيدها نحوي: «شوفي أبوك».

في اليوم التالي، نزلت عند أبي في الطابق الأرضي، جالساً بعد الغداء، ولأنني أعرف أنه يحب الشاي المغربي الذي أصنعه أنا تحديداً، فقد أحضرت له الشاي وكوبين، وبينما أسكب الشاي في كوبه، شاغبته: «محلو اليوم»، فأزاح صحيفة **الشرق الأوسط** ونظر نحوي بحياد، ثم أكمل القراءة، فكرت بأنه يجب حسم الأمر: «بابا، تعرف كيف الجامعات في أميركا وأوروبا متقدمة جداً على التعليم بجامعاتنا»، علَّق دون أن يرفع نظره عن الجريدة: «طبعاً، الغرب متقدّم»، أحسست أن الحوار يسير بالضبط تجاه هدفي، فقلت: «صحيح بابا، طبعاً المفروض نأخذ الجيد من ثقافتهم، صح؟» أزاح الصحيفة عن وجهه، ونظر نحوي: «طبعاً، وعشان كذا

آخذكم للمتاحف والمكتبات إذا سافرنا»، أحسست أنني على وشك التصويب تجاه الهدف: «طيب بابا، دام أنك تحب الثقافة وتهتم فيها، أنا جايبه لك خبر حلو». لم يكترث، ولم يسأل، ما أحرجني قليلاً، لكنني حفَّزته: «طيب ما تسأل وش الخبر؟» قال من غير نفس ولا اهتمام: «خير؟».

ثم أخبرته الموضوع دفعة واحدة دون توقف، كأنني أخشى أن يقاطعني، أو يرمي اعتراضاً يجعلني أتعثر فيه، وأتدحرج، فأفقد كل خيوط الحكي بالمبررات والأدلَّة والبراهين، لكنه تساءل بدهشة، وبعض الحنق، كيف قمتُ بكل ذلك، وأنا أعرف أنه يستحيل أن يتركني أسافر وحدي، إلا لو كان مجنوناً، أو أحمقَ، كيف سينظر إليه أهله وأقاربه، وهو يفرِّط بابنته في بلاد غريبة وبين أناس غرباء؟

اقترحتُ أن يسافر معي أسبوعاً أو أسبوعَين، ثم يعود، وأنا أعرف أنه لن يفعل بسبب زوجته فتيحة، فرفض بشكلٍ قاطع، وطلب أن أنسى الأمر تماماً، بدأت أفقد أعصابي، وأعانده كعادتي بأن قلت: سأحجز تذكرتي وأسافر وحدي! قال إنني لا أستطيع دون موافقة ولي الأمر، وهو لن يوافق إطلاقاً، فانفجرت أبكي بين يديه، أشهق كل فينة، كنت أنتظر أن يؤثِّر فيه بكائي، لكنه رمى الصحيفة، ودخل إلى غرفته، لينام قيلولة العصر كالعادة!

كيف لي أن أستسلم، وأفقد كل شيء بعدما أنجزت كل الخطوات المهمة، وأصبحت على مشارف جمهورية الأحلام، أصبحت كل يوم أجلس معه، وأكرّر المحاولة بطُرق مختلفة، لكن النتيجة كانت واحدة: الرفض القاطع، مضى أسبوع تقريباً، وتبقّى أسبوعان على نهاية المدة المحددة للقبول، بدأ اليأس يقضم أصابعي

وقلبي، دخلت دوامة رهيبة من الكآبة، حياة فاشلة، وحب انتهى بالفشل، ودراسة متعثرة، وجامعة أكرهها كثيراً، وخصوصاً أنني لا أستطيع أن أتحاشى رؤية عبد الإله أمامي، سواء في المحاضرات، أو التطبيقات في المستشفى، كيف أهرب من هذا القدر الثقيل، كيف أتخلّص من كل هذا الغباء، كيف يوافق أبي، كيف؟

وقتها اسودَّت الدنيا في عينَي، وبدأ العدّ التنازلي لضياع القبول، وضياعي!

لقد ضاق الدرب كثيراً، حتى لم يعد يتّسع لنأمة، أو لشهقة، كففت عن البكاء، وعن الأكل، لم أعد أبرح غرفتي، كرهت كل شيء حولي، وحين أشعر بالوهن، وتسودُّ الدنيا، آكل ما ينقذني، بسكويت ريكو، أو معمول تمر، دخلت في حالة صمت مهيبة، ما يشبه الحزن، أو ربما الكآبة، لا أرى شيئاً سوى جدران عالية تحاصرني، جدران تقترب منِّي وتحشرني، وسقف خفيض يدوس فوق رأسي، أصبح الهواء نادراً وشحيحاً، لا أشم سوى رائحة السدر، ليس ثمة رائحة عطر على تسريحة غرفتي، كلما رفعت قارورة وقرَّبتها من أنفي شممت رائحة السدر، بعد أيام جمعت كل عطوري، ورميت بها في نفاية المطبخ؛ في المساء شممت رائحة السدر تنتشر في المطبخ والصالة، هرولت ولممت القوارير في كيس، كنت كأنني جثة تهرب من القبر، وضعتها في برميل النفاية الأصفر عند باب البيت، وعدت إلى غرفتي. تمددت فوق السرير، لكن الرائحة لم تزل تطاردني. صرت أفكر: هل هناك غيري في البيت يشم هذه الرائحة؟

من أين تأتي الرائحة؟ حاولت أن أتشمم وأتذكَّر، من الشراشف

البيضاء؟ أم الستائر؟ أم أن ذاكرتي تبثُّها؟ كأنها رائحة غرفة جدتي زهرة، بعد أن حملوها ذات فجر، وظلت رائحة السدر تنبعث منها لأكثر من شهر، كنت طفلة، ربما في الخامسة، حيث تغلغلت هذه الرائحة الغريبة في دماغي، الرائحة التي تدخل البيت لأول مرة، نعم تذكرت الآن، هي تلك الرائحة إذاً، رائحة جسد جدتي المسجَّى، حين حملها أبي ورجال ملتحون لا أعرفهم، بينما أمي وخالاتي رفعة وعزَّة، ونساء أخريات يبكين.

لقد تعبت، تعبت كثيراً. أشعر أنني سجينة فيّ، سجينة داخل جسدي الهزيل، لم أعد أنام، ولا أرى، صرت أمشي وأنا متمددة على سريري، روحي القلقة تطوف بعيداً عنّي، أمشي في درب ضيّق للغاية، يشبه السرداب الذي يحفره السجناء كي يهربون إلى الحرية، أحبو على أربعي، وتحكُّ جسدي المرتعش جدرانٌ خشنة غير مرئية، ما الذي يجعلني أتخلص من عبء هذه الجدران، وهذا السقف؟ كيف أنجو من هذا الخندق المظلم الطويل؟ كيف أخرج بغتة منه إلى ساحة بيضاء هائلة، ساحة لا نهائية، لا مدى لها؟

الموت.

حريتي موتي.

وحده الموت يحملني إلى ملكوت آخر. هو ما يحوّل الدرب الضيّق للغاية، الدرب الذي صار في حجم سلك معدني صغير، إلى ساحة فظيعة بلا أفق، ساحة عدم وفناء!

لقد أصبحت حياتي عبثاً، فإما أن أرى النور في بلاد بعيدة، وإما أن أرى الساحة البيضاء الزمهرير، كيف أذهب إليها، وأي عربة سريعة تقودني إلى العدم، أي طريقة سريعة وخفيفة تنهي مأساتي،

هل أنتحر؟ كيف وأنا أخشى أن أقتل حشرة؟ كيف أمد يدي إلى وريدي. . . ربِّ أنقذني وخلّصني من هذا البؤس، أمتني بقدرتك على كل شيء، أمتني بلا ألم، ولا معاناة، أدخلني في موت ناعم كالنوم. حينما فكَّرت بهذا الشكل، قلت لنفسي لا بدَّ أن أموت فيما يشبه النوم، ليس بطلقة مسدس، ولا شنقاً بحبل، أو غرقاً في حوض الاستحمام، وإنما الموت بالتهام كمّية كبيرة من الأدوية، هذه الطريقة المثالية لموت رحيم.

جالت في خاطري مكَّة، كعبتها، ومقامها، ورخامها الأبيض، وحمائمها الرمادية الأليفة؛ سلامها، ذلك الذي أنشده لنفسي، كأن من في البيت يرون شبحي الليلي وهو يطوف في الأنحاء ويلومهم، فما إن أسررت لأمي برغبتي تلك، حتى طرنا في اليوم التالي. كنَّا نمشي من جهة باب الملك عبد العزيز، الشمس تجلِّل خطونا، وحدي أمشي بأربعة أظلة، ظلّان أمامي، وآخران يلحقان بي، وكلما التفت نحوهما بذعر، كانت أمي تمسك بذراعي وتبسمل، كأنها خائفة أيضاً، أو ربما هي خائفة لخوفي، لا أعرف. أبي يسير أمامنا بخطوتَين، وكل مرة أجده يدعس على أحد ظلَّيّ الأماميَّين، فأهرب به عنه يميناً أو شمالاً، هل كان يفعل ذلك سهواً، أم عن قصد؟ لا أعرف.

دخلنا الحرم، ووضعنا أحذيتنا عند المدخل، ثم توقف أبي أمام حافظة الماء البرتقالية، سكب لنا من ماء زمزم، ناول أمي كأساً بلاستيكياً، ثم ناولني آخر، كنت أحدِّق به كبلهاء، كان رجلاً غريباً، مددت يداً ترتعش، تشبه يدي، فسقط الكأس بيننا، وانسكب الماء على قدمي العارية دون أن أكترث، أو أن أشيح بوجهي عنه، بلّلت

أمي يدي ومسحت وجهي بماء زمزم، وأسقتني، ثم انطلقنا نحو صحن المطاف، أجسامٌ خفيفة بيضاء تطير فوق رأسي، كنت أسير لأستلم الركن اليماني، أطوف مغمضة حول البيت العتيق، تقودني أمي كعمياء، بينما أدعو في سرّي، لا أعرف إن كانت أمي تشعر ببرودة يدي حيناً، وتعرّقها أحياناً أخرى، لكنني أشعر برأسها وهي تلتفت نحوي كل فينة، وقد أسرَّت قلقها، ربما ظنَّت أن ثمَّة روحانية تنساب في داخلي، وتظهر على ملامحي، أدعو كثيراً أن يتقبّلني اللّه برحمته، كنت أدعو مراراً: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفِ عني، لكنني خلسة رأيت اللّه بين عيني، كأنما يشيح بوجهه الكريم عنّي، كأنه يجيب بأنه سبحانه يهب الحياة، وهو وحده من يسلبها، وليس لابن آدم أن يختار لحياته نهايتها، كنت أتوسّل ربي أن يختار لي نهايتي عاجلاً غير آجل.

حينما تسنَّنت عند مقام إبراهيم، ورفعت من الركعة الثانية، لمحت شابّاً محرماً، يطوف، فقط مرق أمام بصري لحظة الوقوف، وحين انساب جسدي ساجداً، حاولت أن أتذكَّره، ملامحه، شعره، جانب وجهه، يا اللّه، لِمَ جئتَ به في هذه اللحظة، وأنا أسجد لك، وأتوسل إليك لتأخذني بقدرتك، كنتُ نسيته يا اللّه، أو حاولت، لكنك وضعته الآن أمامي، كأنها رسالة ربانية: «خلقته، وخلقت المئات، والآلاف، والملايين غيره، أحدهم سيكون سقفك وملاذك، فلا تتعجلي الأمر».

في المسعى كنت أرى الرجال يهرولون عند العلامة الضوئية الخضراء، فأهرول قبل أن تشدَّ أمي يدي لتوقفني: النساء لا يركضن يا رشا؟ لماذا لا أركض، أليست أمنا هاجر تهرول بحثاً عن الماء

لتنقذ رضيعها؟ لماذا لا نهرول مثلها إذاً؟ ألا يجب أن تهرول كل منا لتنقذ أحداً؟ دعيني أهرول يا أمي كي أنقذ نفسي.

عدنا إلى الرياض ليلة سبت. كنت مرهقة وأنا أصعد إلى غرفتي، أتوكأ على الدرابزين. توضّأت، وصلّيت العشاء، وأعقبتها بالشفع والوتر، جلست على سجادتي، لم أكرّر الأدعية التي يدعو الناس بها ربهم، بل ناشدت اللّه بطريقتي، ربي أنت تعلم بحالي، وأن الدنيا أقفلت أبوابها في وجهي، وأنت قلت في كتابك الكريم، إنك غفور رحيم، ربِّ اغفر لي خطيئتي هذه، وأنت أعلم بالنيات.

فتحت درج الطاولة الجانبية. أخرجت كيساً عليه اسم وشعار مستشفى الملك خالد الجامعي، نثرت الأدوية على الأرض، واخترت شريطَي حبوب مسكنة للصداع، استخرجتها حبةً فحبة، حتى أصبحت الحبوب العشر في كفّي، كان من الصعب أن أدفعها كلها مرة واحدة، تناولت قارورة ماء، صرت اسمي باسم اللّه مع كل حبة أدفعها في فمي، تناولتها كلها، بدأت أدوخ شيئاً فشيئاً، أتنفس بصعوبة، التقطت المصحف وبدأت أقرأ بصوت يرتجف، الحروف تتراقص وتتداخل، فكّرت أنني سأموت الآن، تمسَّكت بحافة السرير كي أخرج إلى أمي أودعها، كان الجدار يقترب نحوي، حاولت أن أدفعه بيدي قليلاً، فهوى، وبدأ الضباب يلف الغرفة، قمت من حافة السرير على قدمَين متأرجحتَين، خطوت نحو الباب، كان الباب يشبه ظلي في مكّة، يراوغني يميناً ويساراً، حينما وصلت عند فتحة الباب سقطتُ على وجهي بعنف، وخبط رأسي بحافة الباب، ولم أعرف شيئاً بعد ذلك، ذهبت في سديم اللّه، ذلك السديم الأبيض الخادر

اللذيذ، فرغم الثقل الذي أسقطني بقوة على الباب، ثم الرخام، إلّا أن ثمة خفَّة ورفرفة جعلتاني أطير ببطء، ثم أعلو شيئاً فشيئاً. . . لقد متُّ. صرتُ جثَّة، لكن روحي التي تسلَّلت ببطء علت قليلاً، وتفحَّصت المكان باحثة عن الكائنات المجاورة، كي تتلبَّسها: نبتة الغاردينيا قرب نافذة غرفتي. عصفور كان يزقزق بين أغصان شجرة التوت. قطة تخطو بمهارة فوق سور البيت. لم أعرف ما حدث لها، ربما فزعت من الصرخات العالية، فقد حملتني الأيدي إلى ما لستُ أعرف، ربما ثلاجة الموتى، ربما المقبرة.

استيقظت. كنت على سرير أبيض، وفي يدي أنبوب المغذي، لم أعرف كم لبثتُ في الغياب، كنت مثل فتية الكهف، لا أعرف هل مرَّ الأسبوعان وانتهى قبولي بجامعة جنوب كاليفورنيا، أم مرَّت ساعات فحسب من نهار السبت، كانت أمي وأختي فوق رأسي تبكيان، وما إن فتحت عينَيّ حتى انهالت عليَّ أمي تقبّلني من كل جانب، كنت أشعر برطوبة شفتيها، وأدرك أنني ما زلت حيَّة، ولم أمت بعد!

في منتصف النهار، دخل طبيب في منتصف العمر، طلب أن نكون وحدنا، تناثرت أسئلته كالجنادب، مرة تحط على حافة السرير، ومرة تصعد على جسدي، وثالثة تقف فوق حجابي، ثم تطل بعيونها الصغيرة اللامعة على ملامح وجهي، وتحرّك قرون استشعارها قبل أن تقفز أمامي، كما لو كانت تحاول التسلل إلى أعماق ذاكرتي، كنتُ ورقة نبات منتهكة، تنتفها الجنادب شيئاً فشيئاً، اعترفت للطبيب النفسي بكل شيء، كي أطرده، وأطرد جنادبه معه، صحيح أنني ارتحت وهدأت، بعدما حقنوا ذراعي بمادة الليثيوم، من

أجل تثبيت مزاجي، وتخفيف نوبة الاكتئاب، لكنني شعرت بالملل وهو يريد معرفة كل شيء، تاريخي الشخصي، والعائلي، ويدوّن كل شيء بملف معه.

حينما خرج بعد عشرين دقيقة من التحقيق، وعادت أمي وأختي، كانت يداي ترتعشان، وعيناي زائغتين بعض الشيء، جلست أمي على حافة السرير، لتضمّني إلى صدرها، وتمسح على كتفي، فلمحت جندباً متخلّفاً، لم يطرْ مع رفاقه خلف الطبيب، عقدت حاجبي، وحرَّكت يدي تجاه ظهر أمي، كي أبعده عنها، ارتعبت أمي منّي، لكنها عادت تعانقني وجسدها يرتجف، كما لو كانت تبكي، هل كانت تبكي آنذاك؟ تبكي لأجلي؟ أم لأجل الجندب الذي حطَّ على ظهرها؟

أتذكَّر أن أبي جاء، وجابهته أمي قبل أن يدخل، وهي تصرخ به بعنف، اذهب، دعها وشأنها، كل هذا حدث بسببك، اتركها تسافر، كانت الممرضات قد تقاطرن سريعاً، وقد اعتقدن أنني من يصرخ تحت تأثير نوبة هوس أو انفعال.

كان أبي صامتاً، متماسكاً، حتى دخل عليَّ، وسلَّم، وقبَّل رأسي وهو يردّد: «لا بأس طهور إن شاء اللّه»، لا أعرف إن كان الأطباء قالوا له ألّا يعاتبني على محاولة انتحاري الفاشلة تلك، لأنه لم يقل شيئاً، سوى أنه اطمأن على صحتي، وخرج بعد عشر دقائق، ولأول مرة أرى أبي بهذا الانكسار، كأنه كبر عشر سنوات خلال يومين فقط.

في ظهيرة اليوم التالي خرجت من المستشفى شاحبة الوجه، زائغة العينين. مرتعشة اليدين، كانت أمي حزينة وتبكي، وقد طهَّرت

غرفتي من أثر المأساة، وفتحت النوافذ على الحديقة، كي تدخل الشمس وتكنس حزني. تمدَّدتُ فوق سريري ونمت، ربما بتأثير أقراص بروزاك.

في المساء تنبَّهت على يد أبي وهو يضعها فوق جبيني، وينحني ليقبِّلني، كان أبي الذي فقدته منذ الطفولة. مسحَ على شعري وقال لي إنه موافق، وسيتابع كل شيء بنفسه، كي يطمئن عليَّ، وعلى دراستي في أميركا.

(6)

أنا كبيرة بما يكفي!

ما زلت أعاني من آثار محاولة الانتحار، زغللة العينين أحياناً، خاصة حينما أحدق طويلاً، كما أفعل الآن، وأنا أطالع خريطة مسار الطائرة، وقد تجاوزت معظم مسافة المحيط الهادئ، واقتربت من نيويورك، كنتُ متحفِّزة لرؤية تمثال الحرية، وأتمنى لو كان وقت الانتظار لرحلة لوس أنجلوس أطول، لخرجت من المطار، وتجوّلت في المدينة العظيمة، اقتحمت التايم سكوير، وتناولت وجبة، ثم تجوّلت بين المغنّين والرسّامين، ونفضت عنّي عناء الرحلة الطويلة، هل كنتِ ستفعلين رشّو؟ أم ستتخوفين من اقتحام مدينة غريبة، ووحدك؟

فجأة أضاءت إشارة ربط الأحزمة، فأطللت من النافذة، ولا أعرف إن كنت أبحث عن مدينة السهر والمتعة التي يحبّها العرب، أم عن مدينة الزجاج التي ينتقدها بول أوستر في **ثلاثية نيويورك** وقد قرأتها ذات مساء، هدية من صديقتي سامية، مصحوبة بعلامة وقف، عبارة عن نموذج ورقي لتمثال الحرية، وعبارة بالإنجليزية لجورج ساند:

“There is only one happiness in this life, to love and be loved”. كم كانت العبارة بحدّ ذاتها تلخّص حياتي، فالسعادة في هذه الحياة، أن أُحِب، وأُحَب. لقد أحببت عبد الإله، لكنني اكتشفتُ متأخّرة أنه لا يحبني، كان يُحبُّ حبّي له، وشغفي به، إلى درجة تهاونه بمشاعري، وتبجحه وهو يتحدّى أن أتركه!

كانت أضواء ناطحات السحاب فاتنة في فجر نيويورك، وقد اهتزَّ جسد الطائرة مراراً بفعل الرياح الشديدة، والاصطدام بطبقات الغيم الكثيف، ما جعل الرجل الأربعيني بجواري يستيقظ، ويختلس النظر نحوي كما لو أنه يطالع المدينة من النافذة، كنت أشعر بعينَيه المتورمتَين بفعل النوم الطويل، توقّعته يبادر قائلاً الحمد للّه على السلامة، لكنه لم يقل شيئاً، فقط مطَّ يديه أماماً، شابكاً بين أصابعه، مصدراً فرقعة صغيرة، متزامنة مع تثاؤب طويل ذي صوت عالٍ. مرَّت المضيفة بين الركّاب على عجل، وأشارت إليه بأن يربط الحزام، وهي تخطو وتتفحَّص الركّاب بنظرات خاطفة على الجانبَين.

تأمّلتُ إعلانات النيون المضيئة على ناطحات السحاب، مصابيح الشوارع، الحدائق بأنوارها الخافتة، النخل الأميركي المضطرب بفعل الهواء القوي، المترو، البحر بأضوائه المتكسّرة، تمثال الحريَّة، السفن، الزوارق السريعة، كم أودُّ لو أقفز بجنون، لولا أن حلَّق الكابتن مجدَّداً، يا اللّه، ماذا يفعل هذا المجنون، لماذا عاد بنا إلى السماء من جديد، وقد استمرَّ يطوف فوق نيويورك، كانت أطول نصف ساعة مرَّت بي، مع أنني سأنتظر أربع ساعات في المطار، لحين إقلاع رحلتي غرباً نحو لوس أنجلوس، التي تمنّيت أنها كانت نهاراً، كي أستمتع بمشاهدة هذه القارّة المذهلة.

حين حطّت الطائرة أرضاً، كنت أرى الهواء شديداً يعصف بملابس عمّال المطار، بدأ الركّاب يتسابقون على إنزال أغراضهم من الخزائن حتى قبل أن تتوقف الطائرة، إلا جاري ذا الأربعين، الذي مزَّق شدقيه كثرة التثاؤب، فلم يتحرَّك، ولم يتململ، لحين توقفت الطائرة تماماً. وضعت حقيبة الظهر على كتفي، وحملت حقيبة اليد الصغيرة، بعدما تفقّدت أغراضي جيداً، كنت أسابق الركّاب كما لو كنتُ عدَّاءً يتلهَّف النهاية. بعدما تحرَّك الصف، ووقفت أمام موظف الجوازات، سألني هل هي زيارتك الأولى؟ ولِماذا جئتِ؟ وهل يتوفر لدي سكن؟ وما إذا كان لي معارف أو أقارب؟ ابتسم وهو يختم الجواز، متمنِّياً لي إقامة سعيدة. سرت نحو سير العفش، بحثت عن حمَّالين، فلم أجد، وأدركت أن عليَّ أن أسحب حقيبة الملابس الكبيرة، وفي يدي اليسرى حقيبتي الصغيرة، وعلى ظهري حقيبة بداخلها العباءة وأغراضي الأخرى، كنت أشعر بالتعب والإرهاق، من طول الرحلة، وعدم النوم، ومن محاولة الانتحار قبل تسعة أيام، كنت أرى المسافرين اللاهثين يركضون في مختلف الاتجاهات، وصلت عند شبّاك خطوط الدلتا، لكنني لم أجد الموظف، رغم أنه تبقّى أقل من ثلاث ساعات على موعد الإقلاع، لمحت رجلاً عجوزاً جالساً فوق حقيبته، اقتربت منه، وسألته عن الموظف، فأشار إلى لوحة الرحلات الإلكترونية، حيث تمَّ إلغاء جميع الرحلات بسبب الأحوال الجوية السيّئة، حيث العاصفة لم تزل نشطة، يا اللّه، ماذا أفعل؟ كيف أتصرّف في مطار لا أعرفه، وفي بلاد غريبة؟

في هذه اللحظة اكتشفت معنى أن تكون وحيداً، وفي بلاد

تجهلها، أين أنتِ يا أمي؟ أين أبي وأهلي؟ أين سامية صديقتي؟ كنت أتلفَّت مذعورة، قبل أن تنساب دموعي تباعاً، وضعت حقيبتي، وجلست عليها، بينما لم أخلع حقيبة الظهر، وأحتضن حقيبتي الصغيرة كطفل، لم أفتح حقيبتي الكبيرة كي أتسلّى باللاب توب، ولم أبحث عن شاحن، ولم أجلس في مقهى أو مطعم، لم أغادر شبّاك الرحلة، كأنني أتوقع أن يقفز موظف الدلتا، كجنِّي المصباح، كأن عليَّ أن أجلس أمام الشبّك لحين موعد السفر الملغى، فقط أبكي وأقضم أظفاري بقلق.

كان المسافرون يهرعون من حولي، كلهم تقريباً يركضون في مختلف الاتجاهات، بينما أقف أنا كمسمار مُهمل في بلاط المطار، لا أحد يكترث بي، حتى وقفت بجواري سيدة سوداء مخيفة، سمينة وشعرها منفوش، وهي تقول: معذرة! فضجَّت أمعائي، وأيقنت أنها ستسرقني، أو تقتلني، سألتني إذا ما كنت على ما يرام؟

أجبت: «نعم».

قالت: «هل تحتاجين إلى مساعدة؟».

هززت رأسي: «لا، شكراً».

أكدت ثانيةً: «لو احتجتِ أي مساعدة لا تترددي، أنا هنا مع أصحابي».

وقبل أن تنصرف سألتني عن عمري، فأجبت: "Old enough". ضحكت السوداء بجلجلة، وهي تقول: «دائماً أنتن البنات تتحفظن على أعماركنّ». ثم أوضحت بعدما شعرت بأنني قد اطمأننت لها، قائلة إنها رأتني لا أبرح مكاني لأكثر من ثلاث ساعات، ثم تساءلت ما إذا كنت جائعة، وقد رأتني لم آكل مذ

جلست هنا، تذكرتُ فجأة أنني فعلاً لم آكل منذ تسع ساعات تقريباً. وفكرت كم هي رائعة هذه الخالة السوداء، وقد شعرت بي، وحملت همّي، وأكلي!

أضافت قائلة: هل تحتاجين نقوداً؟ أين أهلك؟

أجبت بأن معي نقوداً كافية، وأهلي في واشنطن دي سي. لا أعرف لِمَ كذبت عليها، ربما قلت ذلك، ولم أقل في السعودية، لأنني ما زلت أشعر أنها قد تختطفني أو تقتلني.

أشارت نحو مجموعة نساء ورجال سود، قائلة إنها هناك، مع أصحابها، وكرَّرت بألّا أتردّد في طلب أي مساعدة.

(7)

بلا أهل ولا أصدقاء

ليس أصعب من أن تنتظر بصمت، تتأمل الناس يركضون حولك، بينما عيناك وحدهما تركضان بذعر خلف البشر، بعد ثماني ساعات من الانتظار اكتشفتُ كُشكاً صغيراً قربي، ابتعت منه بطاقة اشتراك «واي فاي» لمدة ساعة، قيمتها أربعة عشر دولاراً، واستللت اللاب توب من حقيبتي، ثم أرسلت من بريدي رسالة لأحد المسؤولين أخبرهم بأنني عالقة في مطار نيويورك بسبب الأحوال الجوية السيّئة، وأحتاج رقم شركة سيارات أجرة لحجز سيارة توصلني من محطتي القادمة إلى الجامعة، ثم جعلت أتصفّح موقع الجامعة، وأقرأ تعليقات الطلاب، ثم جاءتني رسالة على بريدي الإلكتروني، فتحتها، وقرأت الردّ من مسؤولة بالجامعة اسمها إيميلي، تعتذر عمّا حدث لي من تعطيل، وأنهت رسالتها بأنها ستحضر بنفسها لاصطحابي من المطار إلى الجامعة، لقرب منزلها من مبنى المطار، كانت مفاجأة رائعة خفَّفت قلقي من تدبير أموري في مطار لوس أنجلوس.

كتبت لي: «إذا عرفتِ موعد إقلاعك الجديد أرسلي لي على هذا الرقم، لأستقبلك».

احتفظت برقمها في هاتفي المحمول، ولم أتخيَّل أن تستقبلني موظفة، وأنا مجرَّد طالبة، كنت محظوظة للغاية، تنفَّستُ بعمق، وتمنيت أن أمشي بخيلاء عارضة أزياء على بلاط الصالة، كنت استعدتُ ثقتي، وملأت رئتَيّ غمامة راحة وسعادة، حتى كدتُ أطير، إلى درجة أن المرأة السوداء التي أرعبتني في البداية، وشعرت بأنها تخطِّط لاختطافي، وجدتني أسير نحوها ساحبة حقيبتي خلفي، وأستأذنها لأن تحتفظ بحقيبتي كي أجلب شيئاً آكله، فابتسمت حتى أضاءت أسنانها البيضاء بشدَّة، فأشارت أن أضعها بجوار حقائبهم، جلبت ساندويتش جبن وطماطم، وعدت سريعاً، فلم أشكرها وأستلم حقيبتي، وإنما توقفت بجوارها وصديقاتها الثلاث، واستمتعت بالحديث معهنّ، واعترفت بأنني من السعودية، وأن أهلي هناك، وقد فهمت أنني كنت خائفة من الغرباء، كنّ يطلقن النكات ويضحكن بجنون، فانسجمت معهنّ، ونسيت الانتظار الطويل.

حانَت ساعة رحلتي على خطوط الدلتا قبلهنّ، فاستأذنت منهنّ، كنت قد قضيت نحو ست عشرة ساعة من الانتظار بالمطار، وثلاثة أيام تقريباً بلا نوم، كان رأسي يتأرجح فوق كتفَيّ الناحلين مثل كرة سلة تلتفُّ فوق حلقة الشبكة الحديدية قبل أن تسقط، بالفعل كنت أنتظر أن أسقط في أي لحظة، وما إن وضعت رأسي على مقعدي بجوار امرأة خمسينية حتى ذهبت في نوبة نوم ربما استغرقت الرحلة كلها، التي كانت تزيد عن خمس ساعات، حين حطّت الطائرة في مطار لوس أنجلوس استيقظت، فكانت الأضواء الحمراء تنعكس على أرضية المدرّج المبتلّة بالمطر، منحتني المرأة الجالسة بجواري

ابتسامة جميلة، فابتسمت بدوري، وقد أدركتُ أخيراً أنني في بلاد غريبة، بلا أهل ولا أصدقاء.

لأول مرة في حياتي لم أنهض مع الركّاب حينما توقّفَت محرّكات الطائرة، بل ظللت أتأمّلُ الزجاج المضبّب بحبات مطر خفيفة عالقة، فجأة تنبَّهت إلى حركة الركّاب، وقد نهضت المرأة بجواري كي تلتقط أغراضها من الرفّ العلوي، ثم ناولتني حقيبة الظهر مبتسمة، شكرتها، ثم هرولت كطفلة تائهة، مطار غريب لا أعرفه، لكنني مشيت خلف الآخرين نحو السير المتحرك للأمتعة، انتظرت قليلاً وأنا أحاول كتابة رسالة لأمي كي أطمئنها على وصولي إلى مكان إقامتي، ثم رأيت حقيبتي الكبيرة تتهادى ببطء مثل ناقة شاردة، سحبتها بقوة، ثم انطلقت نحو باب الخروج، أدرت بصري بين المستقبلين، ولفت نظري اسمي «رشا» على لافتة تحملها سيدة شقراء في منتصف الثلاثينيات، نظرتُ نحوها وابتسمت، صافحتني وعرّفت بنفسها: «إيميلي»، عرَّفتُ بنفسي، رحّبت بي بحرارة وهي تتأسّف على سفري الطويل، ومفاجآت الأحوال الجوية، كانت سيارتها صغيرة، لدرجة أنني خشيت أن تحرجني حقيبتي العظيمة، فلا نجد لها مكاناً كافياً، لكنها فتحَت الباب الخلفي وحشرتها بالقوة، انطلقنا في شوارع هادئة بعد منتصف ليل لوس أنجلوس، واقترحَت بأن نتناول وجبة سريعة في الطريق، كانت إيميلي شابة رائعة، بدّدت خوفي وقلقي المبكّر من هذه البلاد الغريبة، حكت لي عن الجامعة، ونظام الدراسة فيها، حتى توقفنا أمام لافتة وينديز، كانت الطاولات خالية، والساعة تشارف الثانية بعد منتصف الليل، واستكملت إيميلي الحديث عن

الجامعة والحياة الأميركية، وحدّثتها عن عائلتي وأمي، وعرفت أنها مطلقة ولديها طفلان جميلان، أرتني صورتيهما في محفظتها، ثم غادرنا المطعم نحو سكن الجامعة، وقبل أن تغادر أوصت المسؤولة عن المبنى بي، وقالت لي أن أتصل بها متى احتجت ذلك. شكرتها.

ناولتني المسؤولة مفتاح الغرفة، وأوصتني همساً بأن أدلف الغرفة بكل هدوء، كي لا أوقظ زميلتي في الغرفة، لأنها حتماً نائمة، هززت رأسي موافقة.

(8)

حينما يركلنا الخذلان

كان الصمت مطبقاً في المبنى، الهدوء العميق يضاعف صرير عجلات حقيبتي، وكأنها قطار يركض في ليل دامس، كانت المصابيح الجدارية المتباعدة تجعل من ظلي لصاً أسود طويلاً، كنت أنظر إلى أرقام الغرف على جانبي الممر، وفي طرف الممر كنت أرى لافتة الحمّام المضيئة، توقفت عند الغرفة رقم 8، وهمزت أُكرة الباب برفق، ورفعت حقيبتي الثقيلة كي لا تُحدث صوتاً، ثمَّة فتاة شقراء ترتدي بيجامتها، وتخفي وجهها في وسادتها، بينما تحتضن بين فخذيها وسادة أخرى، وما إن أغلقت الباب بهدوء سمعت صوتها: «هاي» قالت مبتسمة بعينين ذابلتين، فابتسمتُ وأنا أعتذر منها على الإزعاج، لكنها نهضت من سريرها متجهة نحوي وهي تردد: «لا، لا»، ثم عانقتني بحرارة، وعرَّفت بنفسها: «كيت»، صافحتها وأنا أقول: «رشا».

كانت كيت فرحة جداً، كما لو كانت تنتظر قدومي، أشارت إلى السرير الآخر بجوار النافذة: «هذا سريرك، وهذه خزانتك» وأضافت: «هذه ثلاجتي يمكنك مشاركتي فيها»، شكرتها بامتنان.

كانت الغرفة الصغيرة عبارة عن سريرَين، وخزانتَي ملابس، وطاولتَي كتابة برفَّين علويَّين ومصباحَين، وفي الزاوية ثلاجة صغيرة.

رتّبت أغراضي في الخزانة، وبدّلت ملابسي، ثم توضّأت وأخرجت البوصلة والسجادة، حدَّدت القبلة، ولففت شرشف الصلاة حول جسدي ورأسي، ثم كبَّرت تكبيرة الإحرام، فجأة بدأت كيت تحادثني: «رشا... رشا» لم أكن أجيب، أركع وأسجد وأجلس، حتى وضعت وجهها أمام وجهي مباشرة: «رشا... رشا... ماذا تفعلين؟» حينما جلست للتشهّد ثم سلَّمت، ابتسمت وأنا أشرح لها أن ما أفعله هو الصلاة في الإسلام، فتفهّمت بخجل، واعتذرت. كنت أفكر كيف لم ترَ من قبل أيَّ مصلٍ، حتى ولو في التلفزيون أو يوتيوب أو أي وسيلة تواصل في هذا العالم الصغير!

ما أقسى أن أتصل بأمي ذلك الفجر البارد، فأجدها تبكي وهي تنتظر بقلق، ثم تبكي وهي تحكي معي، ثم تبكي وتبكي، وأجزم أنها ستبكي حتى بعد أن أقفل الخط، كنت أحاول أن أمازحها، أجاهد كي أضحكها، لكنها تحملُ قلب الأمهات الحزينات اللاتي يفتقدن أطفالهنّ، كنت طفلتها حتى ولو شارفت العشرين عاماً، هدأت بعد أن طمأنتها بأن أموري جيدة، ووفّقتُ برفيقة رائعة تقاسمني الغرفة، ثم تحدثت مع أبي لدقائق، واطمأن عليَّ، وأقفلت الخط.

تمددتُ تحت لحافي، ولم أكد أتخيّل أمي وأهلي الآن في الثالثة عصراً تقريباً، وربما يرتشفون الشاي الآن، ظللت أتخيّلهم لدقائق حتى سقطتُ كجثَّة، لم أشعر بشيء مطلقاً حتى رنّ فجأة جرس المنبّه، فتنبّهتُ متوهمةً أنني في غرفتي، وأنها السابعة صباحاً، وأن بلوزتي البيضاء مكوية ومعلَّقة على أُكرة باب الغرفة من الخارج،

وأنني تحمّمت البارحة ومسدت شعري بمجفف الشعر قبل أن أنام، وسأصلّي الآن، وأوضّب شعري سريعاً، وأضع مكياجاً خفيفاً على وجهي، قبل أن أركب سيارتي مع الهندي آصف؛ لكنني فوجئت بزميلتي كيت وهي تخمد منبهها، وتتسلل نحو الحمّام، فتحت عينَيّ على ضوء الصباح المتسلّل من النافذة بجوار سريري، فتحت الستارة ببطء، ورأيت المكان لأول مرة، فقد كان الظلام دامساً ليلة البارحة حينما وصلت، فوجئت بسنجاب يلهو تحت شجرة ضخمة، يا اللّه، تذكرت السناجب الجميلة في حديقة الهايد بارك في لندن؛ تذكرت كيس مكسرات صغيراً في حقيبتي الصغيرة، فتحته والتقطت بضع حبات من الفول السوداني، ثم خرجتُ ببيجامتي من الغرفة صوب الحديقة، اقتربت ببطء من جذع الشجرة حيث السنجاب، لكنه هرب فوراً متسلّقاً الشجرة، فوضعت له حبّات الفول السوداني تحت الجذع، وعدت إلى الغرفة وقد خرجت كيت مستحمة، وهي تلفُّ شعرها بمنشفة صفراء، فسألتني أين كنتِ؟ أجبتها بأنني خرجت أطعم السنجاب، فابتسمت وأشادت بطيبتي، فأجبتها بأنني أحب الحيوانات.

سألتها إلى أين ستذهب، فأخبرتني وهي تفرد شعرها بأنها ستذهب إلى الجامعة، كي تسلِّم ورقة عمل مطلوبة منها، ومن ثم ستذهب إلى السوبر ماركت القريب من السكن. تساءلت إذا بإمكاني مرافقتها إلى قسم الطلاب الأجانب، توقّفت لوهلة وهي تحدِّق بي: «لكنك لم تنامي بشكل كافٍ!»، أجبت: «صحيح. لكن لا أشعر بالنعاس».

زمَّت شفتيها مبتسمة: «أكيد؟».

هززت رأسي: «أكيد».

أشارت برأسها أن أتجهّز سريعاً للخروج، قمت وتحمّمت على عجل، ولبست بلوزة بيضاء خفيفة، وبنطال جينز كحلياً، وبينما أنشّف شعري، كانت كيت تسألني وهي أمام ثلاجتها الصغيرة: «أنا فطوري ماونتن ديو، وكرواسان، وأنتِ؟».

أجبت: «كوكا، وأي شيء، لا فرق».

ناولتني كرواسان سادة، وعلبة كوكا دايت، فشكرتها وهممت بالجلوس. أشارت بيدها أننا سنخرج الآن، وسنأكل أثناء المشي كسباً للوقت، مشيت معها فيما يشبه الهرولة، لم أكن أجيد الأكل وأنا أمشي، لكنني منذ اليوم سأعتاد ذلك، وأغيِّر عاداتي وسلوكي اليومي، ولعلّ أكثر ما سيرهقني أن أمشي مسافات طويلة جداً كما تفعل هذه المجنونة كيت.

كيت شابة نحيلة وجميلة، قوامها ناعم، شعرها بنِّي مجعّد وقصير، تتحرَّك في الأنحاء بسرعة، لا تستغرق تحت الدوش أكثر من خمس دقائق، تأكل وهي تهرول، بل تتكلم أيضاً وهي تهرول، وتقوم بعدة أشياء في وقت واحد، ومع كل ذلك تعرف كيف تستمتع بالحياة حتى أقصاها، وتجازف أحياناً فيها، عائلتها تقيم في مقاطعة نيفادا، في بلدة صغيرة اسمها تروكي، قدمت منذ أعوام لدراسة الفنون في الجامعة هنا في لوس أنجلوس، كنت أضحك منها كثيراً حينما تشعر بالحنين إلى بلدتها التي لا تبعد أكثر من بضع ساعات، وأسألها: إذاً ماذا عمَّن يقطن أهله خلف محيطات؟

إن الحنين لا يرتبط بالمسافات، بل بالذاكرة التي تركناها في مكان ما، حتى لو كانت هنا في سانتا مونيكا. قالت لي ذلك فيما

بعد، واتفقت معها تماماً، بعدما حكت لي طويلاً عن بيت أهلها، مدرستها الثانوية، عن وسط تروكي التاريخي وجماله، عن محالها وحاناتها ومطاعمها التي تحبها، عدّدت عليَّ بعض الأسماء التي تحتفظ بها في ذاكرة طفولتها، لكنني لم أحفظها، فكَّرت بدوري عن الحنين الذي يباغتني، عن شوارع الرياض، مطاعمها، أسواقها، شوارعها، عن الأمكنة التي أحتفظ بذاكرة جميلة نحوها.

خرجنا معاً، مشينا لمسافة تكفي لأن ألتهم الكرواسان، وأرمي بعلبة الكوكا الفارغة في صندوق نفاية حديدي، قبل أن ندلف معاً من باب زجاجي لمبنى التسجيل ودفع الأقساط، حيث ستدفع كيت رسوماً مستحقة عليها، بينما اتجهت إلى قسم الطلاب الأجانب، فمنحتني الموظفة موعداً في صباح الغد من أجل جولة تعريفية حول الجامعة، وتهيئة الطالب المستجدّ لمعرفة التسهيلات في الجامعة، وما يحيط بها من خدمات، ثم خرجنا معاً، نحو السوبر ماركت القريب، كانت كيت تحب المشي لمسافات طويلة، فمسافة ساعة مثلاً تعتبرها أمراً عادياً، ورغم تعب السفر في أول يوم إلا أنني كنت ممتلئة بالحماس والسعادة، أسير بجوارها بطاقةٍ عجيبة، أتجوّل في السوبر ماركت بسعادة، أشتري كل شيء يأسرني، حتى لو لم أكن بحاجته، لكن كيت علمتني فيما بعد كيف أتقشّف كطالبة، وأن أدخر المال لظروف قد تكون طارئة: «نحن لا نعرف المستقبل، ولا ما يخبئ الغد» كانت تقول لي.

في الصباح التالي، وفي جولة البرنامج التعريفي، مع طالبات وطلاب من اليابان والصين وأميركا اللاتينية، اكتشفت أن الجامعة ضخمة جداً، مبانيها عديدة، كلياتها، مكتباتها، ممراتها، مسطحاتها

الخضراء الجميلة، تماثيلها، حتى المقاهي فيها، والأجمل أنني وجدت فيها محلَّي قهوة، أحدهما ستاربكس الذي أحبه، والآخر كوفي بين الذي سأعشق مكانه وجلساته أكثر، وربما لأنه الأقرب لكلية طب الأسنان، وأيضاً قربه من قاعات الفنون والسينما والمسرح، حيث وجدت عالماً عظيماً، وظللت في الأيام الأولى أدعو من كل قلبي للظروف التي أحاطت بي في الرياض، والتي أحبطتني، وأدعو لكل الأشخاص الذين دمّروا حياتي الحالمة، ودفعوني حتى جئت هنا، فوجدت أن العالم أكبر من حكاية حب ساذجة.

أحياناً حين يحدث الأسوأ، لا نفكّر أنه يقودنا إلى الأجمل، علينا ألا ننكفئ حينما يركلنا الخذلان، بل ربما ركلته تمنحنا القفزة القادمة.. لنقفز نحو المجهول مع تلك الركلة الطائشة، ولا نلتفت للخلف أو نبحث عن القدم التي فعلت ذلك، فلسنا بحاجة إلى لعنها، ولا إلى شكرها!

بعد بضعة أيام لم أستطع مجاراة كيت في جنون المشي، وعدت إلى عادتي المحببة، الكسل، كأغلب السعوديين، فقرّرت أن أشتري دراجة هوائية لمشاوير الجامعة الشاسعة، وللمشاوير القريبة منها، كما تعرَّفت إلى طريقة طلب سيارة التاكسي، وحصلت على خريطة المدينة، لأعرف شوارعها ومحالها وأسواقها.

في الأسبوع الأول من الدراسة، كنت مأخوذة بشكل القاعات المفتوحة، واتّساعها، ووقوف الدكتور أمامي مباشرة، وليس من خلال الشبكة التلفزيونية كما في جامعة الملك سعود، كنت متوجّسة من أن يجلس بجواري شاب لا أعرفه، ويتحدث معي ببساطة، لكنني بعد مرور شهر انسجمت مع جوّ الدراسة، ومع الزميلات والزملاء

في الكلية، إيميلي وإليزا وجون وديفيد، ويويشكي الياباني، وسنتيا المكسيكية، نتناول القهوة في وقت الراحة بين المحاضرات في كوفي بين، وأحياناً في ستاربكس، ووقت الغداء نقضيه في مطعم كاليفورنيا بيزا كيتشن أو في باندا إكسبرس أو رونالد توتور كامبس سنتر وغيرها. الجامعة كانت عالماً فسيحاً، نابضاً بالحياة والطاقات الشابة من مختلف الجنسيات.

مرَّ شهران من بدء الدراسة، تعلَّمت فيها أشياء كثيرة، وانخرطت تماماً في دراستي، دون أن أصادف سعودياً أو حتى خليجياً، فقد كنت متحمسة كثيراً كي لا أفشل، فاجتياز العقبة الأولى من المواد يثبت أنني فعلاً كنت على مستوى تحدي ذاتي وأهلي، وكنت واثقة جداً من النجاح والتفوق.

كنَّا آخر أربعاء من نوفمبر، حيث سبقتني كيت إلى غرفتنا، وتحممت. كانت تقف أمام المرآة ترتب شعرها، وهي تخبرني بأن غداً الخميس، يوافق عيد الشكر!

أجبت: «أعرف».

طالعتني من خلال المرآة: «طبعاً إجازة، وكل الطلاب يسافرون، أين ستذهبين؟».

كان سؤالها مباغتاً، يشبه خبطة كرة طاولة على وجه متفرِّج ساهٍ، سؤالٌ أيقظني من محاولة النوم في دهاليز الغربة، كأنما جعلت منزلنا يتأرجح أمام بصري فجأة، كأنني أمام بابنا، أبحث عن أهل وصديقات. كأنني أمام باب لا أود طرقه. هكذا إذاً، لن أطرق أي باب سوى باب ذاكرتي الحزينة.

تنهّدتُ بعمق، وأنا أرتّب كتبي فوق طاولتي: «لن أذهب إلى أي

مكان»، توقّفَت والتفتَت نحوي: «لن يبقى أحد في الجامعة، تعالي معي إلى أهلي؟».

وأضافت: «سيمرُّ بي صديقي، ونذهب بالسيارة إلى البلدة الصغيرة قرب سان فرانسيسكو، مسافة خمس ساعات تقريباً».

فكَّرتُ بأمي، ماذا لو تعرف أنني سأسافر في طريق طويل مع شاب أميركي لا أعرفه، سأمضي إلى مكان غريب، وأُسرة مجهولة، صحيح أن كيت صديقتي وشريكتي في الغرفة، وهو صديقها، والأُسرة أسرتها، لكن ذلك لا يكفي لأن أغامر، كنتُ أفكِّر، لماذا لا أبقى وأتجوَّل في هذه المدينة الجميلة، أحاول اكتشافها وحدي.

شكرتها وأنا أعتذر بأنني أفضِّل أن أبقى هنا لأتعرَّف إلى المدينة بهدوء، بعيداً عن الإرهاق اليومي في الجامعة: «ستجلسين سنوات هنا، وستعرفين كل شيء لاحقاً»، أجابت.

«أيضاً لا أريد أن أثقل عليك».

حدَّقت بي وهي تعاتبني: «أنتِ صديقتي وشريكتي في الغرفة».

صاحت بي بصخب وجنون: «هيا تحرّكي يا رشا، جهّزي حقيبتك، وسنمرُّ أيضاً بمحلٍّ كي تشتري سترة وحذاء للثلج، فالدنيا في البلدة ثلوج».

فكَّرت لوهلة، ووجدت أن من المقبول أن أسافر مع صديقتي، وأحاول دفع بعض التكاليف بطريقة غير مباشرة، إما بهدايا أو ما شابه ذلك، لكن الرحلة تلك ستكون أول رحلة سفر برِّي داخل أميركا، وأول رحلة مع أناس غير أهلي، نهضتُ ورتّبت ملابسي وأغراضي على عجل في حقيبة صغيرة، تكفي ليومين أو ثلاثة.

لم تمضِ دقائق معدودة حتى اتصل بها صديقها سام، وقال إنه

في المواقف، خرجنا على عجل، ونحن نسحب حقيبتَينا خلفنا، كان الجو بارداً، وقد لففت حول عنقي شالاً صوفيّاً أحمر، وجدنا سام يتفقّد الصندوق الخلفي لسيارته، شاب أميركي متوسط الطول ونحيل جداً، شعره مقصوص، وفي أذنه اليسرى قرط صغير، يرتدي كنزة صوفية، وبنطال جينز، صاحت به كيت: «هاي» فالتفت نحونا، وسلم عليَّ مرحّباً، وضعنا حقيبتَينا في الصندوق الخلفي، حيث باعد الأغراض تاركاً مكاناً للحقائب، ولاحظت أن ثمة سلاسل غريبة مطوية، فأصابتني قشعريرة وقلق، رغم أنني لا أخاف، لكنني فكَّرت بأن هذا الشاب الأميركي الذي لا أعرفه، وسأسافر معه مسافة خمس ساعات، قد يكون قاتلاً محترفاً، لكنني كففتُ عن القلق حينما انطلقنا وتحدثنا، ثم إنني مع صديقتي كيت، وهي طالبة على وشك التخرّج من جامعة الفنون، ولا يمكن أن تضرني في شيء: «اهدئي يا رشّو، ولا توسوسي».

قالت له كيت إننا بحاجة إلى مركز تجاري لشراء أغراض تخصّني من أجل السفر، فاقترح أن نمرَّ سيتي سنتر مول في الشارع السادس، وهناك اقتنيت حذاء للثلج بـ 100 دولار، ومعطفاً بـ 150 دولاراً، ولم تكن ماركات لكنها جيدة بما يكفي، وفي داخل المركز التجاري لمحتُ محل أنتيك، فقررت شراء هديتَين لوالدَي كيت، كانتا تحفتين جميلتين، بنحو 250 دولاراً، قلت لنفسي بما أنهم سيستضيفونني في منزلهم، وآكل معهم، فلا بدَّ من هدية مقابل ذلك.

انطلقنا في الطريق إلى بلدة تروكي، ناحية سييرا نيفادا، كانا يتحدّثان عن أصدقاء لهما لا أعرفهم، وتحكي كيت عن أختها وطفليها، وحينما أحسَّت أنهما انشغلا عني، التفتت نحوي وتحدّثنا

عن الجامعة، وأخبرتني عن رحلات أغلب أصدقاء السكن (Dorm)، وأي المدن والقرى التي قصدوها لقضاء إجازة عيد الشكر.

لم يكن سام يشاركنا الحديث، لكنه فجأة سألني:

«من أين تعلَّمتِ اللغة؟».

«من مرحلة الابتدائي».

«أنا تعلّمت الإسبانية في الابتدائي، أفهمها لكن لا أستطيع التحدث بها!».

«لا أعرف، قد تكون الإنجليزية سهلة، يتعلّمها الشخص بسرعة».

«ألم تتعرّفي على سعوديين أو عرب؟».

«أبداً، رأيتهم في مكتب الإنترناشيونال فقط، وخارج الجامعة لم أرَ أحداً».

«والمعهد؟ أعني معهد اللغة؟».

«لم أدخل المعهد، تجاوزت التوفل ودخلت الكلية مباشرة!».

«نايس».

سام شاب متهوّر ومجنون، بعدما تجاوزنا سانتا كلاريتا بمسافة كبيرة، توقف عند محطة وقود، وعاد بثلاثة علب كوكا، و«سكس باك بيرة»، وبدأ بعلبة الكوكا، بأن عبَّها دفعة واحدة، ثم نفض وجهه كطائر، وملأ علبته تلك بالبيرة، كان يخالف النظام بالشرب أثناء القيادة، لكنه لم يسكر أبداً، رغم أنه لم يتوقف عن عبِّ البيرة طوال ما تبقّى من الطريق، في لحظةٍ ما ركن سيارته جانباً بعدما أصبح الطريق واحداً، وهرول تجاه شجيرات، ثم تبوَّل واقفاً، وعاد راكضاً

وهو يزعق بجنون، بينما كيت تصفِّق بزعيق متَّصل، ووجدتني فجأة أشاركهما الصخب، وأصفّق له بحرارة.

رغم أنهما تحدَّثا طويلاً، وتخاصما أحياناً بطيش، كانا يعودان إلى صخب الموسيقى، وهما يغنيان معاً بمتعة أحسدهما عليها، بينما أضع سماعات ساهمة مع الأغاني العربية، كنت أغرق مع راشد الماجد وهو يموّل: «مثلك حصل لي، ومثلي ما حصل بيده، لو كنت بستان واللولو عناقيده، شاورت أنا القلب وقال القلب ما أريده» ثم يغني بحزن ولوعة: «عفناك يا للي بعت نفسك رخيصة» كنت أغني معه بصوت مكتوم، وأبكي ألماً، لا أعرف لماذا تذكَّرت عبد الإله في هذه اللحظة، فكلما انساب صوت راشد «أول شقيق القلب وأنت خليصه، واليوم غدرك لوَّع القلب تلويع»، أحسست بغصَّة تقتات من حلقي، حتى خلعت السماعة فجأة بحنق، وصرت أستمع إلى أغنية غربية صاخبة مع هذين المجنونين، كي أتخلّص من ذاكرتي، ومن سطوة بلادي البعيدة التي ظهرت في وقت لم يكن مناسباً أبداً.

كم هي كبيرة هذه البلاد، فكّرت بذلك حينما تجاوزنا ساكرامنتو وبدأت الطبيعة تختلف، والطريق أيضاً أصبح محفوفاً بالبياض على الجانبَين، أرمي بصري من النافذة فتباغتني شجيرات الأثل الأميركي، إذ تصطفُّ على جانبَي الطريق، كرجالٍ بثيابٍ بيض، وفي البعد أماماً جبال عظيمة تضع على رؤوسها قبعات بيضاء، سماء داكنة يهبط غيمها فوق القلب، والبحيرة التي تفيض كل فينة، ثم تختبئ في الأسفل مثل غريق يلوّح لنا بذراعيه ثم يختفي بعيداً، تاركاً لنا الدهشة والانتظار، حتى الموسيقى اختلفت، أصبحت هادئة

ومنسابة كماء متجمّد، تحسست قفازَيّ، ولمستُ سطح زجاج النافذة، كأنما أختبر جودتهما.

بعد بضعة كيلومترات بدأ الثلج الخفيف الذي تقذفه الرياح يصطدم بمقدمة السيارة، وأصبح الجبل الثلجي أمامنا، فأوقف سام السيارة جانباً، وفتح الصندوق الخلفي، وبدأ يسحب السلاسل تباعاً، ويلفُّ كل واحدة منها حول إطار من إطارات السيارة الأربعة، سألت كيت: «ماذا يفعل؟»، أجابت وهي تعبث بجوالها: «يضع السلاسل حول الإطارات»، فابتسمت خفية، وخجلت من نفسي، وأنا أتذكَّر قبل ساعات حينما وضعنا أغراضنا في الصندوق الخلفي، كيف أخافتني السلاسل المرمية بفوضوية، وقد ظننت أنها وسيلة للأذى، سامحني يا اللّه، فكم أنا غبية وساذجة، وقلقة أحياناً لأسباب واهية!

بعد نصف ساعة صعد سام السيارة، وسألته: «لِمَ فعلت ذلك؟».

أجاب: «نحن سنصعد الجبل، ومع الهواء والثلج قد تتزحلق السيارة من المرتفع، وتسقط من فوق الجبل». كان يقود ببطء لم يتجاوز 20 ميلاً في الساعة، كان حذراً جداً، رغم مزاحه وجنونه وعربدته، لقد تحوّل فجأة إلى إنسان آخر مسؤول، وهذا ما بدأ يلفت نظري إلى الأميركيين، كيف يميزون جيداً بين وقتَي الجد والهزل.

كانت البيوت مجلَّلة بالبياض، الأسقف والمصابيح والسيارات، كل شيء أبيض. في طرقات البلدة وأنا أرى البيوت البيضاء شعرت بالمهابة، كأنني دخلت للتو في ملكوت أبيض، كأنني دخلت في فيلم، وأصبحت جزءاً منه. بصري يلاحق نثار الثلج يتأرجح من السماء، كما ريش أبيض، يحطُّ ببطء على كل شيء، حتى على

رؤوس المارّة وأنوفهم، لم أشعر بأننا وصلنا بيت كيت إلّا حينما خمد محرّك السيارة.

نزلنا، واستقبلونا بحبٍّ كبير، كانوا يحتضنونني كما لو كانوا يعرفونني منذ سنوات بعيدة، أبوها وأمها، وأختها آنجل وزوجها جيمي، وطفلاهما كيفن وجيك، التقطوا حقيبتي وقادوني إلى غرفة كيت، حيث أنام الليلة معها، في البداية ظننت أن جيمي هو فعلاً زوج أختها، لكنها أخبرتني أنه صديقها (بوي فريند)، يعيشان معاً، وبينهما طفلان، لكنهما لا يرغبان في الزواج، كانت الأمور سهلة، فهما زوجان حقيقيان أنجبا وربيا بشكل مسؤول، حتى إنني كنت مأخوذة بالطفلَين، وتربيتهما الرائعة، كانا مؤدّبين جداً، ينفّذان التعليمات، فلا يتناولان الحلوى بعد المغرب، لئلا يصعب نومهما؛ في الليلة الأولى سهرا معنا لمشاهدة فيلم، لأنها ليلة عيد، حيث سمحت لهما أمهما بالسهر إلى الحادية عشرة على غير العادة. أثناء ذلك تنبّهت إلى ساعتي التي تشير إلى التاسعة صباحاً في الرياض، خرجتُ إلى عتبة الباب الخارجي، ووقفت بجوار مصباح الباب الأحمر؛ هاتفتُ أمي وأنا ألتحف بشالٍ صوفي ثقيل، أضمُّ يدَيّ إلى صدري، ألصق هاتفي المحمول على أذني، قالت إنها استيقظت منذ ساعة تنتظرني، فأخبرتها أننا في إجازة ليومَين فقط، وقد خرجت طوال اليوم في المدينة، وعدت مرهقة، وأستعد للنوم الآن.

عدت إلى الغرفة، وقد نام الصغيران، فانضممنا أنا وكيت مع العائلة، وهم يستعدون لبدء لعبة «ياتزي» المكونة من مكعبات نرد، ومجموعات حسابية، كانوا يلعبون بحماس ومنافسة وضحك، ثم غيّرنا اللعب إلى لعبة «كلو» التي تعتمد على الحظ، واستخدام

مجموعة بطاقات تمثّل أسلحة مختلفة، ومجموعة غرف، ومكعبَي نرد، وكل لاعب يتحرك ويدخل ما يشاء من الغرف ويختار من الأسلحة، وهكذا. . .

توقفنا عن اللعب، ذهبت مع كيت إلى غرفتها، لبست بيجامتي، وتمدَّدت. كنت أفكِّر، كيف أنام، ببساطة، هنا في بلدة ثلجية، ومع أُسرة لم أعرفها إلا منذ ساعات، بينما لا تقبل أمي أن أنام في بيت خالتي، رغم أنها شقيقتها، وبالطبع يستحيل أن أنام في بيت صديقتي، لماذا نحن هكذا، لماذا نخشى بعضنا، لا نثق بأحد، ونشكُّ كثيراً؟ هذا العالم المتناقض غريب بحقّ، يثير الدهشة والضحك أحياناً. اضطجعت من الجهة الأخرى حيث كيت تغرق في عتمة نوم عميق، كنَّا مرهقتَين من السفر، لكنني لا أشعر بألفة المكان، ظللت أتقلَّب وأهجس، لا أعرف متى هويت في لجَّة النوم، ورأيت أمي وأبي في شبابهما يبتسمان في أرجوحة بحبال طويلة جداً مغروسة في ندف الغيم.

في الصباح الباكر انطلقنا معاً لشراء أغراض الحفلة من السوبر ماركت، تلك الحفلة التي تضم كل عائلة كيت، وأعمامها، وأخوالها، وعند أمين الصندوق، أصررت على دفع الحساب رغم ثقل الفاتورة، وخصوصاً أنني لم أتحمّل تكاليف السكن والمواصلات، لم أتحمّل أي شيء، لذا يجب عليّ أن أشاركهم، فاقترحت كيت أن نشترك معاً في السداد.

في الظهيرة، بدأت عملية طهو الديك الرومي حتى المساء، تقريباً سبع ساعات، كانت المشروبات في كل مكان، خاصة النبيذ الذي يشربه الجميع ما عداي، والأطفال، والقطتان، وكلبان، أما

الكلب الثالث فشرب معهم نخب العيد، سألتُ والدة كيت: «لماذا هذا الكلب بالذات قدمتم له شراباً؟»، أجابت مبتسمة: «معتاد!».

كانت السهرة رائعة، صخب وغناء وأكل، وضحكات في كل مكان. كان عيداً جميلاً، تذكرت أهلي، واشتقت لهم وللعيد، رغم أن أعيادنا باردة، تلتهم ساعاتها حالات نوم وخدر، لكن رائحة الهال، إذ تتصاعد من الفناجين صباح العيد لا تُعوّض، آنية التمر وسلال الشوكولا، رائحة البخور تملأ الصالة، أمي التي توقظ الصباح بصوتها ودعواتها، هل أفتقد الأهل والمكان والأشياء الصغيرة؟ هل العادي واليومي يصبح حلماً جميلاً حين يصبح ذاكرة بعيدة؟ كنت أفكّر بينما تثرثر كيت وآنجل لحظة شاركتهما التنظيف والغسيل.

في صباح اليوم التالي، وجدت والد كيت واجماً، يجلس في الصالة الصغيرة ويتأمّل بياض الخارج بحزن، سألته: «هل أنت بخير؟»، هزَّ رأسه موافقاً، وتنهّد، ثم فهمت منه أنه لن يتمكّن من توزيع الصحف هذا الصباح، بسبب الثلوج التي تسد الطريق، وسيخصم من راتبه؛ حزنت لأجله، وحزنت أكثر لأنه في السبعين، وما زال يعمل موزّعاً للصحف، كما لو كان صبياً أو شاباً يافعاً.

خلال هذين اليومين عرفت أمرَين جديدَين عن الأميركيين، لم أعرفهما من قبل، الأول أنهم يمكن أن يعيشوا معاً، رجلاً وامرأة، من غير زواج، وينجبوا أيضاً، كل ذلك بمعرفة الأهل ورضاهم، والأمر الثاني أن الأم والأب، أو آنجل وحبيبها، يتعانقان ويقبِّل أحدهما الآخر، ويتحسّس أحدهما جسد الآخر علناً أمام الجميع، كان أمراً عادياً لديهم، لكنني كنت أدير وجهي كلما صادفت موقفاً

كهذا، كما كنا نفعل في الرياض حينما نشاهد مقطعاً في فيلم، فنغمض حتى ينتهي المشهد، أو يغيِّر أبي القناة لحين انتهاء مشهد القبلات.

بعد يومين توقّف الثلج، وبدأ الجيران يجرفون كمياته التي تسدُّ الأبواب، أو مجاري السيل عند الأرصفة، وبعضهم يزيح الكتل المتراكمة فوق سيارته، كلهم يحبون العمل بأنفسهم، ليس هنا عمال ولا سائقون هنود يقومون بذلك، كنت أفكِّر وأنا أجلس مع كيفن وجيك في الصالة، أتأمّل المشهد المدهش في الخارج من خلال زجاج النافذة المطلة.

في اليوم الثالث اتّصل سام، وأخبرنا أنه سيأتي كي نسافر قبل أن يهبط الثلج أكثر، فتقفل الطرقات تماماً، فنُحتجز في هذه البلدة، ولا نستطيع السفر، كانت التنبؤات الجوية تشير إلى ذلك، ودَّعت والدَيّ كيت وشكرتهما على الاستضافة، كانا يحتضنانني كما لو كنت ابنتهما فعلاً.

(9)

أول مرة أرى رجلاً عارياً

مرَّت الأيام بين المحاضرات، والمعمل، والمكتبة، والمقاهي، والسينما، واحتفالات الجامعة وأنشطتها التي لا تنتهي. لم أعد أتصل بأمي يوميّاً، وكلما اتصلت بها تشتكي أبي وزوجته فتيحة، مكائدها وشيطنة أبي علينا، واضطهاده لها، وتجاهلها، لم يكن أبي يتجاهلها من قبل، بل يصطحبها معه أينما ذهب، لم تعد تحتمل إهمالها، كانت مكالمة أمي دقائق، لكنها تنقلني من عالم الدراسة والحياة الجادة في أميركا إلى مشاكل لا تنتهي، كنت أنصت إليها، أطيِّب خاطرها، وأسعى إلى تهدئتها، ونادراً ما كنت أحكي لها عن تفاصيل حياتي هنا، كل ما هنالك أطمئنها بأنني أسير في الدراسة بشكل جيد.

ذات مساء اقترحت كيت أن نذهب للسينما، أنا وهي وسام، اختارت لنا فيلماً كوميدياً واقعياً حقيقياً، عنوانه Borat، يصور حياة شاب كازاخستاني طويل، بشارب أسود عريض، يعرض الحياة الفقيرة والبسيطة في كازاخستان، ويقدِّم وطنه، ومدينته، والأطفال، والنساء يحللن مكان الحمير في جذب العربات، ثم يقدّم أهله وأمه،

وناتالي التي يسميها أختي، رابع عاهرة في كازاخستان، وهكذا تستمر السخرية القذرة، ولأول مرة في حياتي أرى رجلاً عارياً، رجلاً يمارس العادة السرية فوق مجلة «بلاي بوي»، في إحدى صفحاتها باميلا أندرسون، شاب يرضع أخته، كانت المشاهد حقيقية ومقرفة، وبينما أشعر بالاشمئزاز، كانت القاعة تضجُّ بالضحك، وأحياناً صيحات استهجان: "Ew! Gross!". كان الفيلم باختصار يسخر من الكازاخستانيين، والجمهور يعتقدون أن هذا الشاب عربي، فكل رجل بشعر أسود، وشارب كثيف، هو عربي في نظرهم، كأن هؤلاء الأميركيين معزولون عن العالم، وكأن العالم أميركا فحسب، بينما بقية الكرة الأرضية مجرد بحار ومحيطات فقط.

حين خرجنا، كنت متأففة، وقلت لكيت حين سألتني عن رأيي، أشعر أننا أضعنا ساعتَين ونصف على مسخرة، كانت تعترض على رأيي: «هذا فيلم كوميدي».

أجبت: «أعرف»، وأضفت: «لا أحب السخرية من الشعوب».

علَّقت: «أعتقد عادي، حتى نحن نسخر من أنفسنا، لا تكوني حساسة كثيراً!».

انعطفنا في أوليمبك بولفارد، لنسلك جورجيا ستريت حين أضاف سام بأنني آخذ الأمور بجدّية، وأن هذا مجرد فيلم كوميدي، لكنني قاطعته قائلة: «لا، هذا يعكس صناعة السينما والنظرة إلى الآخرين»، لم أكمل لئلا تتحامل عليّ كيت، ولم أقل إن هذه نظرة نمطية وفوقية لشعوب العالم، كنت أفكِّر حينما اعترض طريقنا شاب مشرَّد وهو يضحك، فخفت، وانتبهت إلى خيم ملوَّنة منتشرة تأوي

المشرَّدين في قلب لوس أنجلوس، أسرعنا في الخطى، حتى أوقفنا تاكسي، وانطلقنا إلى مبنى الجامعة.

في اليوم التالي اشتريت شاشة ومشغّل دي في دي، كي نشاهد في الغرفة بعض الأفلام التي انتهى عرضها في دور السينما. كنتُ بحاجة إلى تمضية الوقت مع بعض الأفلام الجيدة.

(10)

أقف خلفهما ككلب حراسة وفيٍّ

في إحدى المحاضرات، تعرّفت إلى طالبة فلسطينية اسمها سحر، اقترحت عليَّ أن نأخذ قهوة في فترة الراحة، تحدثنا عن همومنا في الجامعة، وحكت لي عن عائلتها في الأردن، كنت طلبت قهوة أميركية، فعلَّقت بسخرية: «هذه ليست قهوة، هذا ماء برائحة قهوة» وسألتني إذا كنت تذوَّقت القهوة الفلسطينية من قبل، أجبتها بالنفي، وأخبرتني أنها مرَّة بمرارة قضيتنا، كانت شابة طموحة ومتحرِّرة، تحب السفر كثيراً حتى داخل أميركا، وحين أخبرتها برحلتي مع صديقتي في السكن إلى بلدة تروكي، وحكيت لها عن دهشتي بالثلج هناك في جبال سييرا نيفادا، أشارت بيدها بأن هنا في القرب جبل الثلج، ونصحتني بأن أكتشف أميركا كلما سنحت لي الفرصة.

حكيت لها عن أهل كيت، وطيبتهم وترحيبهم، فأجابت أن الشعب هنا طيب، شعب لطيف متعاون، عكس الحكومة، نحن العرب نكره أميركا بسبب سياساتها في العالم العربي، ودعمها الاحتلال الإسرائيلي، لكن الناس هنا لا علاقة لهم، ولا يمكن

تحميلهم ذنب هذه الحكومة العنصرية؛ كانت سحر تهتم كثيراً بالسياسة، وما يحدث في العالم من صراعات أنا بعيدة عنها كل البُعد، ولا تثير اهتمامي.

سألتني سحر إذا كان لدي بطاقة «آي دي»، وأضافت بأن من الضروري أن تكون لدي هذه البطاقة التعريفية التي تستخدمها هي في التنقُّل بين جميع مدن أميركا بدلاً من الجواز، تحمست كثيراً، وتذكَّرت أهمية الجواز والهوية لدى الفلسطينيين، لكنها كانت صادقة، فقد تعبت من نقل الجواز معي إلى أي مكان، فضلاً عن احتمال فقدانه.

ذهبنا معاً، واستخرجت بطاقة الـ«آي دي»، فشعرت بسعادة أن هذه البطاقة السحرية الصغيرة ستكون هي مفتاح التعريف بي عند الحاجة، وفي التنقُّل بين المدن والولايات.

عدت للغرفة أرفرف فرحاً، وأنا ألوِّح ببطاقتي أمام كيت، التي صاحت فرحاً واحتضنتني وهي تبارك لي، ثم قالت لا بدَّ أن نحتفل بهذه المناسبة، وأضافت: «سنذهب إلى ملهى ليلي»، وافقت رغم أنني لم أدخل ملهى ليلياً في حياتي، لكنني أثق بصديقتي، وكذلك فكرت أن أكتشف هذه الأماكن، فاتفقنا أن نحتفل في المساء.

كنت في التاسعة عشرة، ولا أعرف كيف أدخل لمثل هذه الأماكن، بينما كيت كانت أقل من الواحدة والعشرين بشهرين، لكنها تحمل بطاقة مزوَّرة (Fake ID)، تساعدها في الدخول والشرب كما تشاء.

ذهبنا، كيت وأنا وسبع زميلات من السكن، كنت متردِّدة وقلقة بعض الشيء، لا أعرف كيف تكون كيت حين تشرب، أخشى أن

تفقد عقلها، مع ذلك كنت متحمّسة بأن أكتشف هذه الأجواء الصاخبة. كان الطابور طويلاً، معظمهم شباب وفتيات صغيرات، لا أعرف لماذا اختارت كيت هذا الملهى الليلي تحديداً، ربما لأنه قريب جداً من الجامعة، لذلك كان واضحاً أن معظم من يقف في الطابور هم من الطلاب والطالبات.

رغم أننا وقفنا في الطابور في العاشرة تقريباً، إلا أننا لم ندخل إلّا عند الحادية عشرة والنصف، ساعة ونصف الساعة من الانتظار، قالت لي كيت إن ذلك بسبب عطلة نهاية الأسبوع. عند باب الدخول، نظر رجل الأمن في بطاقتي، واستلَّ قلماً سميكاً، وخطَّ علامة X فوق كتفي، تعني أنني أقل من السنّ النظامية للشرب، ولو تجاوزت ذلك خلسةً يتم طردي خارجاً. زميلاتي وضع في معصم كل منهنّ سواراً ورقياً ملوَّناً، لأن أعمارهنّ 21 فأكبر، ما عدا كيت التي زوّرت بطاقتها، لا أعرف إن كانت وحدها، أم هناك غيرها من البنات ممن يمتلكن بطاقة مزوَّرة!

كان الجو صاخباً في الداخل، موسيقى عالية، ورقص مثير، وزعيق. مجموعة شباب انضمّت إلينا وقد عرَّفوا بأنفسهم، أحدهم يراقص كيت، كيت المجنونة التي لا تتوقف عن الرقص والشرب، بينما الجميع يتعرَّفون بعضهم إلى بعض بسهولة، كانوا طيبين وودودين للغاية، لا أعرف إن كانوا طيبين فعلاً أم أن ذلك بسبب الشرب وحالة السكر، كل البنات يرقصن، بعضهنّ يرقصن في مجموعة، ومع بعضهنّ، أو مع الآخرين، أما أنا فلم أرقص أبداً، كنت أخجل من الرقص في مناسبات الزواج في الرياض، فكيف هنا وأمام شباب! كنت أقول لكيت كلما حاولت جذبي لأرقص إنني لا

أحب موسيقى التكنو، لذلك صرت أتنقَّل مبتسمة داخل الملهى الليلي وسط ذلك الضجيج، كنت أرغب بالاكتشاف، وفي الوقت ذاته، لم أرغب إحراج كيت التي كانت مستمتعة بالرقص والاحتضان والقُبلات مع الشاب النحيل، قبيل الثانية تفرَّقت الزميلات، وبقيت أنتظر هذه المجنونة، كنت أخشى أنها لن تعرف طريق العودة.

عند الثانية فجراً توقفت الموسيقى، وأقفلت أبواب الملهى، خرجنا، كانت كيت تمشي بصحبة الشاب الأشقر النحيل، بعينَيه الزرقاوين، والقرط الفضي على شكل عقرب في أذنه اليسرى. كنت أمشي خلفهما بخطوتَين أو أكثر، وكل فينة يتعثران في إحدى القبلات، فأقف خلفهما مثل كلب حراسة وفيٍّ أو ودود. مررنا بصيدلية CVS التي تعمل 24 ساعة، اشترى الشاب علبة صغيرة سوداء، لمحت عليها اسم «ماغنوم»، ثم عدنا إلى السكن، وما إن دخلنا الغرفة حتى احتضن الشاب كيت بطريقة ماجنة، وفي حركة سريعة هبط فستانها على الأرض، بينما خلع هو قميصه كأنه سيغطس في حوض سباحة، وقبل أن يشد سحَّاب الجينز إلى الأسفل استلَّ من جيبه العلبة الصغيرة السوداء، ورماها على سرير كيت.

كنت مذهولة.

فمي فاغر وأرتجف.

ريقي جفَّ وتصلَّبت قدماي.

لم أستطع المشي، فجلست على حافة سريري، لم أبدل ملابسي أو أنظف أسناني، بل اختبأت بسرعة تحت لحافي، وجعلت أفكِّر هل هما في حالة سكر شديدة، لا يعرفان ماذا يفعلان؟ ماذا لو فرغ منها واقترب منِّي، ماذا سأفعل به؟

لم أرَ في حياتي جسدَين يلتحمان أمامي مباشرة، كنت مثل قطَّة متحفِّزة للدفاع، كنت صامتة تماماً، بلا أي حراك، ولا نأمة، أحاول أن أسدَّ أذني لئلا أسمع آهاتهما وأصواتهما الماجنة وهي تتسلَّل بقوائمها الصغيرة الناعمة، كجيش نمل يتسلّق جلدي، لم أشعر بشيء، لا متعة ولا لذة، بل خوف وتقزُّز، خشيت أن أتقيأ على فراشي، سددت فمي بطرف المخدَّة، وبعد عدة دقائق خمد الصوتان، وخمدت.

في الصباح لم يكن الشاب موجوداً، لا أعرف متى غادر، هل نام ثم تسلل فجراً، أم ذهب حينما غفوت فجأة، لم تحكِ كيت شيئاً عمَّا حدث البارحة، ولم تعتذر، ولا أعرف لماذا لم أخاصمها، لعدم احترامها شراكتي لها في الغرفة، وحقّي بأن أرفض ما تفعله ليس من باب التدخّل في حياتها، لكن من حيث وجودي في الغرفة ذاتها!

كنت أفكِّر، كيف تنام مع شاب لا تعرفه هكذا ببساطة، شاب تقابله لأول مرة، كنت أظن ذلك يحدث في الأفلام فقط، وليس في الواقع، ثم كيف لها أن تفعل ذلك وأنا معها في الغرفة؟ كيف لم تراعِ وجودي، وتحترم مشاعري؟ كم كانت سخيفة!

ظللت أفكّر بهذه العملية، كيف تكون مؤلمة، كما يُقال لنا دائماً، وهي ليست كذلك مع كيت ليلة البارحة؟ تسلّلت تأملاتي خارج النافذة، والجامعة، ولوس أنجلوس، وخلف المحيطات، وأنا أتخيّل عبد الإله، وأتساءل: «ممكن أعمل كذا قدَّامه؟» لا مستحيل، أبداً لن أفعلها، لا أتخيّل نفسي مطلقاً عارية أمام رجل، حتى لو كان عبد الإله، لن أفعلها أبداً، لن أتزوج، كما لن أحب أميركياً مطلقاً، بل لن أقبل بذلك.

ظننت أن ما حدث كان عابراً، ولن يتكرَّر، لكن كيت لم تتوقف عن هذه الفوضى، كل مرة مع شاب مختلف، لا أعرف كيف تفكّر، رغم أنها جميلة إلا أنها لا تتردد في منح جسدها بكل بساطة. فيما بعد اعتدت ذلك، المشاهد الحيَّة، والأصوات والآهات، وكل الحركات المستخدمة والمبتكرة، كنت أنام أحياناً، وأحياناً أصعد للطابق العاشر، أشاهد فيلماً في السكن، وأشتري «سكيتلز» من ماكينة الوجبات الخفيفة، أو كوكا من ماكينة المشروبات (Vending machine).

سألتني مرة: «لماذا لا تنامين مع شباب؟».

كانت تعتقد أنني مريضة، أو أن لديَّ مشكلة نفسية، أجبتها: «لأنني لم أحب».

قالت: «ليس ضرورياً أن تحبي».

أخبرتها بأنني أصلاً لا أستطيع أن أفعل مثلها، لأنني عذراء، وشرحت لها أن على المرأة المسلمة أن تحافظ على هذا الشيء، وأن هذا الفعل يعتبر حراماً، كانت تنظر نحوي بذهول، ولسان حالها يقول: «أنتِ كاذبة!»، لكنها أنصتت حتى النهاية، ثم قالت إنني مسكينة: «Poor Rasha»، ووعدت بأن تشتري لي هدية في المساء.

التقطت دراجتي، ووضعت حقيبتي خلف ظهري، واتجهت للجامعة، كنت قد تأخرت على محاضرة البيولوجيا العامة التي تتناول البيولوجيا والتطور، للدكتور أوليفر؛ معظم وقتي في الجامعة أقضيه بين المحاضرات والمعمل، رغم أن هناك العديد من الأنشطة الموسيقية والمسرحية، لكنني كنت عازمة على أن أثبت أقدامي في

هذه الجامعة العريقة، إلى حدّ أنني أحياناً أنسى الاتصال بأمي، لتفاجئني باتصال في أوقات محاضراتي، حيث يكون الوقت ليلاً في الرياض، وغالباً ما تشتكي من أبي، من أنانيته ونزقه، واتهامه لها بتشجيعي على التمرُّد، مع أنها حبيبتي لم تكن تفعل ذلك مطلقاً.

عدت مساء قبيل غروب الشمس، ذلك الغروب الذي لا أعرف لِمَ يجلب الحزن، تماماً كالنخل الأميركي العالي جداً، الذي يشعرني ببعض الضيق، بالذات عندما يهبط الظلام، وتهمزه الريح فيبكي، وكذلك عربات المترو الذاهبة في حلكة الليل، حيث الركّاب العائدون من أعمالهم مطرقين بصمت وتعب، بينما دوائر رمادية من الحزن تطوف حول رؤوسهم؛ حينما دخلت الغرفة وجدت كيت تنتظرني، نهضت وهي تقول هيا بنا، سألتها: أين؟ تأففت وهي تذكِّرني أنها ستبتاع لي هدية، شكرتها وأخبرتها أنني مرهقة، ويمكن أن نؤجّل ذلك للغد، أو تشتري لي هدية على ذوقها. ضحكت وهي تتساءل: «أيّ ذوق، لا بدّ أن تقرري أنتِ». جذبتني من يدي، وهي تقترح أننا سنأخذ وجبة خفيفة في الطريق، ذهبت معها دون أن أبدّل ملابسي. ذهبنا إلى شارع صنست بوليفارد، لأول مرة أزور هذا الشارع، النخيل العالي على الأرصفة، المحال والأبنية العتيقة، كنت أمشي بجوارها دون أن أعرف إلى أين؟ مررنا بمقهى كوفي بين، كانت جلساته رائعة ومطلّة على الطريق، فاقترحتُ أن نستريح، ونأخذ قهوة كي أتنشَّط، لكنها جذبتني وهي تقول: «خلاص وصلنا»، مررنا بمحل تعرٌّ عليه رسومات إيحائية لنساء عاريات، قلت لنفسي هل جاءت بي كي أرى نساءً عاريات، لكن ذلك المكان يخصّ الرجال الباحثين عن المتعة. فجأة انعطفت داخل محل لم

أتنبّه إلى أنه محل Adult store إلّا عندما رأيت الأعضاء الاصطناعية، ذكرية وأنثوية، بجميع المقاسات والأشكال والألوان، وقالت اختاري ما تشائين منها. تسمَّرت مذهولة، يا لها من مجنونة حقّاً، ما الذي تفعله؟ قلت لها بخوف: «لا، لا أريد شراء مثل هذه الأشياء»، صارت تقنعني بطريقتها: «اسمعي رشا، لا يوجد أميركية ليس لديها مثل هذه». قاطعتها: «لكن أنا لست أميركية، لا، هذا مستحيل، لا أستطيع». قالت بانفعال: «ما بك رشا، جئنا كل هذه المسافة لأشتري لك هدية، وترفضينها؟». أجبت: «أي هدية كيت؟ إذا كانت هذه هديتك فلا أريدها»، طالعتني بحنق: «لماذا؟». أجبت: «لأنني لن أستخدمها». هزَّت رأسها بغرابة: «لماذا؟».

حاولت أشرح لها مسألة العذرية، وأن هذه الأشياء تتلف غشاء البكارة لو استخدمتها، لكنها لم تستطع الربط بين هذين الأمرين، تعتقد أن الغشاء لا قيمة له، والعذرية تفقدها البنت حين تنام مع رجل، وليس بهذه الطريقة.

كنا على طرفَي محيط، بالفعل بين ثقافتي وديني وكيت مسافة محيط، بل محيطات، ومن الصعب أن نتفق على شيء، خرجنا عائدتين، كانت طوال الطريق غاضبة، لم تكن تكلمني، ثم قالت فجأة إن هذا الشيء فطرة في الإنسان، ولا يمكن قمعه، شرحت لها أنه يتم عن طريق الزواج، أما قبل ذلك فلا يحدث. اعترضت بأنني أخبرتها أن الزواج يحدث من غير تعارُف، وإنما من خلال الأهل، ثم سألتني: «ماذا لو لم يحدث هذا الزواج، هل تموت المرأة من غير أن تلبّي هذه الفطرة؟».

منذ ذلك الوقت، أصبحت كيت تجلب لي كتباً عن حقوق

المرأة في أميركا، كانت تعتقد أنني حين أقرأها سأقتنع وأتغيَّر، لكنني لم أقرأ منها إلّا بضع صفحات، لانشغالي، ولأنني لن أقتنع إلّا بما تربّيت عليه. من بين الكتب التي جلبت لي رواية جاك كيرواك التي تصوّر حالة المجتمع الأميركي بعد الحرب في الخمسينيات من القرن الماضي، ربما هي التي شدتني بدايتها، لكني لا أملك وقتاً كافياً لقراءة الروايات.

كان ممّا قرأته، وأثار دهشتي، في كتب حقوق المرأة، فكرة أن من حقّ المرأة أن تتاجر بجسدها، وتكسب مالاً، وأنه يعتبر وظيفة، على الجميع احترامها، وفكَّرت لوهلة هل كانت كيت تقبض مالاً من هؤلاء الشباب؟ لا، لا تفعل ذلك، لأنها لم تخبرني، فهي تحكي ببساطة عن كل شيء، ثم أنها تصطحب شباباً شبه معدمين، حتى إنها مرة كانت مع هندي داكن البشرة، له رائحة كريهة، لم أستطع تخيُّل أن تفعلها معه، فقد تركت لها الغرفة، وأخرى مع إيراني صموت، لدرجة أن تخيَّلت أنه أخرس، لا أعرف كيف تفاهمت معه، مرة مع قصير بعينَين زرقاوين وأسنان منخورة، حين يبتسم كأنه يفتح باباً على خرابة، ومرة مع طويل بلحية مشذَّبة ومفرود العضلات، هذا الأخير كنا خرجنا للعشاء في مطعم، مع زميلين في السكن، ثم التحق بنا شاب بلحية وشعر طويل بنِّي، يلبس تي شيرت أزرق يكشف عن عضلاته، وعاد معنا للسكن، وسهرنا على فيلم في الغرفة، كنت أجلس على مقعد طاولتي، وهو يجلس معها على حافة سريرها، وأرى كيف تعبث يده تحت ملابسها، مع أن الفيلم لم يكن يحمل مشاهد مثيرة، ولا حتى رومانسية، وحينما انتهيا في السرير خرجت من الغرفة، وصعدت للطابق العاشر، حيث غرفة السينما، وطاولة

بلياردو وطاولة هوكي، ومختلف ألعاب التسلية، وماكينتا مشروبات وسناك، أخذت كوكا كولا ورقائق البطاطا، وتسلّيت بمتابعة فيلم Girl with a Pearl Earring في غرفة السينما، كنت شاهدته عدة مرات، لكنني كل مرة أستمتع بتفاصيل القرن السادس عشر، والفتاة التي يرسمها الفنان الهولندي يوهانس فيرمير، وبعد ساعتين إلا ربعاً عدت إلى الغرفة، فلم أجد الشاب، بينما كيت كانت نائمة، وحينما تمددت لأنام ظللت أفكّر لماذا أجامل، صحيح أنها مقرَّبة منّي كثيراً، وزيارتي لبلدتها ولقاء أهلها جعلها أقرب، لكن ذلك يضيّع وقتي، مع أنها لو وجدت في سلوكي أو مظهري ما يؤذيها فلن تجاملني، وإنما ستتقدَّم ببساطة إلى إدارة السكن، وتطلب تغيير شريكتها في الغرفة.

تذكَّرت أنها كانت ستفعل ذلك لو كنت محجّبة، قالت لي مرة، لو كنتِ محجبة لطلبت تغييرك فوراً، كان ذلك حين خرجنا من السينما، وشاهدنا فيلماً جديداً اسمه United 93، يتناول موضوع أحداث 11 سبتمبر، عن الطائرة التي فشلت في تحقيق الهدف، وضرب البيت الأبيض، فسقطت قبل ذلك، كان محرجاً لي أن كنت مع كيت وشبّان أميركيين، صحيح أنه لم يقل أحدٌ منهم شيئاً، لكنني أحس بهم وهم يكتمون غيظهم، كنت أتخيل شعور هؤلاء الركّاب، كيف لو كنت مكان أحدهم، كيف لو كان أحد أقربائي في هذه الطائرة المشؤومة، أو غيرها من الطائرات التي فجَّرت برجَي التجارة العالمي، كنت أتابع حالة الفزع التي انتابت المسافرين قبيل تحطُّم الطائرة في حقل زراعي قرب شانكسفيل بولاية بنسلفانيا شمال غرب واشنطن.

كنت مقهورة أن بدأ الفيلم بآيات من القرآن، حيث المختطفون يصلُّون في غرفة، وهم يكبِّرون مع الركوع والسجود، ورغماً عني كنتُ أفكر، ألن تعقد كيت مقارنة بين هؤلاء الإرهابيين وهم يصلُّون وبيني حينما تشاهدني أصلي في الغرفة؟ خاصة وأنا أتذكَّر دهشتها الكبرى حين رأتني أصلي أول مرة.

القاعة مظلمة، والصمت مهيب. حزن ثقيل يجثم على المتفرّجين. راكبة تبتسم وتتناول كوب قهوة من يدَي المضيفة، وتشكرها. أخرى تدهن خبزاً بالزبدة. رجلان في خريف العمر يتحدثان أثناء تناول الإفطار. شابة نائمة وهي تشبك سماعتَي أذن، وتلقي رأسها جانباً. خاطف يدخل الحمّام بحقيبته، ويحضِّر المتفجِّرات والبطارية والتوصيلات ويربطها حول خصره. يقفل سحّاب الجاكيت، ويتشهَّد قبل أن يخرج من الحمّام. خاطفان آخران في مقعديهما، أحدهما يمد يديه أمامه وهو يدعو ويتمتم، ينهض أحدهما نحو المضيفة، ويقبض عليها من الخلف، واضعاً السكين على حنجرتها، بقية المختطفين ينطلقون في مهماتهم وهم يرددون: اللّه أكبر.. اللّه أكبر.. فوضى عارمة في الطائرة، والمختطفان يطلبان من المضيفة تحت التهديد فتح باب كابينة قائدَي الطائرة، يتسلَّمان دفَّة القيادة ويخرج أحدهما صورة البيت الأبيض، بينما الخاطفان الآخران مع الركّاب، مجرد أن عبارات المختطفين باللغة العربية: اخرسوا، تعالي، بسرعة، يا اللّه، أروح أخبرهم، إجا دورنا، الحمد للّه، لا إله إلا اللّه، وهكذا... هذه الكلمات تشعرني بالغصة، فلغتنا الجميلة أصبحت قاموساً للإرهابيين، ولغة قرآننا، وديننا المتسامح بات يعني للأميركيين إرهاباً واختطافاً وقتلاً.

حينما اتجه الخاطف بالطائرة بجنون وسرعة هائلة نحو الأسفل تعالت صيحات الركاب وبكاؤهم، بينما شدّت كيت على يدي فوق ذراع المقعد، كأننا نحن من يسقط. كان قلبي يرجف، وعيناي تفيضان في ظلام القاعة. قلبي يتقطّع كلما استعدت مكالمات الركّاب لأهاليهم، وكلمات الوداع محفوفة بالبكاء والحزن:

- I love you too.

- Bye honey.

- Take care baby.

عبارات رقيقة وحميمة، في الفيلم كنت أمام لغتَين، واحدة تصنع الإرهاب والقتل، وأخرى تبثّ الحب والرقّة والجمال، كنت أعرف أن الطائرة ستسقط وتنفجر، لكنني في ذروة بكائي ودعائي أنتظر أن يفعلها الركّاب، خاصة حينما هاجموا الخاطفين الواقفين أمامهم في الممر، وسيطروا على الوضع، ثم استخدموا عربة الأكل في خلع باب الكابينة، لكن الوقت كان متأخّراً جدّاً، والمختطف اتجه بالطائرة نحو الحقل الأخضر حتى انفجرت، وتحولت الشاشة الضخمة إلى سواد، بعبارات بيضاء تلخّص الحكاية وما بعدها، كانت الموسيقى حزينة، وقد نهضت كيت ورفاقي الأميركيون، وبدأوا بالخروج، فلحقت بهم، في الطريق كانت ظلالنا أمامنا، نسير مطرقين بصمت وحزن، لم يتهمني أحد، لكنني بادرت بالحديث عن هؤلاء الإرهابيين، وأنهم في كل مكان، حتى في بلادنا، حكيت لهم عن خلايا الإرهاب في السعودية، وتفجيراتهم في الرياض منذ منتصف التسعينيات، لكن الأمر أصعب ممّا تخيّلت، كانت معرفتهم محدودة جداً، فوجئت بأنهم يعتقدون أن ابن لادن يعيش بيننا، وأن

الدولة تدعمه بحكم أنها دولة وهابية، جهلهم أرعبني أكثر من واقعية الفيلم.

حينما عدت مع كيت إلى السكن، كنا نواصل حديثنا عن الإسلام والإرهاب، كانت تمتدحني وأنني مختلفة عن الصورة الذهنية لديهم عن العرب:

«منذ رأيتك ارتحت لك، ربما لأنك لستِ محجبة!».

«طيب لو كنت محجبة، هل تكوني صديقتي كما نحن الآن؟».

«أرجو ألّا تغضبي!».

ابتسمت وقد أضافت:

«من الصعب أن تكوني صديقتي، سأخاف منك، ولن أخرج معك أبداً، وربما أطلب من إدارة السكن تغيير الغرفة!».

فوجئت بكلامها، وشرحت لها أن الشكل لا يعني شيئاً، وأن الإسلام أكبر من ذلك، والحجاب لا يمثّل شيئاً في الدين:

«طيب أنا أعيش بينكم، ومختلفة عنكم، سعودية وأصلّي وأصوم، فقط لا ألبس حجاباً».

«صحيح، لكن الحجاب يخيف!».

«لماذا؟».

«رمز لدين يكفّر الناس، يعني هو شكل من أشكال الإرهاب».

كان صعباً أن أقنعها رغم أنني حكيت لها عن فترة الصحوة لدينا، وكيف كنا نحكم على الناس من مظهرهم، فمن له لحية وثوبه قصير هو رجل خيّر، ومن تلبس قفازين أسودين هي امرأة صالحة، وتركنا هؤلاء الجهلة يقودون مجتمعنا، ثم اكتشفنا متأخّرين أن ذلك كان خطأً فادحاً، ما زلنا ندفع ثمنه حتى الآن.

مع كل ذلك، كانت كيت صديقة جميلة ورائعة، قضيت معها سنة تقريباً، وكانت سنتها الأخيرة، تعود بعدها إلى أُسرتها في تروكي، كي تعمل هناك، كانت بالنسبة إلي لحظة صعبة للغاية، ولا أتخيل أن أسكن مع طالبة أخرى لا أعرفها، فكَّرت ألّا أجدد في السكن للسنة الجديدة، وأتخذ سكناً مستقلاً، حتى لو كان مجرد غرفة، أو استوديو، كي أشعر باستقلالي وراحتي، بعيداً عن فضاء الجامعة، لكن هذا الأمر صعب، إن لم يكن مستحيلاً بالنسبة إلى أهلي، لا بدَّ أن أقنع أبي بذلك، وأيضاً أحصل على المال منه.

قررت أن أعود إلى البلاد، لأن إجازة نهاية العام قد بدأت، ولأنني أيضاً اشتقت لأمي وإخوتي، وكذلك لأقنع أبي بمسألة خروجي من سكن الجامعة، إلى سكن خاص ومستقلّ.

اتصلت بالملحقية، بشأن تذكرة السفر، وعبأت النموذج المطلوب «أون لاين»، ثم استلمت رقم الإركاب، ورقم هاتف مكتب سياحة اسمه «غراند ترافل»، وقبل أن أستلم التذكرة كانت كيت قد رتّبت أغراضها الخاصة، استعداداً للسفر، الأحد القادم.

(11)

العشاء الأخير مع كيت

باعة سود، مكسيكيون، صينيون، امرأة ملوّنة تلقي خطبة، وتحمل لافتة بأن المسيح يمنح الخلود في الحياة، عائلة خليجية تتجادل بصوت عالٍ حول حرمة ما يفعله نحّات صيني يصنع تماثيل من جبس للسيّاح، شحّاذون مهذّبون لا يلاحقون المارة، ولا يشتمونهم، أسماء النجوم من الممثلين والمغنين على بلاط الرصيف في شارع هوليوود بوليفارد، سيارة السيّاح المبهرجة تذرع بهم الشارع، مهرّج بملابس سبايدر مان، مهرِّجة بثوب أحمر وشعر أصفر، يغررون بالسياح بصور مشتركة مقابل حفنة دولارات، عازف جيتار أشقر بملابس فقيرة يمشي ويعزف، مطاعم ومقاهٍ وحانات، وجوه كثيرة لا أعرفها، ولا تعرفني بالطبع، كنت مأخوذة بالعالم الصاخب، كأننا فعلاً داخل فيلم من إنتاج هوليوود.

كنا نمشي، كيت وأنا، في ذلك الشارع الصاخب، وقد اقترحت عليها بالأمس أن أحتفل بها بمناسبة تخرّجها، وأودعها بعشاء أخير، فعانقتني بحب وجعلت تمسح بيدها على ظهري. كان معظم الأصدقاء في السكن غادروا في إجازة طويلة؛ اتصلت بمطعم كليو هوليوود وحجزت طاولة لشخصَين.

تمشّينا طويلاً قبيل غروب الشمس، حتى تعبت، فاقترحت أن نجلس في مطعم وحانة مطلة على الشارع، وخصوصاً أن موعدنا في مطعم كليو بعد ساعتَين، عثرنا على مكان مثالي، طاولة على الرصيف تماماً، طلبت كيت بيرة محليَّة، وطلبت كوكا كولا، وقضينا الوقت نتحدث عن المستقبل، عن حياتها هناك في تروكي، وعن أحلامها وطموحها، بينما كنت أتحدّث عن اشتياقي لأهلي، وعن خططي في استئجار غرفة خارج الجامعة، والمناطق المناسبة والآمنة للعيش في لوس أنجلوس، كانت تخبرني بأن أمامي أن استأجر في غرف قريبة من الجامعة لكن المنطقة غير مريحة، أو في شمال المدينة وهي مناطق أرقى وأكثر أماناً، لكنها بعيدة، قد يستغرق مشوار الجامعة نحو ساعة أو أقل، وهذا الأمر يتطلب أن يكون لدي سيارة خاصة.

قلت لها إنني أفكِّر جدياً بشراء سيارة حين أعود، لكن ذلك يعتمد على دعم أبي لي.

سألتني:

«هل تعرفين قيادة السيارة؟».

«أتعلَّم».

«هل يوافق أبوك؟».

تنهَّدت:

«تخيلي كيت، قد يوافق على السيارة، لكن من المستحيل أن يوافق على أن أسكن بمفردي».

«لماذا؟».

كانت تعتقد أنه لن يرضى بسبب المال، فاقترحت عليَّ أن

أختار صديقاً يعيش معي، كي يتوزّع عبء السكن بيننا، فابتسمت ولم أشرح لها أن ذلك غير مقبول في مجتمعنا، أن تسكن فتاة وحدها، كما يفعل الشاب، لن تتفهَّم ذلك، فلم أتحمّس بالشرح لها كما كنت أفعل في بدايات تعارفنا.

نهضنا نحو نهاية الشارع، وانعطفنا يساراً نحو مطعم كليو، كنت أرتدي بنطالاً وقميصاً أبيض، وصندلاً، بينما كيت ببنطلون جينز وقميصاً بالحروف الأولى من اسم الجامعة، كان المطعم مزدحماً تماماً، وفي البدء غضبت لأنهم قادونا إلى المقاعد العالية أمام الطبّاخين والسقاة في المشرب، وقالت لهم كيت إننا حجزنا طاولة بشخصين، وخلال دقائق أخذونا إلى طاولة في العمق، لكننا حين نتحدث نضطر إلى أن نزعق بسبب الضجيج، طلبنا سلطة سيزر، وسلطة جرجير بحب الرمان، وسلمون اسكتلندي، وشاورما لحم، وكأس نبيذ أبيض لها، وسفن أب لي. كانت ليلة استثنائية تليق بوداع صديقة رائعة مثل كيت، عدنا إلى السكن، وفي الصباح استيقظت قبلي على اتصال سام، وحينما فتحت عينَيّ بصعوبة وجدتها تهمُّ بالخروج، رفعت جذعي، فأشارت أن أبقى:

«أريد أن أقول لك إلى اللقاء كما لو أنني ذاهبة إلى محاضراتي».

نهضت، وأنا أعاتبها:

«هذا غير صحيح، أنتِ ذاهبة بشكل نهائي، وقد لا نلتقي».

اتجهت نحوها واحتضنتها بدمعة مترجرجة:

«كيت لقد استقبلتني بشكل رائع، ويجب أن أعانقك».

قالت بحزن:

«رشا، أنا لا أحب الوداع، لهذا قلت لك سأخرج كما لو كنا سنلتقي ظهراً».

ودعتها وغادرت، ولم أرَها أبداً.

الأشخاص الذين يذهبون لا يعودون أبداً، عليَّ ألّا أنتظرهم، وإلّا قضيت العمر كله في انتظار ما لا يأتي... ذهب عبد الإله للأبد، وذهبت كيت أيضاً، وسيذهب آخرون، وستبقى كتبي وقهوتي واهتماماتي الصغيرة، ستبقى معي دائماً، أجلبها متى أردت، وأسامرها متى شئت، هي ما أراهن عليه في هذا العالم.

بعد أسبوعين استلمت التذكرة إلى الرياض، كانت الرحلة ترانزيت على فرانكفورت، وفيها ساعات انتظار طويلة، أي أنني سأصل بعد أكثر من يوم وليلة.

لا أعرف لماذا أشم رائحتهم، لعدة أيام، هؤلاء الذين أعرفهم، هل تبقى رائحتهم في الأشياء؟ في أُكرة الباب مثلاً، وعلى خلاط الماء في المغسلة؟ على الشراشف، والمخدات، وعلى أكواب القهوة، إنهم يبثُّون تلك الرائحة في المكان الذي يغادرونه، يلوِّنون الهواء بأنفاسهم وإفرازاتهم، حتى يتغلغلوا فينا، ولا يعني الأمر أن رائحتهم جيدة، لا ليس بهذا الشكل، هي ليست رائحة جيدة ولا سيّئة، هي رائحة فحسب، رائحة تشبههم تماماً. كيت رائحة المانجو، دكتور جاكوب أستاذ الثقافة الإسلامية في الجامعة رائحة العثَّة، سام رائحة البول، سامية رائحة طلاء الجدران، وأمي رائحة الزنجبيل، وهكذا تحرِّكني ذاكرة شمِّية عجيبة.

(12)

الورقة في يدي تشبه ورقة خريف صفراء

في الطائرة، وأثناء لحظات الانتظار الطويلة في المطارات، رافقني جاك كيرواك وروايته **على الطريق**، كنت مذهولة من هذا الجيل الأميركي، جيل الغضب أو ما يُسمى بالـ Beat Generation، رواية مكتوبة في الخمسينيات، قبل نصف قرن، لكنها دافئة وتنبض حتى الآن، كما لو كان جاك قبل قليل جالساً يتأمل من نافذة منزله في الشارع العشرين في مانهاتن، وقد فرغ للتو من كتابة هذا العالم الحميم الهامشي، بينما زوجته جون تساعده في لصق الأوراق ببعضها، لتتمدد في الصالة على مسافة تزيد عن ثلاثة أمتار، كأن جاك على بعد ثلاثة أمتار يهذي عن رفاقه الشباب، لا أعرف لماذا تخيّلت كيت، وتخيّلت الشباب الذين يضاجعونها كلما عدنا من الملهى، وحتماً يضاجعون غيرها، هل أهدتني هذا الكتاب لتقول لي إن جيل الغضب، جيل «البيت» الأميركي، ما زال حيّاً، إنها غاضبة، هل كانت تشعر بالسخط؟ أتذكر كلما سمعت شيئاً مني عن المرأة السعودية غضبت، ولوت وجهها، وزمّت شفتيها وهي تدمدم: ممل (Boring).

كنت أفكِّر وقد رميت بصري خارج النافذة، أتأمّل نُدَف الغيم الأبيض، وبجواري رجل في يده كتاب، لمحت عنوانه صلاة، حب، أكل في خنصره خاتم فضي، رمقته على عجل، كان أميركيّاً بشعر ذقن بنّي خفيف، كأنني رأيته في فيلم، كأنه سائق شاحنة، في شحمة أذنه اليسرى قرط فضي، ويرتدي قميصاً كحليّاً مقلّماً ثنى أكمامه. استعدت ذكرياتي مع كيت، كيف كانت تراني، وتتخيل جيلي من بنات وطني، كيف يعشن، وهي تعتقد أنني سأتغيّر مثلاً، لأكون مثلها. كانت بسيطة ومنطلقة، ربما ترى أنها حرَّة، تفعل ما تريد، ولا تفكِّر بعاقبة أي شيء، لكنني لست كذلك، لا أستطيع، هذه خطوط حمراء محفورة في وجداني، في طفولتي، يصعب القفز عليها، نحن السعوديات غبيات وساذجات ومستسلمات كما ترى كيت، لكنها لا ترى أنها منفلته وفوضوية المشاعر والعلاقات العابرة. هل الحرية المكتوبة في على الطريق والشعور بلا جدوى العالم، والسقوط في المخدرات والجنس العابر والجنون والصعلكة هي الحرية التي نبحث عنها؟ هل جيل كيت يحيا كما جيل جاك كيرواك، الذي وُلد وفُطم مع الكساد الكبير خلال ثلاثينيات القرن الماضي، وعاش صباه في فوضى الاحتشاد الحربي، ثم وجد نفسه أثناء النضج على خطوط الجبهة في الحرب العالمية الثانية، أي مقارنة بين هذين الجيلَين؟

كنت أفكِّر حيناً، وأنعس حيناً، وأقرأ قليلاً، وأتصفّح المجلة في جيب المقعد.

في مطار فرانكفورت، اتخذت مقعداً جانبياً في مقهى ستاربكس، ورأيتهم، جاك ورفاقه بأعينهم التائهة في صالة الانتظار،

كأنهم يبحثون عن شيء ما، سرت معهم، رافقتهم حتى آخر صفحة، مرة أسير بجوارهم، ومرة خلفهم، وثالثة أمامهم، تمنيت أنهم يسمعونني حين أسألهم: «عمَّ تبحثون؟»، أشير نحوهم، أود أن أمسك بقمصانهم الطائرة، لكنهم لا يكفُّون عن العبث، ولا يرون سوى ذواتهم الضالَّة في أنحاء المطار، وحتى حين صعدوا الطائرة معي إلى الرياض.

ظللت أقرأ طوال الرحلة، أطلب قهوة كل ساعة، ولم يعلن ربط الأحزمة قبيل الوصول، إلّا وقد التهمت الكتاب، وظللت لوهلة أتنفّس بعمق، وأفكر هل لو قرأته وأنا هناك كنت تغيَّرت؟ طيب إذا عدت إلى أميركا بعد شهر من الآن، هل سأعيش جنوناً أميركياً خالصاً في شقتي التي سأستأجرها؟ كنت أهجس، رغم أنني استبعدت ذلك، وإن كنت أتمنى أن أعيش الحياة بشروطي الخاصة.

رغم أن عجوزاً أميركيّاً خلف الممر، لمحته يتلصَّص عليَّ، وأنا أنتشل عباءتي من حقيبة اليد، وأفردها، ثم أضعها على كتفَيّ، وأدسُّ ذراعَيّ في كمَّيها، بعدما لففت حجابي حول رأسي.

بدأت أضواء الرياض تلوح من الأسفل، لونها الأصفر الباهت، وامتدادها الأفقي الكبير، الشوارع الممتدة بسياراتها البطيئة مثل خنافس، العتمة الناعمة الغامضة، والغبار الخفيف الذي يشبه المدينة ويشبهني، الغبار الذي أشمُّه الآن، وأنا في الأعلى.

حطَّت الطائرة، وقبل أن تطفئ محرّكاتها ركضت مع الركّاب كأننا في ماراثون المئة متر. في الخارج كانت الوجوه ذابلة وشهباء، يحدِّقون في المسافرين بخدر وكسل، بعضهم يحمل لافتات أسماء، ويتفقّد المسافرين. لمحت أبي في الطرف، فهرولت نحوه، عانقته

وقبَّلت رأسه، كنت أفتقد رائحة أهلي وناسي، وأنفاس الرياض الرتيبة وهي تتهيّأ للنوم، ملامحها الصامتة، أضواءها الحمراء، ونخيلها الحزين. بعد أن تحركت السيارة خارج المطار، فتحت النافذة وشممت الهواء. سألني أبي عن الحياة والدراسة هناك، لا أعرف لماذا كان يظن أنني لم أجتز موادي، أو أن سفري كان مجرَّد نزوة، أو عناد طفلة، وأنني مللت الغربة، فقبل أن نصل البيت، وفي طريق الأمير ممدوح اكتشفت أنه يظن أنني غيَّرت رأيي، ولن أعود، سألني إن كنت سأعود إلى جامعة الملك سعود، فلما أخبرته أنه لم يتغيَّر شيء، وأنني جئت في إجازة لمدة شهر، انقلب مزاجه فجأة، وغضب وهو يهزُّ سبَّابته بأنني لن أعود مجدداً، إلى درجة تمنيت معها أنني لم آتِ. لم أجادله، ولم أنبس. كنت مرهقة من رحلة مدتها يوم وليلة، وكذلك هو في ذروة انفعاله، فالحوار بيننا لن يجدي أبداً.

كان سيلاً جارفاً طوال الطريق، وكنت حجراً بجواره، كان غاضباً وهو يردِّد بأن القطار سيفوتني، وأن فتيات العائلة الصغيرات تزوجن قبلي، وسأعود بشهادة بلا عمل، وقد أعود خالية اليدين من الشهادة والزوج معاً، مهدِّداً بأنه لن يصرف عليَّ ريالاً واحداً وقتها، ورغم كل هذه العاصفة كنت أنصت برأسٍ يشبه تُرُنجة في مهبّ الريح، يتأرجح فوق مسند السيارة من غلبة التعب والنعاس.

وصلنا البيت، نزلت، وأخرج حقيبتي من الصندوق الخلفي للسيارة، ليضعها أمام الباب دون أن يدخل معي، فتح الباب ومضى. كانت أمي تجلس على عتبة الباب الداخلي، فزَّت وتشبَّثت بي، بينما احتضنت رأسها وأنا أبكي، قبَّلته مراراً، وكذلك جبينها،

ويديها. فجأة صرخت زهرة وهي تقفز من الدرج، وتمسك بخصري بشدّة، ضممت أخوَيّ سعد وحسن. رائحة الهال تملأ الصالة، افتقدت القهوة والتمر، وقطعة براوني ساخنة مع مثلّجات الفانيليا التي أحبها. كنت أشعر أن أمي متعبة، وظننت أنها آلام الروماتيزم فقط، لكنها كشفت لي أن أبي خلال سفري هجرها تماماً، لم يعد كما كان سابقاً، ينام ليلة عندها، وليلة عند فتيحة، وإنما انتقل تماماً هناك، وصار يطمئن فقط كل شهر بالاتصال بأخي سعد:

«لم يعد يكلمني، ولا يرد على رسائلي».

«وماذا فعلتِ؟».

«أبداً، توقفت عن الاتصال والإرسال».

«أمي، فيه سبب واضح؟ صارت مشكلة كبيرة؟».

«فتيحة!».

«ما بها؟».

«سحرته».

تنهَّدت أمي بحزن:

«تغيَّر أبوك كثيراً بسببها، يفتعل أي مشكلة كي يترك البيت».

واسيتها، جذبت رأسها إلى صدري، وجعلت أمسد شعرها، بتُّ أتنهَّد وقد اغرورقت عيناي، صوتها كان حبيساً:

«حتى المدرسة صرت أغيب عنها، مرَّة روماتيزم، ومرَّة حزن، لولا إخوتك وحاجتنا إلى الراتب كنت جلست في البيت».

فضاء البيت كان حزيناً، لم يعد أبي يصرف عليه نهائياً، وأمي تعمل مدرِّسة صباحاً في المدرسة الحكومية، وليلاً في مدارس محو

الأمية، كي تستطيع سداد فواتير المدارس الأهلية لإخوتي، فكَّرت بألا أعود إلى أميركا كي أساعدها، قلت لها سأبقى بجوارك، فهزَّت رأسها بالنفي. كان رأيها واقعيّاً، فلن أجد عملاً بلا شهادة جامعية، بل حتى الجامعيات لم يجدن عملاً، فكيف بمن ليس لديها سوى ثانوية عامة، وبقايا فشل في فصل بجامعة الملك سعود، وفصلين بجامعة جنوب كاليفورنيا، فالفكرة عبثية، والتضحية مجانية لأنني سأفقد مستقبلي، وأبقى بلا عمل، وأصبح عبئاً إضافياً على أمي الحبيبة.

مرَّت إجازتي سريعاً. مرَّت كسربٍ حمامٍ بلدي يكسر شمس العصر فوق بيتنا الحزين. قضيت شهراً مع أهليّ، أسلِّي أمي وأخرج معها إلى العليا مول، وبرج المملكة، أكسر نمطها اليومي، وأغسل وحدتها؛ زارتنا خالتي رفعة وبناتها، وخالتي عزَّة أيضاً. خرجتُ مرة بصحبة سمر وعهود إلى الفيصلية، وتعشينا في ذا غلوب، ومع سامية إلى سنتريا، حيث تطايرت حكاياتنا المسروقة من شرفة المطعم الإيطالي المطلة على العليا، حكت عن الجامعة، وكلية الطب، والزملاء والزميلات، كثيرون تركوا الكلية، وحوّلوا إلى كليات أخرى، خاصة كلية العلوم الطبية المساعدة، تحاشيت أن أسألها عن عبد الإله، وهي بدورها لم تقل شيئاً، لا أعرف إن كان تزوج من ابنة خالته، أم من البنت التي تركني لأجلها، أم ما زال يعبث بمشاعر أخريات.

منذ استقبلني أبي في المطار لم أرَه إلا قبيل سفري، ذهبنا معه أنا وإخوتي إلى مطعم ست بيروت للغداء، قلت له إن السكن الجامعي مخصّص لطالبات السنة الأولى والتحضيرية فقط، وأنا الآن

في السنة الثانية، ولا بدَّ أن أسكن في شقة. كنت ابتكرت هذه الحيلة لأسيِّر أموري ببساطة، قال:

«اسكني عند عائلة!».

لم أتوقَّع هذا الرد، لقد فاجئني، فاضطررت إلى الموافقة، ومن هنا بدأت أفكِّر في صنع عائلة أميركية في مخيلتي، شخصياتها، وحكاياتها المسلِّية، ليكن الأب مثلاً جاكوب مهندس إلكترونيات، والأم كلارا ممرضة في مستشفى، والطفلان دانيل، وسيلينا، هكذا قرَّرت، وفكرت بأن أستغل ذلك جيداً بطلب المزيد من المال كي أساعد في شراء بعض مستلزمات البيت، وأشاركهم الأعباء، فأكون أحد أفراد العائلة، بل أفاجئهم أحياناً بشراء الهدايا في أعياد ميلادهم، وجولات الترفيه مع الطفلين، هكذا شعرت أن كذبتي ستكون جيدة، وتُدرُّ مالاً وفيراً، لكن الأمور لا تسير كما نحلم أو نتوقَّع.

لا أعرف هل نسي موعد سفري أم تجاهله، آملاً بألا أسافر؟ كنت غادرت إلى المطار بصحبة أمي، والورقة الصفراء، الموقَّعة من ولي أمري، والدي العزيز، تلك التي تسمح لي بالسفر إلى الخارج. كثيراً ما أقلِّب هذه الورقة بين يدَيّ، كورقة خريف صفراء، لكنها تنبض بالحياة، كانت بساطاً من ريح، بساط السندباد الذي يتأرجح فوق المدن، يطير متى شاء وأنَّى شاء، يا لها من حياة حرَّة وكريمة. إنها ورقة الحرية والخلاص، فلا يوجد في الحياة كلها، ولا في الأمم، شعور عظيم يستحق النضال مثل الظفر بورقة صفراء تمنح الحرية، فمجرد أن استلمَ الممرّ المؤدّي إلى جسم الطائرة الجاثمة على أرض بلادي، لأعبر نحو مقعدي، أشعر أنني لا أمشي، وإنما أطير!

حينما علم أبي أنني سافرت وحدي، دون أن أراه وأودعه، لم يقل شيئاً، فقط كتب لي: «تبغين تعتمدين على نفسك؟ وتطالبين بحريتك؟ خلاص على راحتك، لن أرسل لك مالاً بعد اليوم، دبري نفسك».

هذا ليس أبي، يشبه أبي لكنه مختلف، ليس الذي عرفته في الطفولة، أحسسته غريباً عندما جلسنا في مطعم ست بيروت، عيناه شاردتان، وفيهما وجل أو قلق، لا أعرف. هل سحرته فتيحة كما تدَّعي أمي؟ أم تراقبه وتغسل رأسه كي يبعد عنَّا أكثر؟ لا أعرف ماذا تفعل به، كيف تقوده، لا أعرف لماذا يفعل بنا ذلك.

(13)

هل كنت أنام أم أطير؟

لأعتمد على نفسي إذاً، ففي بلادي عليَّ أن أدفع ثمناً باهظاً مقابل جناحين، كي أستخدمهما وأحلّق بعيداً، بحثاً عن رزق مخبوء، أفتش من الأعلى عن سمكة صغيرة في محيط، عن حشرة تزحف ببطء وثقة كي ألتقطها، هكذا فعلت مع حياتي الجديدة، فقد كان صعباً أن أستأجر شقة مفروشة بسبب غلاء الأسعار، فقررت استئجار شقة بلا أثاث، أقوم بتأثيثها تدريجياً، كنت أعرف أن أحياء الشمال، والشمال الغربي، جميلة وراقية، لكنها بعيدة جداً عن مقرّ الجامعة في الجنوب، وفي الوقت نفسه الأحياء القريبة من الجامعة، مثل الداون تاون، وكوريا تاون، كانت خطرة، تكثر فيها الجريمة والسرقات، وطالما أنني قررت السكن بمفردي، بعيداً عن سكن الجامعة، عليَّ أن أتحمل غلاء السكن والمواصلات. سألت وفتشت غوغل، ومنتديات الطلاب السعوديين، حتى عثرت على استوديو، مجرَّد صالة صغيرة في ركنها مطبخ، وغرفة مساحتها تسعة أمتار، وحمّام، كانت في ويلشر بوليفارد من جهة الغرب، أعجبني الموقع كثيراً، وقربه من المطاعم وستاربكس وسوبر ماركت رالفس، وكذلك

سوق ذا غروف الذي يبعد ربع ساعة تقريباً بدراجتي الهوائية الجميلة؛ كنت أفكِّر سيكون الموقع أكثر جدوى لو امتلكت سيارة خاصة، لكن هذا مستحيل، فعشرة آلاف دولار يصعب جداً الحصول عليها، خاصة بعدما قرَّر أبي التوقف عن مساعدتي، ومكافأة الملحقية الثقافية تكاد تغطي السكن والعيش بتقشف، لذلك قررت أن أستأجر هذا الاستوديو الصغير، وأستخدم التاكسي، وأوفر بضعة دولارات من مكافأتي لتأثيثه، لكنني لم أتوقع أبداً أن ذلك سيحتاج سنة كاملة، ولم أتخيّل أنني سأنام ستة أشهر على سرير هوائي، ينفخ بمنفاخ خاص، كنت اشتريته بثمانين دولاراً، من سوبر ماركت تراغت، وبعدها استطعت شراء سرير خشبي، وفراش، ولحاف، واستمتعت بالنوم جيداً، خاصة خلال عطل الأسبوع، صحيح أنني سعدت في البداية بالسرير الهوائي المنفوخ، وكنت أشعر أنني أنام فوق منطاد، وأنني أطير، فأرى لوس أنجلوس من الأعلى، أرى ويلشر بوليفارد، والشارع الثالث، وذا غروف، وتمثاله، ومنارته، والباعة، ورؤوس البيوت الصغيرة، يحذفني الهواء غرباً، وأنا فوق سريري الهوائي كأنني سندباد، فأحلِّق فوق سانتا مونيكا، وأرى الشاطئ والناس، كنت أحلم وأنا يقظة، لكنني بعد شهر واحد أدركت أن هذا السرير ملعون، إذ بدأت أشعر بالتعب والإرهاق، فأستيقظ في منتصف الليل قلقة وموجوعة، لأنسلَّ ببطء كقطة، وأغفو بجواره على سجادة صلاتي.

بعد ثلاثة أشهر ادّخرت مبلغاً متواضعاً، اشتريت به أريكة خضراء، وطاولة تلفزيون من آيكيا، وماكينة قهوة أميركية، ومايكروويف، ومكواة، فأصبح بيتي الصغير جنة، بجانب أغراضي

السابقة من تلفزيون ودي في دي وغيرها من تلك التي جلبتها معي من سكن الجامعة.

كنت أتصل بأمي لأطمئن عليها، فتبثُّ لي آلامها التي لا تنتهي، روماتيزم، وعمل طويل مرهق، ومكائد زميلات، وزوج مهمِل؛ أما أبي فلم يجب عن رسائلي أول ما وصلت، لكنه بعد أيام صار يستجيب، ويطمئن على أموري، ويسأل عن العائلة التي أقيم معها، فصرت أسكب في بريده الإلكتروني قصصاً مختلقة، عن عائلة في رأسي، عن جاكوب الأب، وكلارا الأم، وفي رسالة آخر أكتب له عن صداقتي للطفلَين الجميلَين دانيل وسيلينا، ثم في رسالة ثالثة أخترع له حكاية عن كلبهم الأبيض الجميل، وكيف يتعاملون معه برفق وحنان، وكيف أغطي غياب كلارا حينما تكون عندها وردية ليل في المستشفى، فأعتني بالصغيرين، وكيف أساعد خلال العطل الأسبوعية، فأخرج بالكلب كي يتمشّى ويتشمّس، كانت أكاذيبي لا تنتهي، حتى إنني أنسى وأصدقها أيضاً، وهو بالطبع يصدّق ذلك، ويبدأ يتعاطف معي ويرسل مالاً من وقت إلى آخر، وأصبحت أستمتع بالحياة، وأنطلق أكثر، أفطر أحياناً في آي هوب، وأقضي المساء في ستاربكس أذاكر وأكتب واجباتي، وأتجوّل أحياناً في ذا غروف، فأشتري بلوزة جديدة أو بنطالاً أو حذاءً رياضياً.

لم أعرف من قبل أن الكذب يحقّق أحلامنا، لقد أتقنت الكذب رغماً عني، فالحاجة جعلتني كذوب ومراوغة، حتى إنني حينما أملّ من مشاهدة التلفزيون، وبينما أستعد للخروج، ألتقط اللابتوب وأنا أهمس له: تعال يا كلبي الصغير، أحمله معي كما لو كان كلباً رقيقاً ونظيفاً، وأصيح خارجة: باي جاك... حتى أنني أسمع صراخ

الطفلين وهما يستجديان للخروج معي في جولة تمشية الكلب، لكنني أتجاهل استجداءهما، وأمضي في شارع ويلشر بوليفارد، وأتخذ مقعداً خارجياً تحت مظلة خضراء، فأنهمك في قراءاتي ناسية الكلب العزيز راقداً فوق الطاولة!

وحين أعود أمر بجانب بلاك دوغ كافيه، فأبتسم وأنا أتخيل أن كلبي الأبيض الجميل دخل في عراك مع الكلب الأسود في هذا المقهى، وربما لن يعود معي إلى الشقة، لكن ذلك لا يهم، سأخترع لأبي قصصاً جديدة، عن حفلات عيد الميلاد، وعن الضيوف الذين حضروا، أحدهم ابتهج حينما عرف أنني من السعودية، فحكى لي أنه عمل قديماً جداً في رأس تنورة، وسألني عن بلادي كيف أصبحت، وهكذا راق لي تأليف القصص والحكايات المسلّية.

كنت أرفرف فرحاً بشقتي الصغيرة، وشعوري لأول مرة بحياة حرَّة رائعة، لدرجة أنني رغم التعب بالذهاب إلى تراغت على بعد محطتين بالقطار، ومن ثم المشي حاملة أغراضي، إلا أنني لم أشعر بالتعب، وكذلك حينما التقطت تاكسي إلى الجامعة، واستلمت أغراضي من المستودع في السكن، ومن حسن الحظ أن هناك مطبخاً موجوداً في الشقة، أضفت إليه المايكروويف فقط، ثم اتصلت بشركة كومكاست لشراء «كيبل بوكس»، والاشتراك بالقنوات الفضائية مقابل أربعين دولاراً، وبالإنترنت مقابل عشرين دولاراً شهرياً؛ هذه الأشياء كانت مجاناً في السكن، لكن حريتي وراحتي في شقة مستقلة تستحق هذه التضحيات، وأكثر.

(14)

السقف الذي تحوَّل إلى خارطة!

أتذكَّر أنني لم أنم بسهولة في الليلة الأولى، فانقلبت سعادتي إلى خوف، إذ لم أجرِّب الوحدة والصمت، مع أنني تعرَّفت إلى جارتي جولي، وزوجها مهندس الإلكترونيات جيمس، وزهراتهما الثلاث، جاسيكا وإيمي وإيفا. وشاركتهم أعياد ميلاد بناتهما الجميلات، وفاجأتهنّ بالهدايا، خاصة إيفا الصغيرة.

في اليوم التالي، قررتُ أن أستضيف كائناً يؤنس وحدتي، فجلبت قطة صغيرة، بفراء أبيض ناصع، وبعينين خضراوين، دخلت الشقة بحذر، في البدء كانت تحدِّق بالجدران، وبالطاولة، والكتب، ثم ما لبثت أن شعرت بالألفة، وصارت تقفز فوق الأريكة، وتنام في حضني، ومع الوقت أدركَت أن الصالة هي غرفتها الخاصة.

في أول تجربة ذهاب إلى الجامعة تعبت، اكتشفت أن الطريق طويل، واستخدام سيارات الأجرة سيرهق ميزانيتي، ماذا لو جرَّبت مع أبي، وقد صار أكثر قرباً، واخترت وقتاً مناسباً لأطلب منه مبلغاً أشتري به سيارة؟ فكَّرت طويلاً في الأمر حتى هاتفته ذات صباح سبت، كان الوقت عنده مساءً، سألني عن العائلة، وغرفتي،

والمنزل، أخبرته أن المنزل جميل، وفي منطقة آمنة وراقية لكنها للأسف بعيدة عن الجامعة، وتعبت من التنقُّل في المترو وسيارات الأجرة.

«طيب؟»، تساءل.

«أحتاج مبلغاً لشراء سيارة».

فاجأني أنه لم يعترض كالعادة، بل تفهَّم ذلك، وأرسل بعد أسبوع ثمانية آلاف دولار، كانت ثروة جاءت في وقتها، لكنني لا أعرف كيف أقود سيارة، وليس لدي رخصة، ولا أعرف أحداً يدرِّبني على ذلك. قررت إيداع المبلغ في حساب ادّخاري، لئلا أصرفه، وأيضاً لأحصل منه على عوائد قليلة، تسعفني أحياناً.

ذات صباح معتدل لا ينذر بشيء، صباح سبت ينشر شمساً باردة كالصباحات الفائتة، كنت أرتدي بلوزة قطنية مكتوب عليها من الأمام USC، وبنطلون جينز أزرق غامق ماركة «بلو جينز». أقود دراجتي، وفي أذني سماعتَي الآيبود، وأغني بصوت عالٍ مع محمد حماقي، أردد معه: «عارفة أحلى حاجة فيكي أيه»، كنت أهز برأسي وأغني، في طريق ويلشر باتجاه الغرب، وما إن وقفت عند إشارة ستاربكس لأجتاز شارع هاوزر باتجاه مطعم آي هوب، حتى سمعت لغة تشبهني، لها رائحة أهلي: «انتبهي للسيارات» فالتفت وإذا بجواري شاب، بقميص سماوي وجينز أزرق، كانت هذه أول مرة أصادف شاباً سعودياً، يبدو أن السعوديين يقطنون هذه المنطقة، أكَّد قائلاً: «لازم تنتبهي للطريق، ترى أنتِ تغنين ولاهية عن الطريق»، ابتسمت: «لا تخاف عليَّ، أسمع وأغني وأشوف الطريق». سألني: «الأخت سعودية؟». أردت أن أكذب لكن اللحظة لم تسعفني.

هززت رأسي بالموافقة. قال: «اسمي هشام، وأنتِ؟»، أخبرته باسمي فأجاب: «والنعم». ثم أشار نحو الحروف الأولى على قميصي: «تدرسين بالجامعة؟»، أجبت: «نعم». هزَّ رأسه متعجِّباً، كيف لم يرَني من قبل، قلت له إنني سكنت هنا مؤخراً، كنت في سكن الجامعة خلال عام. قال: «حتى لو، كثير زميلات سعوديات نقابلهم وهم في سكن الجامعات»، ابتسمت: «أنا جئت للدراسة، وأحب أقضي وقتي أتعلم أشياء جديدة»، ابتسم مؤيداً، وأنني بعد عام لا بدَّ أن أعرف السعوديات هنا: «هن سند لك في الغربة». طلب رقم جوالي ليعرِّفني إلى طالبات سعوديات في لوس أنجلوس، فشعرت بالحرج وهو يفتح شاشة جواله، ودعني وهو يقول: «اللّه يحفظك، انتبهي لطريقك».

كان طويلاً، عيناه سوداوان وعميقتان، وشاربه خفيف جداً، وشعر رأسه مقصوص بعناية، في معصم يده اليسرى ربطة زرقاء، كان بسيطاً وعفويّاً، أعجبتني روحه المنطلقة، لكنني بالطبع لا أفكِّر بعلاقة مع سعودي، لقد جئت هنا لأحقّق حلمي، لا أن أتورّط بعلاقات فارغة وحمقاء.

كنت أفكر طول الطريق، هل خوفي من الآخرين طبيعي، بالذات السعوديون هنا، هل أخشى العلاقات معهم، أم ابتزازهم، هل كلهم سيّئون؟ هل تجربة حب فاشلة تعني أنهم مخادعون؟ لم أشعر بطول الطريق، مضت نصف ساعة، تجاوزت فيها عدة شوارع حتى انعطفت يساراً في شارع وست جيفرسون بوليفارد المؤدّي إلى الجامعة، كنت أظن أن هشاماً سيتصل بي بعد أيام، لكنه فاجأني في مساء اليوم ذاته، وهو يتصل ويطمئن عليَّ، ويحكي عن الجامعة

والحياة هنا، وقبل أن ينهي المكالمة قال إنه يجلس في ستاربكس تقاطع ويلشر مع هاوزر، حيث جمعتنا تلك الصدفة: «تعالي خذي قهوة معي، ونكمل حكي»؛ اعتذرت، وتحجّجت بأن لديَّ ورقة بحث سأقدمها في الغد، ربما لم يقتنع حين اختتم: «عموماً لا تخافي، أنا أخوك وسندك هنا».

في اليوم التالي اتصل بعد الظهر، وسأل عن ورقتي، ثم باغتني وهو يدعوني للعشاء والسينما، صحبة ابن عمه زياد: «هذه المرة لن تعتذري، لازم تكافئي نفسك عن شغلك البارحة». وافقت على العشاء، واعتذرت عن السينما: «عندي محاضرة الصبح بدري، ضروري أنام باكراً». ارتبكت حينما طلب عنوان سكني كي يأخذني بسيارته، ظننته سيقترح مطعماً نلتقي فيه، لم أفكر أنني سأركب سيارة مع شاب سعودي لم أقابله إلّا صباح الأمس. ضحكت وأجبت متردِّدة: «عادي، ممكن تخبرني أي مطعم، وأجيء». أجاب: «مستحيل، واللّه ما تجي كذا أبداً، أعطيني العنوان رجاءً». تداركت الأمر: «سأرسل لك العنوان على الجوال».

أقفلت الخط، وفكَّرت، لن أركب سيارة شاب سعودي فحسب، وإنما سيعرف أين أقيم، وقد أتورّط معه، أو يؤذيني، لو كان من جنسية أخرى سيكون الأمر سهلاً، وأكثر أماناً. قلت: «يا رشا حتى لو ركبتِ معه، على الأقل لا يعرف عنوان الشقة»، فتحت خرائط غوغل، وصرت أبحث عن أقرب فندق من سكني، حتى عثرت على كمبتون هوتيل ويلشر، الذي يبعد تقريباً ربع ساعة على الأقدام، أرسلت له العنوان، وكتبت له أنني سأنتظره في الخارج بعد نصف ساعة. لبست على عجل، وسبقته هناك. كنت قلقة، وقلبي

يشبه اضطراب هذا السعف العالي. كنتُ أحدِّق في النخل والمارَّة حين توقفت أمامي سيارة فورد صغيرة، كان هشام يصيح بي، هرعت وركبت في الخلف، حيث يجلس بجواره شاب التفت حينما هرولت، لكنه لم يلتفت نحوي. سألني هشام بذكاء: «كيف ساكنة في أوتيل، وتدرسين بالجامعة؟» أجبت: «لا، كنت أزور صديقة هنا». واضح أنها كذبة، لكنه تجاوزها ولم يتوقف عندها طويلاً، كنت مضطرة إلى الكذب هذه المرّة كي أحمي نفسي، فبناء سور عالٍ من الكذب المتقن نافع أحياناً، ولولا ذلك لأصبحت في عرف الشباب فتاة سهلة، وربما ساذجة وغبية في نظرهم.

كان هشام يثرثر طوال الطريق، وهو يطالعني في المرآة أمامه، بينما الجالس بجواره لا أكاد أسمع صوته أو تعليقاته: «آه، نسيت ما عرفتك على زياد». قال ثم عرَّف باسمينا، فتكرَّم زياد، والتفت نحوي مبتسماً: «تشرَّفنا» قال، ابتسمت وقلت متلعثمة: «أهلاً». ملامحه نجدية، أنفه محدودب قليلاً، وبلا شارب ولا لحية.

كنتُ أرمقه خطفةً كلما سقط ضوء الشارع الأحمر فوق وجهه، لم يكن يحكي، وإن حكى لا يلتفت، بل يتكلَّم أحياناً بعينَيه، وحين يلتفت يستدير ببطء، فلا يدير رأسه مثلنا، وإنما جذعه كاملاً، يرفع حاجبيه باستمرار، لا أعرف هل هو متكبِّر، أم هي طبيعته، هل يفهمه هشام من تعابير وجهه فقط، أو من ردوده المقتضبة، لا أعرف.

جلسنا حول طاولة في مطعم ياباني راقٍ، اسمه نوبو في الشمال الغربي، لديه سلطات رائعة، وسوشي لذيذ. أمامي شابان من بلادي يحكيان لغتي وهمومي، تحدّثنا عن الرياض والأهل، كنت أتحفَّظ في أشياء كثيرة، خاصة فيما يتعلّق بأهلي، عرفت لأول مرة أن ثمَّة

سعوديات في هذه المدينة، يدرسن في جامعات مختلفة، رغم أنني لم ألتقِ بأي منهنّ، سواء داخل الجامعة أو في الأماكن العامة، قال لي هشام إنه يعرف طالبة سعودية تقيم معي في سكن الجامعة، لكن الوحدات السكنية كثيرة، وليس سهلاً لقاء الآخرين فيها والتعرّف إليهم.

كانا يجلسان أمامي، كنت خجلة أن آكل أمام شابَّين غريبَين، مع أنني أحاول أن أظهر عكس ذلك، كنت أرى كيف تتلصص عينا زياد نحوي، حين ألتقط المملحة أو أغمس السوشي في صوص الصويا، لكنني لا أعرف هل يظهر عليَّ أي ارتباك حين يتحدث نحوي مباشرة، خاصة حينما أجاب عن سؤالي ما إذا كانا يعرفان شخصاً يبيع سيارات مستعملة، وتحدّث نحوي مباشرة، أصبحت عيناه الذابلتان تضربان صفحة وجهي، مثل طيور جارحة، تتجولان بحرية في غيم شعري، قال لي إن هناك تاجراً (Dealer) أردنياً، لديه معرض سيارات مستعملة، ويمكن أن يساعدني في هذا الأمر، وتدخَّل هشام: «وأنا مستعد أعلّمك السواقة»، لم أجب، فقط ابتسمت بخفر.

كانا يسألانني ما إذا دخلت مونتي بار، أو مونتي كريستو، كنت أنفي معرفتي بهما، وأنني لم أدخلهما قط، ولا أي بارات وملاهٍ ليلية، صحيح أنني جربت هذه الأشياء مع شريكتي في الغرفة، كيت ورفاقها، لكن لن أعترف بهذه التجارب أمام سعوديين، وخصوصاً أن أسئلتهم تلك تخفي محاولة اكتشاف شخصيتي، لكنني كنتُ لهما بالمرصاد، فأنا رشا بنت سعيد، أعرف الحيل جيداً، أحتمي منها بالمراوغة، ولا أقول الصدق دائماً، فهل أنا نفسية؟ لا طبعاً، لكنني كما تحدّثوا معي عن الأخريات، سيتحدّثون عني أمام الآخرين.

حينما أعادني هشام وابن عمه إلى الفندق، دخلت لدقائق، ثم خرجت أتلفّت كلصّ، للتأكد أنهما غادرا فعلاً، هرولت نحو شقتي وأنا أسأل نفسي: «ماذا لو كانا شريرَين فعلاً، وقد كمنا لي من بعيد، وراقبا أي مبنى أدخل، ماذا لو خططا لمعرفة عنوان شقتي؟».

حينما أغلقت باب الشقة خلفي، جاءت قطتي سوسي نحوي تتمسح بساقي، كنت واجمةً أفكّر في هشام وزياد، وقد قالا لي إننا سنلتقي مع بنات سعوديات، ورغم فرحي بأنني قضيت ليلة جميلة مع رائحة البلاد، إلّا أن القلق يساورني، ففي قمة سعادتي انقلب مزاجي إلى حزن وسوداوية، وأنا أسأل نفسي، لماذا يخرج معي هشام وزياد؟ معقول صداقة فقط؟ أم يفكران بجسدي؟ هل ينويان لي الخير، أم يبحثان عن المتعة؟ تعلمنا في بيتنا ألّا نثق بالغرباء، والرجل لا يمكن أن يكون صديقاً، تعلمنا منذ الطفولة أن الرجال ذئاب بشرية. كنت أفكر وصراخ أحد الأشرطة الإسلامية الذي كانت تضعه لنا مدرسة التوحيد في الصف السادس، يعلو مصحوباً بالصدى: احذري الذئاب البشرية؛ ويتردد الصدى: ذئاااااب ااب بشرية شرية ية. كنت أسمع الصدى العنيف يقرع جمجمتي الصغيرة، بينما وجه عبد الإله يتراءى أمامي بعينَين ذئبيتَين، ثم يتقاطع معه وجه هشام، ويخطف بعده زياد بأنياب حادّة وشعر كثيف، وعينَين لامعتَين، حتى صرخت فجأة: بس، بس، ففزعت قطتي سوسي، وهربت إلى المطبخ: بس خلاص لن أخرج معهما، ولن أقابل أحداً، سأعيش وحدي، ولن يستغلّني أحد.

انهرتُ على الأريكة وأنا ألهث كما لو ركضت مسافة طويلة. جعلت أتأمل السقف، السقف الذي تحوَّل لوهلة إلى خارطة، رفعت

إصبعي الذي استطال، وأدرت كرة الأرض، حتى استقرت على شبه الجزيرة العربية، ضغطتُ على الرياض، ثم السليمانية، فبيتنا الجميل الذي تظهر أشجار الجهنمية من أسواره، فتحت على غرفتي، كانت الخادمة تنظِّف الستائر والنوافذ، وترصد الشارع من نافذتي، ثم ترفع يدها، كأنها تحيي أحداً في الخارج، ربما أحد الهنود العابرين، أو عامل النظافة صباحاً، بحثت عن أمي فلم أجدها، ربما في المدرسة، كان البيت فارغاً إلّا من حنيني.

نهضتُ. فتحت الثلاجة. التقطتُ قارورة ماء وأنا أفكر، لماذا يحاصرني هذا الخوف، لماذا لا يلاحقني القلق والتناقض حين كنت أخرج مع الأميركيين، لماذا لا يكونون هم أيضاً ذئاباً بشرية؟ أم أن صورة الذئب البشري ارتبطت في ذهني، ومنذ الطفولة، برجل ثوبه أصفر وعفن، وشماغه متسخ، ونعله زبيري، وله سنٌّ علوية وحيدة؟ حتماً هو ليس رجلاً وسيماً، شعره أشقر، مفتول العضلات، يفتح لي الباب مبتسماً كي أعبر قبله.

جعلت أستعيد ذكريات العام الفائت مع صديقاتي الأميركيات، لم أجد بينهنّ من اشتكت من الرجل، ومن ولاية الرجل، من البلد وأنظمته، ومن الزمن، ربما لأن الأميركي يخشى القانون، وأن ترفع عليه قضية، تحاكمه، حتى كيت التي نامت مع أشكال من الرجال لم تخشَ أن يهددها أحدهم بنشر صورها مثلاً، ثم أطلقتُ ضحكة مجنونة، وقد تخفّفت من الحزن، وأنا أهمس لنفسي: يا هبله كيف يهددها أحد بنشر صورها، وهي أصلاً منزلة صورتها بالبكيني في حسابها بفيسبوك؟ وأبوها معلّق عليها «نايس بكتشر كيت»!

تنهَّدتُ وأنا أضع ماء في الغلاية، كم حياتهم بسيطة وسهلة،

بينما مثل هذين الشابَّين يستطيع أحدهما أن يجعل فتاة بريئة خاتماً في إصبعه، يديره كيف يشاء، فقط حينما يقول لها: أعلِم أهلك، أنشر صورتك، أوزّع رقم جوالك، وهكذا تمضي حياتنا في دوامة من التهديد المستمر.

سكبتُ الماء في كأس الشاي، وبينما أهزُّ خيط كيس الشاي الصغير، تعالى صوت عميق يحرِّضني بأن أتصل بهشام، أطلب منه ألا يمر عليّ يوم السبت للقاء السعوديات كما اتفقنا. ابتسمت وأنا أرمي كيس الشاي في النفاية، يا مجنونة لو اتصلتِ فيه الآن، وفي هذا التوقيت، الثالثة والنصف فجراً، لجزم أنك تنتظرين مكالمة خاصة، وربما مكالمة جنسية في هذه الساعة المتأخّرة، جلستُ أرتشف الشاي بعدما قررت تأجيل الاتصال به حتى الغد.

في الصباح قرَّرت أن أذهب بسيارة أجرة، لم أكن أريد أن أقابل هشام مرة أخرى، لكنه لم ينتظرني طويلاً، فلم أكد أذهب ظهراً لمقهى كوفي بين في الجامعة، حتى اتّصل وأخبرني أن البنات السعوديات سيجتمعن في منزل عائشة، وهي متزوجة: «قلت لها إنك ستحضرين». ثم أضاف: «أمر عليك الساعة ثمان عند الفندق، كوني جاهزة». لفتت انتباهي تلقائيته، وبساطته في الحديث، خاصة وهو يكرِّر: «وأنا أخوك»، ما جعلني أطمئن أكثر؛ كم كان فطناً، وهو يقول إنه سيمرّ بي عند الفندق، دون أن يسألني أين يأتي، لقد أدرك تحفّظي على مقرّ سكني؛ كم احترمت ذلك فيه، وتفهّمه لموقفي.

عند الثالثة عصراً خرجت من الجامعة، وذهبت إلى سوق ذا غروف، لشراء ملابس جديدة، فلا يعقل أن أقابل بنات من بلدي دون أن أكون في كامل أناقتي، مررت بأكثر من محل ملابس، ثم

اشتريت من محل أنثروبولوجي بلوزة بنِّية غامقة، وبنطالاً قماشياً رملي اللون، واضطررت لشراء معطف فرو، بسبب برودة الطقس ليلاً، ثم مررت سريعاً بمحل سيس كانديس وأخذت علبة شوكولا هدية لصاحبة المنزل التي لم أرَها بعد، لكنني أخجل أن أدخل بيتها لأول مرة بيدَين خاليتَين، هكذا تعلَّمت.

عدت إلى شقتي عند الخامسة، بدَّلت ملابسي، وتحمّمت، وانسللت إلى فراشي بعد أن أفسحت لي قطتي سوسي، وضعت المنبّه على السابعة، وغفوت قليلاً، ثم استيقظت كالعادة قبل تنبيه الجوال، وجلست أمام المرآة، سرَّحت شعري الطويل، ووضعت مكياجاً خفيفاً، ثم ارتديت ملابسي الجديدة، شعرت أنني امرأة أنيقة فعلاً.

هرولتُ مسرعة نحو كمبتون هوتيل ويلشر، وتوقفت أمام بوابته، أستردّ أنفاسي لوهلة، ثم أتأمل النخلات الأميركيات الثلاث، وكل فينة ألتفت يميناً ناحية ماكدونالدز، حيث أتوقّع مجيء سيارته، لم تمضِ خمس دقائق حتى توقف أمامي مبتسماً، سارعت وركبت بجواره، كان أنيقاً، بقميص أبيض، وبنطال أسود، وجاكيت أسود، سار وهو يبتسم سعيداً: «ها؟ كيف لبسي؟».

ابتسمت بخجل:

«كيوت».

«بس كيوت؟».

«ايه».

قهقه بصخب:

«صدق أنك ما تجاملين أبداً».

ثم أضاف:

«اسمعي، سأتركك في بيت عايشه، وسأسهر في كلوب، تعرفي الليلة ويكند، وبعدين أمر عليك ثلاث الفجر، ويمكن أكون شارب على خفيف، بس ما عليك، ما أسكر، وأعرف أسوق وأنا شارب...».

انصدمت فعلاً، وأصبت بخيبة كبيرة. سكت لوهلة أتأمل صراعاً بين شخصيتَين بداخلي، إحداهما تقول كم هو بسيط وواضح، وربما على نياته، والأخرى تقول إنه لعين، يرمي سنارته أمامي، كي يكتشف ردّة فعلي، وما إذا كنت أقبل بذلك، وربما لمحاولة معرفة إن كنت أشرب مثلاً... كنت لوهلة أحاول فكّ العراك بين هاتين الشخصيتين بداخلي، حتى باغتني:

«ليه ساكتة، اتفقنا؟ يضايقك أني أشرب؟ خلاص يا ستي ما راح أشرب، وأجي مصحصح!».

قلت بحزم:

«لا، أصلاً أنا برجع بتاكسي!».

رفع حاجبيه:

«خير؟ مستحيل أخليك ترجعين الفجر وحدك بتاكسي!».

أجبت بثقة:

«أنا صار لي سنة هنا، أروح وأجي وحدي».

قال حاسماً الأمر:

«عيب عليك يا رشا، ما راح ترجعي وحدك، انسي، أنا هنا أخوك وسندك».

وافقت، ولا أعرف كيف وافقت، ربما لأن ملامح هشام

الطفولية، وكلامه الأخوي، يبعث الطمأنينة، لكنه نسف تلك الطمأنينة، بعباراته الأخيرة قبل أن أنزل من سيارته:

«اسمعي، لا تعلّمي البنات إني أشرب!».

هنا طار كل الهدوء، وتبخَّرت الضمانات التي بعثها الكائن المطمئن في داخلي، كيف لا أخبرهنّ، ولماذا أنا بالذات من بينهنّ أعرف ذلك؟ كيف لا يعرفن أنه يشرب وهو يعرفهنّ منذ مجيئه، ثمانية أشهر، بينما يبوح لي بذلك وهو لم يعرفني إلّا منذ يومين؟ لم أحبس أسئلتي القلقة، بل بادرته بجرأة:

«طيب ليه ما يعرفون، وأنت تعرفهم قبلي؟».

«يا بنت الحلال هنّ مطوّعات، كلهنّ متحجبات!».

تغيَّر لوني فجأة، اللعنة على هذا المجنون، كيف أصادق مطوّعات؟ هل أدخل عليهنّ هكذا بشعري الحر، وهنّ جميعهنّ محجبات؟ ماذا ستكون ردَّة فعلهنّ، لا أعرف ماذا قلت لهشام عندها، لكنني كنت أشعر بغيظ من تصرّفاته الغبية، وعدم تقديره للأمور، ومع ذلك كان يبسّط الحياة بطريقة مقنعة:

«أنتِ في أميركا يا رشا، امشي مع الجميع، وصادقي من تريدين، لا أحد يفرض وصايته عليك، صدقيني!».

منذ أن تورّطت مع هذا الأحمق، حين صادفني أغني مع محمد حماقي بصوتٍ عالٍ، وأنا أسير معه مغمضة، يعبث بعقلي كما يشاء، يقنعني أحياناً، ويضحكني أحياناً أخرى.

وقفت أمام جرس الباب مترددة، هل فعلاً عرَّف بي هذا الأحمق بطريقة جيدة؟ أم سأتورط في هذه الشقة المجهولة؟ وقفت لوهلة، وأنا أحمل بين يدي علبة الشوكولا، ضغطت الجرس، ولم

تمضِ دقيقة حتى انفرج الباب عن أربعينية، عيناها واسعتان، وشعرها قصير، ترتدي تنورة «أوف وايت» مزيَّنة بورود كبيرة صفراء كامدة، وبلوزة سماوية، وتعلو وجهها ابتسامة صافية، وهي ترحّب بي، كانت عائشة التي هاتفها هشام، حجازية جاءت مع زوجها الذي يدرس الدكتوراه، ومعها ابنتيها مروة ومرام، قادتني بحب وحنان إلى الصالة، حيث صديقاتها، أبرار وشقيقتها أحلام من الخبر، ابتعثن لدراسة الماجستير، وهنّ في مرحلة دراسة اللغة الآن؛ وأفنان من الرياض لم تكفّ طوال الجلسة عن النصائح الدينية، كانت تمثّل الهيئة الدينية في لوس أنجلوس، تدرس الماجستير ويرافقها أخوها الذي يصغرها بخمس سنوات، ويدرس لغة، وعرفت فيما بعد أنه يرتكب كل المجون دون أن تعرف أخته الموقرة. حنان من المدينة محجبة أمامهم، وتقيم في السكن الداخلي لجامعة كاليفورنيا نورث ريدج، ولديها عشيق في ولاية أخرى، يزورها بين الفينة والأخرى. نسرين من الرياض، وتقيم أيضاً في السكن الداخلي لجامعة نورث ريدج، لأنها مثل حنان، ليس لديهما محرم، نسرين تدرس بكالوريوس قانون، تعشق الطبخ وتعرف جميع المطاعم في لوس أنجلوس وسانتا مونيكا، وسانتا باربرا، وأرفاين، وسان فرانسيسكو، ومعظم مطاعم الولاية مرَّت عليها مع حبيبها، ليست محجبة إلّا إذا خرجت بصحبتهنّ، وسيخبرني هشام لاحقاً عن حبيبها الموظف في واشنطن، الذي رتّب أمورها الدراسية والمالية، لتحصل على راتبها وراتب المحرم، أخوها الذي جاء معها في البداية ثم عاد إلى البلاد، وبقيت تحصل على راتبَين معاً.

كانت الجلسة مسلّية، مليئة بالحكايات والضحكات، أحببت

ابنتَيّ عائشة، وانسجمت في الجلسة رغم تحفظي، وخصوصاً أنني أقابلهنّ لأول مرة، ورغم سعادتي وافتقادي لبنات البلد، إلّا أنني تذمرت من أفنان التي تفرَّغت تسألني: لماذا لا أتحجب، كنت أتماسك رغم غيظي وتوتري الذي يظهر على ملامحي رغماً عني، ثم تطلق أوهاماً غريبة: «على فكرة، الغرب لن يحترمك لأنك لم تطبقي تعاليم دينك، ثم أنك فتنة، شعرك طويل ويجذب الرجال، على الأقل اربطيه». لقد أشعرتني أنني ملكة جمال، وأن العالم يتهافت عليَّ!

كنت كعادتي أجامل، وأردّد: «إن شاء اللّه»، «جزاك اللّه خير» و«ابشري» بينما الشخص الآخر في داخلي يقمعها: «ما هو شغلك؟»، «أقول انقلعي عن خلقتي»، وكنت أخشى أن تزداد سطوة الآخر وشيطنته بداخلي ويعلو صوته، فتنقلب الجلسة رأساً على عقب، مع أن عائشة وابنتيها الجميلتين كنَّ في منتهى اللطف والاحترام.

قبل أن أخرج، همست لي نسرين بأنها ستذهب معنا، كي يوصلها هشام إلى شقتها، ارتبكت وأنا أهزُّ رأسي بالموافقة، وبينما أودّع البنات، صرت أكتب له رسالة أن نسرين ستأتي معنا. أجاب: «عادي، بس لا تقولي لها أني رحت كلوب!»، أجبت برسالة أخرى: «أخاف تلاحظ شكلك»، فكتب لي: «لا تقلقي، ما يبين عليَّ أي شيء». لا أعرف هل لاحظت نسرين، أو البنات، مدى ارتباكي، وأنا أكتب الرسائل بوجه ممتقع؟ فمنذ طفولتي لم أستطع أبداً التخلُّص من مشكلة ملامحي التي تكشف حالتي، فرحي وحزني، هدوئي وارتباكي، غضبي وانفعالي، كل شيء قد يكتشفه

الآخرون ببساطة من خلال ملامحي، ما عدا كذبي الذي أتقنته جيداً في السنوات الأخيرة.

خرجنا، أنا ونسرين، كنت أسبقها بخطوات، لأصعد في المقعد المجاور لهشام، لئلا تلتقط شيئاً من تصرفاته، بينما ركبت هي في المقعد الخلفي؛ لم يتغيّر هشام كثيراً، فقط كان أقل رسمية، يحكي ويضحك بسعادة، ولحسن الحظ لم تكن شقة نسرين بعيدة، حينما أصبحنا وحدنا ظلَّ يحكي لي عن البنات في الملهى الليلي، كيف راقصهنّ، ورقَّم بعضهنّ، كنت أفكِّر لماذا يتحدّث معي بهذا الوضوح كما لو كنت صديقه، ولماذا أستمتع بحكاياته ونكاته، ولا أغار عليه مطلقاً، لم أتخيَّل أبداً أن أصادق شاباً، دون علاقة حبّ، أو حتى شكّ بأن الأمر سينتهي إلى السرير، لكن الحكم ما زال باكراً، من يدري، فقد يدور في خلده ما يخبئه عنّي، ولعلّ أجمل ما في هشام أنه يُضحكني بجنون دون قصد، هو لا يفتعل ذلك، لكن تصرفاته وتعابيره تجلب الضحك، كان طول الطريق لا يتوقف عن النكات والسخرية العذبة. أخبرته بعنوان الشقة، فضحك:

«أخيراً وثقتِ بي؟».

«هه ليست ثقة، يمكن لأنك فاقد، وبكرة تنسى!».

«لا ما عليك، أذكر كل شيء، حتى حليب أمي ما أنساه!».

«أجل غيَّرت رأيي، رجعني الفندق»، قلتها ضاحكة.

«هه بعد أيش، خلاص عرفت العنوان».

«واللّه شكلك خبيث يا هشام».

«يا معودة، أنا وين والخبث وين!».

لفتت انتباهي كلمته «معودة» وسألته من أين أتى بها، توقّعت أن

عنده صديقة كويتية، لكنه أخبرني أن أمه بحرينية، وقال ضاحكاً إنه ضائع بين اللهجتَين، مرة يسأل: «وينتس» ومرة: «وينج»، فمرة يرضي أباه، ومرة أمه.

وصلنا شقتي، نزلت ولم يتحرّك بسيارته إلا حين دخلت، ولوَّحت له بيدي، فمضى. هذه المرة كنت سعيدة، ولم أبكِ كالمرة السابقة، بل شعرت أنني اكتسبت صديقاً محترماً وموثوقاً.

(15)

ظلال العابرين تدهسها السيارات والحافلات!

في اليوم التالي، رنَّ هشام عند الظهيرة، كنت ما زلت على سريري، لا أعرف متى نام وقد قضى الليل في صخب ورقص وشرب حتى الفجر، ولعلّ طريقته في الإيقاظ مفجعة: «نايمة للحين؟ بسرعة اصحي». كأن لديه خبراً لا يُؤجل، سألته بخدر: «ليه؟»، أجاب: «نطلع الجبل». «أي جبل اللّه يهديك، صاحي ولا مجنون؟ أنا وين وقمة الجبل وين؟ بعدين ما عندي لياقة أصلاً».

حسم الأمر هذا المتهوِّر وهو يلقي أوامره: «اسمعي رشا، بلا كسل، قومي البسي طقم رياضة، وشوز مريح، ومطارة مويه»، ثم أضاف: «بمر ستاربكس وأجيب لك معي فطور».

قاطعته: «من وين أجيب مطارة مويه؟ شايفني في ثالث ابتدائي».

ضحك: «يعني بحياتك ما رحتِ جيم، ما سجلتِ في نادي أبداً؟».

أجبت: «ليه أروح؟ أنا ما أحتاج عضلات مثلك».

قهقه المجنون وهو يأمرني بأنه لو لم أجهز فوراً، سيأتي للشقة

الآن ويدق بابي، ألم يعرف عنوان سكني البارحة؟ هدّدني بطريقته العفوية، فرضخت للأمر، وأنا أردّد: «لا خلاص، أمري للّه!».

صاح منبّه سيارته، وتبعه صراخه في الخارج، كان قد جلب معه كروسان وقهوة موكا من ستاربكس المجاور، في السيارة استلم مهمّته المعتادة، سخرية لا تتوقف، لكنها مقبولة منه: «يا اللّه كلي بسرعة، خلينا نروح نحرّك شحومك»، صحت به بطريقة لا تخلو من ضحكة مؤجلة: «هيه، لا تغلط عاد، جسمي حلو». أجاب ضاحكاً: «صح حلو بس لازم تشدّيه، كل السعوديات كسولات، أكل ونوم، وإذا فكروا يعملوا رياضة، راحوا المول»، أملتُ فمي، ورفعتُ حاجبَيّ: «لا يا شيخ، يمكن هذا زمن أمك وأمي». كنت أعرف أنه يمزح، ويشاغبني؛ ابتسمت في داخلي، مع أنني بالكاد أفتح فكّي في هذه الظهيرة.

وصلنا الجبل، كنت أنظر نحو الأميركيين وهم يصعدون بسعادة وجدِّية، وأفكر: «يا للشقاء! ما الذي يجذبهم لهذا التعب الذي يعتبرونه رياضة»، صعدت في البداية مع هشام بحماس، لكنني كل فينة أحس بتعب ولهاث، فأتوقف وأطلب منه الجلوس قليلاً، جاملني مرتين بأن وقف ينتظرني كي أرتاح قليلاً، في المرة الثالثة توقّفت قبيل منتصف الطريق، قال بتحدٍّ: «ترى ما صارت، نكمل للأخير يعني نكمل، حتى لو أحملك»، أجبت وأنا أسترد أنفاسي بصعوبة: «لا صدق هشام، ترى تعبت، ما عاد أقدر أكمل».

أنهضني بحنان وهو يمسك بيدي، ثم خدعني فجأة وهو يلتقطني من على الأرض، ويحذفني فوق كتفه كطفلة، وراح يركض بي كمجنون، وأنا أصيح به: «خلاص وقّف نزلني»، كنت أخبط كتفه،

لكنه استمرّ يركض نحو خمس دقائق، وحين وضعني على الأرض كان يلهث وهو يقول: «خلاص قطعنا ثلاثة أرباع المشوار، بس أرتاح ثم نكمل». لم أرد عليه، بدأ يشاغبني ويستفزني:

«سلامات الدبة ما ترد، وش فيها؟».

«أنا مو دبة، بعدين ما أحب أحد يحملني». كنت أقول ذلك بحدَّة.

«يا ويل قلبي، وش عندي ما أحب أحد يحملني، أرجوك ابكي، أبغى أشوف دمعة».

تمنيت أن أبكي، كي يشعر بغضبي، لكن أسلوبه المضحك يقلبني تماماً، وصلنا قمة الجبل بعد خصام وصراخ لم يتوقف، كان المشهد مذهلاً، جعلت ألتفُّ في كل الجهات وألتقط الصورة تلو الأخرى، أكثر من ربع ساعة وأنا أصطاد المشهد الجميل، مرة صورة، ومرة فيديو، وهو يعلِّق عليّ: «هذي مشكلتكم أكل ومول وتصوير..»، ثم اقترح أن يصوّرني بهاتفي، التقط لي كذا صورة وأنا أضحك من لؤمه وحركاته، وحينما ناولني هاتفي، وصرت أحرّك الصور وأطالعها، وهو واقف بجواري، مدّ يده واحتضنني؛ استكنت، لا أعرف هل استكنت، أم تقوَّست كقطة، لم أرفض وأدفعه عنِّي، لكنني لم أتفاعل، وقد شعر بي، ثم ابتعد وتنحنح، وبصوت أكثر جدِّية ولأول مرة: «آسف إذا ضايقتك»، قلت له: «لا، ليس الأمر كذلك، أنا أعتبرك أخي»، فأجاب وهو يجذب رأسي ويقبِّله: «وأنا فعلاً أخوك».

نزلنا من القمة ركضاً، كنا طفلَين، نركض أو ربما نطير من السعادة، قدماي لا تكادان تلامسان الأرض. لم أعش مثل هذا

الصخب والضحك منذ فقدت كيت، لم يكن فقدها سهلاً، لكنني من هذه اللحظة التي أمسك بيدي هشام وركض بي كالمجنون، أدركت أن الحياة سخيَّة. تأخذ لتعطي، والوجوه التي نفقدها، تحضر بملامح جديدة وأكثر جمالاً، فلم أتوقع -وأنا التي أتحاشي أبناء وطني- أن يكون صديقي المفضَّل شاباً سعودياً، فكيف وثقت به إلى هذا الحدّ؟ وكيف استطاع أن يقنعني بنزاهته وصدقه وأخوَّته، هل أهل الشرقية غير عن الرياض؟ أم أن تربية هشام الطبيعية جعلته يتقبَّلني كصديقة وأخت؟ لا أعرف، ولا أريد أن أفكِّر كثيراً في هذا الأمر، المهم أنني عثرت على إنسان مميز لا يتكرَّر.

في السيارة سألني بسخرية:

«نسيت أسألك، كيف كان جوي البارحة؟».

ضحكت:

«حسيت أنك مبسوط أكثر من العادة».

علَّق:

«أصلاً أنا دائماً مبسوط، وما أعتقد حسَّت نسرين بشيء».

وافقته. سألَ:

«كيف كانوا البنات في بيت عايشه؟».

أخبرته أنهنّ طيبات وحبيبات، وحكيت له عن كل واحدة، وأضفت بأنه لا يمكن أن يكنَّ صديقات دائمات، تفكيرهنّ مختلف عني، ويصعب أن أحكي لهنّ كل شيء عن حياتي الخاصة.

صمت لوهلة:

«أقول لك شيء؟ خليك منهن، تعالي معي الليلة نروح كلوب».

اعتذرت منه، لموعدي مع صديقاتي في السكن، وكعادة هشام، الحياة سهلة ولا تحتاج إلى تعقيد:

«يجوا معنا».

قلت بابتسامة:

«قصدك تجي معنا؟».

ضحك بشقاوة، وهو يردِّد:

«النتيجة واحدة، ما تفرق، المهم نروح كلوب».

قلت له بحزم:

«شوف، ترى أنا ما أشرب!».

التفت نحوي وهو يقود في طريق سانتا مونيكا:

«من قال لك أشربي؟ أصلاً لو تشربين جلدتك»، ثم أضاف: «خلينا نروح أرقِّم الجميلات، ويمكن أطلع مع وحدة».

صحت به:

«عيب، بلا قلة أدب».

قال ساخراً بجنونه المعتاد:

«لازم نستغل بناتهم مثل ما يستغلون بترولنا».

ضحكت:

«صدق تفكيرك خبيث».

ولم يتوقف عن المناكفة:

«الخبث في بلاد الكفار جهاد يا رشّو».

هذا المجنون يثير ضحكي ودهشتي، بصحبته صرت أستمتع بالحياة، لكنه يسلب وقتي، هو لا يهتم أبداً بدراسته، ولن يتجاوز

مرحلة اللغة ما لم يتغيَّر، قلت له ذات مرة: «لازم أغيّرك لتكون أكثر جدية في دراستك» فأيقظني بسخريته: «أخاف أنا اللي أغيّرك».

مررنا مطعم سب واي، وأخذنا وجبتَي غداء، وحين أوصلني شقتي، قال لي: «لا تنسين تدعين أي وحدة جميلة في السكن».

أظهرت له لساني تحدياً، بينما انطلق بسيارته المرسيدس على أن نلتقي الليلة في نادي لور.

دخلت شقتي، ووضعت الساندويتش فوق طاولة صغيرة، ليست طاولة طعام، فلم تزل شقتي فقيرة بلا أثاث، التقطت جهاز التحكم، وتنقلت بين القنوات، بينما ألتهمُ الساندويتش بشراهة، كنت منهكة وجائعة، فصعود الجبل يعادل أضعاف المشي العادي، كم اللحظات جميلة، حين يكون لديك صديق رائع، ما الحياة بلا أصدقاء، وربما الأسوأ من عدم وجود الأصدقاء فقدهم، لأن ذلك يترك ندبة في الروح، لا يمكن ردمها إلّا بأصدقاء آخرين؛ هل العشق أيضاً كذلك؟ كنت أفكّر وأنا أستعيد لحظات أول الحب مع عبد الإله، تلك اللحظات الفاتنة قبل أن يملَّ منّي، وتتدهور العلاقة معه، ويتبخَّر حلمنا بحياة مشتركة وطفلَين جميلَين، وضعنا اسميهما باكراً، هل الحب والعشق كالصداقة، لا يمكن ردمه إلّا بعشيق؟ لا، لا أظن، ها أنذا رممت روحي، وعشت من غير حبّ، بل أنني أتحاشى التورّط به، لكنني أفكّر هل يترك ندبة في الروح كفقد الصديق؟ لا، هو حتماً مختلف، فندبته ليست في الروح، بل غائرة وفي القلب، ويصعب ردمها بسهولة.

تمددت على سريري نحو ساعة، ثم نهضت، وتحمّمت، ولبستُ سريعاً، ثم خرجت إلى محطة الحافلات، فلست مستعدّة

لاستخدام الدراجة بعد هذا الجهد البدني الكبير، في الطريق إلى الجامعة كنت أتأمّل المحال والمشاة والشجر والنخل العالي، كانت شمس العصر الصفراء تكسر ظلال العابرين في الشوارع، فتدهسها السيارات والحافلات، كما كان أبي يدهس ظلالي في مكّة ذات عصر بعيد، لا أعرف لماذا حساسيتي عالية تجاه الأشياء، هل أنا في هذه اللحظة سعيدة أم حزينة؟ كيف يمكن أن نقتل الذكريات، كيف ندهسها ونمضي كما تفعل هذه الحافلة؟ لماذا تتبدّد كالهواء، ثم تصفعنا بغتة حين نسمع أغنية، أو نشم عطراً، أو نسمع صوتاً؟ لماذا الذاكرة الشرسة تقتات من أرواحنا الهشَّة؟ لماذا كل شيء أمامي في شارع ويلشر يصبح أغنية حزينة؟ هل تبقى تسعة أيام على الدورة الشهرية؟ تلك التسعة المشؤومة التي تجعل حساسيتي رهيفة كمشرط؟ أخرجت جوالي من حقيبتي الخضراء الصغيرة، ونظرت في جدول أيامي، ففوجئتُ بأنني في اليوم التاسع بالضبط قبل موعدها المتوقَّع، يا إلهي، أي حزن تبعثه الذكريات، ولماذا أجلب هذه الذكريات، وقد استمتعت هذا الصباح برفقة صديق حقيقي؟

في شارع فيرمونت رنَّ هاتفي، كانت أمي تشكو من زوجة أبي مدام فتيحة وحيلها، وتبثُّ لي ضعفها، بينما مزاجي في منتهى الحساسية، لستُ بحاجة إلى من يذكِّي لوعتي، ولا من يزيد قلقي، حاولت أن أهادنها وأطلب منها ألّا تفكّر فيها، ولا في أبي، حينما أقفلت منها كنت وصلت الجهة الجنوبية من الجامعة، نزلت على عجل، كانت جين قد أرسلت لي موقعهنّ، كنّ في الحديقة، تدافعن نحوي بشوق حينما أقبلت، وجدتهنّ أوثقن حبلاً قوياً بين شجرتَين، كنَّ يتحدين بعضهنّ في المشي بخفّة وقدرة مذهلة على التوازن،

حاولن إقناعي باللعب، لأن تلك اللعبة تحافظ على التوازن، وتحرق السعرات الحرارية، وتشدّ العضلات، قلت لهنّ: لا، لقد أحرقت كل السعرات الحرارية في الصباح، حينما صعدت الجبل.

كانت صدمة لهنّ وقد صحن سعيدات: «أنا لا أصدق»، «معقول أنتِ تصعدين الجبل؟»، «هل صعدتِ وحدك»، «يا إلهي، مع شاب أيضاً؟»، ليتني لم أخبرهنّ أنني صعدت الجبل مع هشام، فقد تحوّلت أسئلتهنّ إلى: «تحبينه؟»، «هل قبّلك؟»، «هيّا نرى صورته»، وهكذا لم يصدِّقن أنه مجرد صديق، وليس بيننا علاقة شاب وفتاة. كثيراً ما أكذب ويصدّقني الآخرون، لماذا هذه المرة حين قلت الحقيقة، لم تصدّقني هؤلاء الحمقاوات، كدت أنهار من أسئلتهنّ وسخريتهنّ من خجلي وكذبي، كانت عقولهنّ الصغيرة تتخيّلُ مواقف عشق، وضمّ، وقُبلات، وحتى أكثر من ذلك. غضبت منهنّ، فغيّرت رأيي في دعوتهنّ معنا الليلة إلى الملهى الليلي. استأذنتهنّ وعدت إلى شقتي الصغيرة.

كنت أهجس طوال الطريق، وأحكي في داخلي، لماذا أصبحت هكذا، لماذا أنفعل بسرعة، أغضب لأي سبب، ألم يكنَّ يمزحن معي، كعادة البنات والصديقات، إذاً ما الذي جعلني أصاب بالخرس، قبل أن أغادر؟ لقد ضقت بهنّ لأنني أخبرتهنّ أنه مثل أخي، ولا أستطيع أن أنام معه، بل لا أتخيّل ذلك، وهو لا يريد مني شيئاً، يريد الفتيات في الملهى الليلي، فلماذا الإصرار في تكذيبي؟

في شقتي أكملت التساؤل حتى طفر الدمع من عيني، وبكيت، كتبت لهشام رسالة أنني لا أستطيع الذهاب معه إلى الملهى الليلي،

فاتصل، ولم أرد على اتصاله، استمرّ يعيد الاتصال كلما انتهى الرنين، خمس مرات أو ربما أكثر، ثم كتب لي رسالة: «إذا لم تردّي سآتي إليك!»، أعرفه يفعلها، كيف يأتي إلى شقتي الصغيرة الناقصة من كل شيء، شقتي التي من غير أثاث يليق بشاب سيارته مرسيدس آخر موديل؟ كنت منذ طفولتي ومراهقتي أتحوَّل إلى خرساء حينما أغضب، أصبح تمثالاً، أنسحب بهدوء من كل شيء حولي، لكنني في هذه اللحظة اضطررت إلى الاتصال به، كي لا يباغتني وهو أمام باب شقتي:

«هِهه ما تجين إلا بالتهديد!»، وأضاف: «ترى لو جيت ما أعض! ثم أني عندي أخوات في السعودية، وأنا أعتبرك أختي هنا، وأي شيء يمسُّك يمسُّني! لا تفكري في يوم من الأيام أني أضرّك».

كان يحكي ويحكي، وأنا صامتة كتمثال، أنصت إليه وأتجرَّع غصَّة وحشرجة بكاء في حلقي:

«ليه ساكتة ما تتكلمين؟ ليه غيَّرتِ رأيك؟».

«تعبانة»، قلت ذلك وفي صوتي بقايا بكاء.

«فيك الدورة؟»، قال ساخراً.

لا أعرف من أين جاء هذا المجنون؟ لا أعرف كيف يستطيع أن ينتشلني من قاع الحزن والقنوط إلى ملكوت الضحك، المشكلة أنه لا يفتعل ذلك، بل تأتي شطحاته اللعينة بشكلٍ تلقائي جداً، ولا أملك أمامها إلّا الضحك في أصعب حالاتي. ضحكت:

«عيب تقول كذا».

«ما خبرت الدورة الشهرية عيب!».

«ما فيني الدورة، بس تخاصمت مع صاحباتي الأميركيات».

«أفا، ليه؟».

«يسخروا من علاقتنا!».

فجأة انفرط ضحكاً، ضحك بجنون وهو يهذي:

«وربي البنات دراما، أحسب عندك سالفة صدق، أقول قومي تجهّزي، بمر عليك 11 وآخذك ديت (Date)!».

«ديت؟».

«هه لا أمزح، بس أستهبل، البسي أحلى شيء، وخلينا نروح نقز المزات هناك!».

هذا الصنف من الشباب لم أقابل مثله في حياتي، وربما هو يراني بهذه الدهشة، لا يثيرني أن يعاكس الفتيات، وفي الوقت نفسه لن يرضى أن أفعل مثله مع الشباب، هل هو يغار عليَّ كأخت، هل فعلاً يخشى أن يُغرِّر بي ويخدعني أحدهم؟ لا أعرف.

كان الليل في لوس أنجلوس بارداً قليلاً، صعدت بجواره، وقد خجلت أن أرتدي فستاناً قصيراً كما أفعل مع صديقاتي الأميركيات حين نسهر في ملهى ليلي، فارتديت بنطال جينز وبلوزة سهرة ورششت عطراً خفيفاً، أدار هشام رأسه بلؤم وهو يقول: «اللّه، ما أحلى عطرك!».

الطريق إلى نادي لور شمال المدينة يتطلب نصف ساعة، لكنه يستحق فعلاً، كان مرتباً وجميلاً، ولم يطلب الأمن عند الباب بطاقات هوية لتحديد العمر، ولم يضع حرف X، أو ما شابه، فقد كانت تلك مرحلة الملهى الليلي المجاور للجامعة، الذي كان متواضعاً ومناسباً للطلاب، أما هنا فقد رحَّب حارس الأمن بنا

مبتسماً، حتماً هو يعرف هشام جيداً، حينما دخلنا وجدنا أمامنا طاولة شباب سعوديين، توقّف هشام للسلام عليهم، بينما تجاوزتهم مسرعة، وانتظرت هشام على بعد طاولتَين، لكنني للأسف كنت أسمع صوتهم العالي: «ها.. أشوف معك مزَّة»، «وخليجية كمان!»، «جيبها هنا معانا على الطاولة». كنت أسمعهم وأكاد أنفجر غضباً، رغم أنني أسمع ردّ هشام عليهم: «ترى هي مثل أختي»، وأسمع ضحكاتهم الحقيرة: «لو تدري أن معي الفيراري اللي برا، واللّه تتركك أنت والمرسيدس حقك»، «اسمع لو ما تبغى تضبطها أنا بضبطها».

اللعنة على عقولكم يا كلاب، كنت قد بدأت أرتجف غضباً، هل أنا سلعة بين أيديكم؟ يسومونني بسياراتهم؟ وددت أن أصرخ فيه: «يلعن أمك أنت والفيراري حقك!»، لكنني لم أفعل احتراماً لنفسي وهشام، لم أفعل شيئاً سوى أن تركت بضع دمعات تتسلل من عيني، وحينما جاء هشام نحوي، قلت له:

«ممكن نمشي؟».

«السهرة ما بدأت!».

«ترى أنا سمعت كلامهم، سمعت كل شيء».

«ما عليك منهم!».

«لا أنا أبغى أمشي، لو آخذ تكسي».

قام معي هشام، وخرجنا فوراً، وما إن ركبت السيارة حتى أجهشت بالبكاء، فارتبك لأول مرّة، وجعل يمسح على رأسي بحنان، محاولاً تهدئتي، كنت أقول له لماذا يعتبرونني بنت ليل، لماذا أي واحدة تدخل ملهى ليلياً يعتقدون أنهم يستطيعون النوم

معها، أنا لا أشرب، ولا أرقص، ولا أرتدي ملابس فاضحة، كيف حكموا عليَّ بهذه السهولة؟

كان هشام قد انفعل معي، وبدأ يعتذر: «آسف، وربي آسف رشّو، لو ما توقفي بكاء راح أبكي معك!»، ثم مدَّ أصابعه ومسح الدمع من عيني، وهو يقول:

«خلاص، لا أبوهم لا أبو الكلوب، تعالي نشوف لنا سهرة حلوة، أوعديني توقفي بكاء ولا بتأكد أن فيك الدورة!».

ها هو شيطاني الصغير يضحكني من جديد، لأجيبه من وراء دموعي الشفيفة:

«لا ما فيني الدورة قلت لك».

أجاب:

«أجل هرموناتك زايدة أو أنك دلوعة!».

ضحكت وأنا أقول له:

«يمكن الاثنين». وحكيت له عن حالة حزني قبل موعدها بتسعة أيام، فضحك وهو يقول:

«لماذا تسعة؟ ما هي عشرة أو ثمانية؟ لا يكون نصراوية، ومعجبة بماجد؟».

قلت له إن لا علاقة لي بكرة القدم، ولا أحبها، قاطعني فجأة: «تحبي العود؟»، ثم سألني: «نروح الشقة؟ أعزف لك ونغني؟».

«ما أحب أشوف أحد!».

«ما فيه أحد، أنا ساكن وحدي».

«وزياد قريبك؟».

«زياد ساكن مع قريب له، ما أحب أسكن مع أحد».

لا أعرف كيف وافقت، هل حالتي النفسية وحزني وحاجتي إلى أحد، أم ثقتي الكبيرة بهشام؟ لا أعرف.

كانت شقته فاخرة، أثاثه كان رائعاً يعكس ذوقه، لكن الفوضى تعمّ المكان، الملابس مرمية في كل مكان، والأحذية والجوارب، والمذكرات وكتب تعلُّم اللغة والأوراق، كانت فعلاً فوضى عارمة لكنها جميلة، قال لي على سبيل الاعتذار والسخرية:

«اعذريني على الفوضى، كل شيء مرمي في كل جهة، بس لو شفتِ بوكسر طايح هنا ولا هناك، غضي البصر».

ضحكت:

«لا ما شفت بوكسر، شفت علبة كوندوم فوق المكتبة!».

قهقه بصخب:

«هذي عاد أهم شيء في شقة أي شاب عازب».

ابتسمت:

«اللّه يهديك!».

تهكَّم عليَّ وهو يعدُّ كأسَي عصير:

«تبغين أنفخ لك واحد تأخذيه معك؟».

ضحكت هذه المرة بقوة وأنا أردِّد:

«مجنون، لا ما أبغى».

وضع أمامي كأسي، وأضاف لكأسه قليلاً من الفودكا، ثم راح يدندن بأغنية أحلام: «بس ليه متضايق وش فيك يا عمري، صدّقني ها لدنيا ما تسوى لو تدري». لم أسمع هذه الأغنية من قبل، كنت أسمعها لأول مرة، كان هشام يعزف بشكلٍ جيد، ويغني بصوت

منخفض، وهو يحدق بي مرة، ثم يتوه بصره في السقف والنافذة: «تعال وخل العنا يجي في قلبي أنا، وحط راسك هنا وابكي على صدري».

تلك الليلة التي لن أنساها ما حييت، كان هشام مسلطناً في أغنيته، وعلى غير عادته وسخريته، كانت عيناه مملوءتَين بحزن شفيف وأبيض، وحاجباه معقودَين بجمال، كنت أحسستُ ليلتها أنه يبذل نفسه للآخرين، يضحك ليُضحكهم، لكنه حين يخلو لنفسه وعزلته يعزف ويغنّي ويشرب، وربما يبكي. ألهذا يشرب كل ليلة، يذهب إلى الحانات، ويرتاد الملاهي الليلية حتى الفجر، ألهذا لم يستطع اجتياز مرحلة اللغة؟ هل في داخله سرّ غامض، ولا يحب أن يحكي لأحد؟ أم أنه يؤثر الآخرين وينصت لهم ويواسيهم، ولا يريد أن يشغل غيره بحزنه. كانت عيناي تطفران بالدمع وهو يغني، فتوقّف فجأة، ووضع العود جانباً، متناولاً كأسه وهو يردِّد: «ما صدقنا على اللّه تسكتين، وترجعين تبكين بعد؟». قلت له عن بعض أفكاري حوله، فضحك بخفَّة وحوَّل الحكاية إلى سخرية، ثم قام يسكب بعض العصير، وهو يترنَّم بصوته الدافئ: «تدري ليش أزعل عليك، أعشقك واموت فيك». قاطعته: «هشام، قول الصدق، قد حبيت؟». صاح بجذل وسعادة: «أكيد طبعاً، من لا يحب هذا الأبيض الرقراق؟». وهو يهز كأسه بسخرية. جلس أمامي وحكى لي عن فلسفته في الحب، كان غريباً، وهو يخبرني أن الحب هو حالة مرضية تصيب المرء، وإلّا ما معنى أن يركض المرء خلف محبوبته في الطرقات، ويقف عند نافذتها بالساعات منتظراً أن تتكرَّم بإطلالة لدقيقة واحدة؟ ما معنى ألّا يستطيع النوم حين يطلبها ولا تجيب؟

لماذا ينتحر العشاق أحياناً؟ أليسوا مرضى نفسيين؟ ثم اختتم كلامه بطريقة مصرية: «أجارنا اللّه وإياك من الحب يا شيخة!».

ضحكت:

«معك حق».

وشعرت أن الوقت تأخّر:

«هشام، الحين كيف توصلني شقتي وأنت كذا شارب؟».

ابتسم:

«ما عليك، أنا صاحي، أصحى منك».

خرجنا بعد الثانية عشرة والنصف بقليل، وحين وصلنا تساءل إذا كان ممكناً أن ينزل معي ويوصلني حتى الباب، فشكرته بأن لا حاجة إلى ذلك، ودَّعته: «تيك كير».

رغم أنه أصبح صديقي الذي أثق به، إلا أنني لا أرغب في دخوله إلى شقة شبه فارغة، لذلك قررت أن أسحب من حسابي الائتماني الذي وضعت فيه الثمانية آلاف دولار، وأؤثث شقتي الصغيرة، ثم أحاول جمع مبلغ على المتبقي لشراء سيارة؛ أبي ليس فقيراً، لكنني استنفدت حيلي معه، ولم يكن مناسباً أن أكرّرها، وأن يكتشف أنني خدعته وسكنت وحدي، وأن كل حكايات الطفلين دانيل وسيلينا كانت كذباً، وأنه لا يوجد أب اسمه جاكوب، ولا أم اسمها كلارا، وكذلك من الصعب ابتكار حكايات جديدة عن العائلة بهدف كسب المزيد من المال. أعرف أنه لن يتأخّر في إرسال المزيد من المال، لكنني لن أطلب منه من دون تبرير منطقي.

بعدما أصبح هشام صديقاً رائعاً، أقابله بشكل يومي تقريباً، لم

أعد أقابل صديقاتي الأميركيات إلّا في الجامعة، أو لقاءات سريعة، ولم أعد أرتبك، كما في البدايات، حينما يرانا الآخرون معاً، أذكر أول مرة صادفنا نسرين وحنان في مول تراغت، ارتبكتُ محاولة الهرب منهما إلى قسم آخر في السوق، لكن هشام ببساطته العجيبة صاح بي، فخجلت من محاولة هروبي الفاشلة، وفي الوقت ذاته كانت حنان أيضاً حاولت أن تتحاشاني وهي تفرد شعرها بحرّية من غير حجاب، فيما بعد قال لي هشام: «ليس جيداً أن نهرب منهم، نحن لم نرتكب خطيئة، نحن أصدقاء فقط». علّقت: «صح، لكنهم قد يحكون أشياء لم تحدث قط إلا في خيالاتهم!».

تعلّمت من هشام أن الناس لن يكفّوا أذاهم، ولن يتوقفوا عن صنع الوشايات، لذلك علينا ألّا ننشغل بما يقولون، ليقولوا ما يريدون، ونحن نفعل ما يرضي ضمائرنا. ورغم أنني وافقته تماماً، إلا أنني اختلفت معه في سمعة الفتاة، التي تختلف عنه كرجل، فقال لي إن من يختلق الشائعات من رؤية رجل وامرأة معاً، سيفعل حتى لو لم يرهما، ف«لا تضيعي حياتك يا خبلة في التفكير بالآخرين، عيشي حياتك بعيداً عن أوهامهم».

في المرة الثانية صادفنا نسرين مع حبيبها الموظف في واشنطن، كانا في مطعم جوين في صن ست بوليفارد، لمحتها وهي تضع شوكة الأكل في فمه، فارتبكت، وكادت أن تسكب كأس النبيذ على الطاولة، حاولت أن تتحاشى رؤيتنا حين أدارت رأسها نحو الجدار. الغريب أن هشاماً هذه المرة هو من نكص على عقبيه من المطعم، وبرّر لي بأنه لا يريد أن يحرجها، ولا يحرج حبيبها، قال وهو يضحك: «يمكن يحوس بعثتنا لا سمح اللّه».

لعلّ الأمر الذي أشكر اللّه عليه كثيراً أنني لم أرَ أفنان نهائياً، منذ تلك السهرة في منزل عائشة، ونصائحها حول الحجاب، فهي التي يمكن أن تؤذيني وتطلق حولي الكلام في لوس أنجلوس، وربما في السعودية أيضاً، فمن يدري قد تصل إلى أهلي بحثاً عن الأجر وتغيير المنكر باللسان أو اليد.

(16)

لا أريد أن أموت مرّتَين

ذات يوم من أيام سبتمبر المعتدلة، كنا عائدين من لاغونا بيتش، بعد أن تجوّلنا على أقدامنا عصراً، مشيت حافية على الرمل الأبيض، وقد أخذ لي هشام مثلجات بسكويت مع كريم، من جالاتو بيراديسو، وفي العودة كان الطريق سالكاً، والسماء حمراء وحزينة، كأنها تبكي، تحدّثنا عن الذكريات والطفولة، عن تجاربنا الفاشلة، حدثته عن تجربتي مع عبد الإله، وكيف كان سبباً قوياً في هروبي إلى أميركا الحلم، حكى لي عن تجربته مع خطيبته مها التي خذلته قبيل زواجهما، بعلاقة طائشة مع صديقه في الاستراحة، كان اكتشفها بالصدفة، كنت أعرف أنه يخفي سراً، وربما خيبة كبيرة وراء هذا الضحك والجنون والعبث، كنا نسمع عبد المجيد عبد اللّه وهو ينوح بحسرة: «أيش جابك من بلادك لبلادي، أيش اللي خلاك تسكن في فؤادي». كنا نغني معاً أغنية الحب الجديد. أصفق بصخبٍ بحثاً عن سعادة مفقودة، أشعر بحرية هائلة مع هشام لا يمكن أن أشعر بها مع أي أحد على هذا الكوكب، كان صديقي الحميم، بل مرآتي وانعكاسي الذي أحكي له كل شيء بلا تردد، وبلا خوف، كل هذا

الوضوح والبساطة في تصرفاته، منذ أول يوم صادفني فيه، جعلني أثق به كثيراً، وأتخذه صديقاً رائعاً.

قبل أن أنزل إلى شقتي قال لي: «اسمعي رشّو، بكرة الساعة 9 في الليل، بروح المطار استقبل صديق قديم، حصّل قبول دراسة هنا، بجيبه يسكن معي لحدّ ما نلاقي له سكن، وراح أمر عليك نروح المطار».

لم أعد أناقشه، كان أخي في الغربة، أخي الذي يكبرني بسنتَين، يخاف عليّ ويحميني، لم يكن يسرق وقتي، بل يمنحني طاقة هائلة للتحدّي، والبحث، والمذاكرة، ولو لم أعش مثل هذه العلاقة النادرة، لما صدَّقت أنه يمكن لرجل أن يقيم علاقة مع امرأة دون أن يفكر بالفراش، حتى إنني ظللت أياماً وأسابيع أفكِّر متى سيدمّر هذه العلاقة النزيهة، لكنه لم يفعل حتى وهو في لحظة شرب أو رفرفة سكر، كان حنوناً لكنه لا يتطاول أكثر، رغم أنه يقصُّ عليَّ أحياناً علاقاته الغرامية، وكنت أجادله بأن يتنبّه لنفسه، كي لا يتورَّط مع فتاة سيئة أو مريضة.

في المساء التالي مرَّ بي هشام، وصعدت بجواره مبتسمة، وأنا أهمس له بأنني أشعر أننا بطلا فيلم في هوليوود، ضحك وهو يسخر: «هوليوود مرة وحدة؟»، ثم حكى لي عن سعود، صديقه الذي تعرَّف إليه منذ ثلاث سنوات تقريباً، في غرف الدردشة (البالتوك)، واتفقا ذات مرة على أن يلتقيا حين يزور الرياض، وتعزَّزت صداقتهما بعد أول لقاء: «سعود مرة طيّب وحبّوب، يحترمني ويقدرني، فلا تخافي منه، لا يمكن يتكلم عليك، واحترامه لك من احترامه لي».

لم يستغرق الطريق أكثر من ساعة، كنتُ جائعة جداً، ولأن الرحلة تأخّرت ساعة اقترحت على هشام أن نأكل شيئاً، فأخبرني أنه وعد صديقه أن يحتفي به في أحلى مطعم في لوس أنجلوس، وأن يجرِّب البرغر الأميركي على أصوله في مطعم إن إن آوت. تحاملت على جوعي، خصوصاً أن أحد فروع هذا المطعم لصق المطار، لا أعرف لماذا يثق أن ذوقه سيعجب صديقه حتماً، لكنه بسخريته المعتادة: «احنا الشباب ما نشاور بعض، اللي تحبه لازم يحبه صاحبك». نبهته بأن المحل سيقفل عند الثانية فجراً، وطمأنني بأنه سيصل قبل ذلك بكثير، ووعدني بأن يطبخ لنا كبسة دجاج بنفسه لو تأخّر، كنت تمنيت أن يتأخّر، لأن الطبخ إحدى مهارات هشام، بالذات الأكل الشعبي، لكن مشكلته في شقته أنه يترك الأواني لأيام دون غسيل، هل يعتقد أنها ستغسل نفسها بنفسها؟ أم أنه يظن أنها ستقفز من المجلى نحو غسالة الصحون؟

عند الحادية عشرة والنصف خرج سعود مبتسماً، كان شاباً قصيراً إلى حدّ ما، يزيد عن طولي بثلاثة سنتيمترات تقريباً. أسمر ونحيل، ويُعدّ وسيماً، لكنه ليس في وسامة هشام، الذي احتضنه لدقيقة أو دقيقتين، وهما يتبادلان التحية الشبابية التي لا أحبها: «لك وحشة يالخايس»، «أنت أكثر يا حيوان»، «ليه ما ترد يا ثور لما أرسل لك؟»، وهكذا يعبّران عن حبهما بطريقة غريبة وبذيئة: «هذي رشا أختي وصديقتي هنا»، صافحني سعود مرحِّباً، نظراته عميقة لكنها ليست متلصّصة، وفيها جاذبية نوعاً ما.

تناول هشام حقيبة صاحبه، وجذبها خلفه، كنتُ أفكِّر كيف يأتي هؤلاء الشباب لرحلة غربة طويلة بحقيبة صغيرة واحدة، كما لو

جاءوا في رحلة استجمام لبضعة أيام؟ صعدت في المقعد الخلفي طبعاً، وتركت مقعدي الأمامي لصديقه سعود، وانطلقنا إلى مطعم إن إن آوت المجاور للمطار، على بعد خطوات، وجلسا متجاورَين أمامي يتحدثان بشغف عن ذكرياتهما، وعن هذه المدينة، وبعد أن فرغت من تناول تشيز برجر صغيرة ذهبت إلى الحمّام لأغسل، حين عدت شككت أنهما يذكيان النمائم، لكنهما غيَّرا حديثهما عن السيارات وأسعارها، وأي منها الأكثر اقتصاداً في الوقود، بحكم ارتفاع سعر الوقود في أميركا.

خلال أيام عرفت شخصية سعود، كان عنيداً، ومتطلِّباً، لا يعجبه شيء، دخلنا عشرات الشقق المعروضة للتأجير، فلم تعجبه أي منها، هذه غرفتها صغيرة، وتلك إطلالة شرفتها غير جيدة؛ هذه دور أرضي، والرابعة نافذتها صغيرة، والخامسة مكلفة، وهكذا تمضي الأيام ونحن نطوف الشقق، ونفحص السيارات، هذه لونها لا يروق له، وتلك ماكينتها ليست قوية، والثالثة سعرها مرتفع، ويستمر في انتقاد كل شيء.

كلما تعبنا عدنا إلى شقة هشام، فيقضي وقته مع مسرحيات مصرية مملة، وما يثير دهشتي أنه يعيد المسرحية نفسها مراراً، ويضحك عند المواقف والنكات ذاتها، كلما سأل عادل إمام عن «شحيبر» الكلب، كان سعود يضحك بسعادة، أظن أنه يحفظ مسرحية «الواد سيد الشغال» عن ظهر قلب، لم يكن ذلك يروق لي، ولا أحب المسرحيات عموماً، خاصة المصرية، قد أتقبّل المسرحيات الكويتية، لكن لا يمكن أن أشاهدها مراراً؛ ورغم أنني انسجمت مع هشام سريعاً، خلال بضعة أيام، إلا أنني لم أكن كذلك مع سعود، رغم

مرور أكثر من شهر، لم أزل أتعامل معه بجدّية، ورسمية أحياناً، فلا أستطيع أن أقول له مثلاً: «يا أخي حوَّمت كبودنا بمسرحياتك»، لكنني أستطيع قول ذلك وأكثر لهشام، لا أعرف لماذا، ثمة شيء يجعلني أتوجّس من رفع الكلفة بيننا، على خلاف هشام الذي دفعني فوراً إلى التعامل معه ببساطة ودون تعقيد، ربما لأن شخصيتي تشبه شخصية سعود، كلانا شخصيته انطوائية وحذرة، عكس شخصية هشام الجريئة والمنطلقة بشغب، فما في قلبه على لسانه، هكذا.

ذات مرة، بينما سعود يتابع مسرحية «العيال كبرت» في الصالة، وهشام في غرفته، كان كمبيوتري المحمول يعلّق طويلاً، ويصبح بطيئاً جداً عند التصفّح، ولأنه يعرف جيداً في الكمبيوتر، سألته بينما أجلس عند طاولة مكتب هشام في الصالة، فطلب إحضاره، وحينما جلست بجواره، وبدأ يجرب الجهاز همس بخبث: «تعرفين؟ ريحة عطرك جميلة، تدوّخ»، أجبته بحياء: «شكراً»، ثم أضاف بجرأة: «يا حلوك». أوضحت بأدب: «سعود ترى أنا أعتبرك مثل أخوي، فما له داعي ها الكلام»، لا أعرف لَمَ قلت ذلك رغم أنني سعيدة في داخلي، لم أكن أتمنَّع، وإنما خائفة، ولا أرغب في أن يقتحم أحد أسواري، ولست مستعدة لخوض تجربة جديدة أو فتح المجال لأحد، فالغصَّة لم تزل تساورني كلما طافت بي الذكريات، خاصة حين أتمدد على فراشي ليلاً.

كانت نظرات سعود نحوي تحرجني، وهمساته تربكني، ما هذا، ربِّ احفظني، لا، لن أتورَّط بنكسة حبّ جديدة؛ الحب كالموت، يأتي مرة واحدة، ولا أريد أن أموت مرتين! كنت أتماسك وأسيطر على مشاعري:

«تعتبريني مثل أخوك، هذا حقّك، لكن أنا ما أقدر اعتبرك مثل أختي، من شفت عيونك بالمطار وأنا ذايب فيك».

أجبته بحسم:

«تصلح الكمبيوتر ولا كيف؟».

قال بهمس:

«أصلحه لعيونك، أسوي أي شيء تبغينه، لو أمشي على الشوك حافي».

تنهَّدتُ وصمتُّ. «الآه فيني ولا فيك».

أكمل شغله على كمبيوتري، وعدت إلى الطاولة، بينما هو عاد إلى مسرحيته، وكلما نظرت من طرف عيني ضبطته متلبساً يقيس جسدي من أعلاه حتى أسفله.

لا أعرف لماذا خبأت تلك المكاشفة عن هشام، هل كنت أخشى أن يوقفه عند حدّه، وفي داخلي لا أريده أن يتوقف، صحيح أنني لم أتفاعل مع غزله، لكنني مستمتعة بكلماته، وجاذبية عينيه.

فيما بعد، وحين نطوف المكاتب والشقق بحثاً عن شقة له، كان أحياناً يرمي كلمات غزل بسيطة، وإيحاءات غير مباشرة أمام هشام، فكنت أقابل ذلك بالصمت، والتجاهل أحياناً، وقد أخبئ ابتسامة مواربة رغماً عني.

بعد شهرين من الركض، استقرّ سعود أخيراً على شقة جميلة، تبعد عن شقتي مسافة عشر دقائق غرباً، كانت في الطابق الثاني، ذات شرفة مطلَّة على حديقة وارفة في شارع واسع، رؤوس النخيل الأميركي توازي الشرفة، كما لو تودّ تقبيلها حينما تتأرجح في الريح،

كان يجدها مكاناً مغرياً ليدخن، إذ كان مدخناً شرهاً، وكعادتنا حين نحتفل بكل شيء، قررنا أن نحتفل بهذه المناسبة في ملهى ليلي، ورغم أنني مزدحمة تماماً بالدراسة والمهام البحثية، إلّا أنني كنت بحاجة إلى تغيير جو، والاحتفال معهم، فلم يعد كلام الناس يهمني، مع أن هشاماً اختار مكاناً بعيداً، لا يعرفه الطلاب السعوديون، ولا يرتادونه بالطبع، كان حريصاً على اختيار المكان المناسب بعد ذلك الموقف الذي بكيت فيه، كما أنني مطمئنة أن سعوداً لا يشرب أبداً، فلو شرب هشام طول السهرة، سيساعدني سعود على سحبه!

حينما دخلنا شعرت بسعادة، فلم يكن هناك عربي واحد، كلهم كانوا أميركيين، اتخذنا طاولة في الطرف، طلبنا كوكا، بينما هشام بدأ رحلته الطويلة، كلما همَّ بشرب كأس جديدة رفعه ونادى بصوت عالٍ، نخب الشقة الجديدة، كان لا يتوقف أبداً حتى بدأ يفقد، وراح يراقص فتيات أميركيات، كنا نضحك طوال الوقت من حركاته المجنونة، وهو يضحك لضحكنا، أو ربما من فرط السعادة، كان المكان والوقت جميلاً، كنا جميعاً نرفرف بأجنحة من هواء، تغمرنا حالة سكر حتى لو لم نشرب:

«رشا، ليه ترفضين حبي؟ فيني شيء ما يعجبك؟ أو تحبي هشام؟».

«لا أبداً، هشام أخي كما قال لك من قبل».

«أجل؟».

«أخاف من الحب يا سعود»، قلت، وأخبرته أنني عشت تجربة فاشلة، ولا أود التورّط بتجارب مشابهة في الغربة.

«أصابعك تختلف يا رشا. أعطيني فرصة».

«وش تبغى منّي طيب، شوف الأجنبيات كثير، تقدر تنام معهم، أنا مستحيل أفرّط في نفسي».

«أنا ما أبغى الأجنبيات، ولا أطيقهم، ومن قال لك أن أكبر همي الجنس، لو أبغى جبت عندي في البيت ستربتيز تتعرّى قدامي!».

«ما أدري سعود، أرجوك قفل على الموضوع، حنا مبسوطين هنا، لا تنكد عليّ أرجوك».

«طيب أوعديني أنك تفكري في الموضوع؟».

«إن شاء اللّه».

لم أكن بحاجة أن يطلب مني ذلك، فأنا أفكر كثيراً فيه منذ محاولته الأولى في شقة هشام، بل منذ أن تعانقت أعيننا في المطار، فصاحت عيناه الغائرتان: يا إلهي، وأجابت عيناي بخفر ولهفة: تعال اغسل وحدتي وغربتي، فأرمشت عيناه بالموافقة على غزل قصيدة حب سرِّية من خصل شعري الطويل.

كنت أفكر بالمستقبل، بالاحتمالات، بالخيبات، بالعيش في بلاد غريبة، قد يتطور الأمر فيها أن نعيش معاً، فيسكن في شقتي، أو أسكن معه في شقته، من يدري ماذا يحدث بعد ذلك، كنت خائفة من علاقة جديدة قد تحمل معها صدمة كبيرة.

عاد هشام نحونا يترنَّح بصحبة بنت، طالباً أن نأخذهما إلى شقته، كنت أستغرب كيف يتفاهم معهنّ بلغته الرديئة هذه، فبعد سنة كاملة من دراسته في المعهد، ومع كلامه المكسَّر وغير المفهوم، كان يغوي البنات بشكلٍ يثير دهشتي، هل يثيرهنّ بحركاته المضحكة، بإشاراته الساخرة من غير لغة؟ لا أعرف.

أخذ سعود مفتاح السيارة، وأوصلهما قبلي إلى شقة هشام، ثم

سار بي إلى شقتي، كان طول الطريق صامتاً، بينما محمد عبده يصدح بأغنية «الأماكن» في ليل لوس أنجلوس، كنا نتأمل معاً الطرقات الخالية، ونتأمل حياتنا أيضاً، انتابتني رغبة عارمة بالبكاء، لا أعرف لماذا كلما سمعت عبارة: «كل شيء حولي يذكّرني بشيء، حتى صوتي وضحكتي لك فيها شيء» تعالت الغصة في حلقي؟ هل ما زلت أفكّر في عبد الإله، الحب الأول؟

وصلنا شقتي، وحينما توقفت السيارة طلب مني أن أنتظر، وألّا أفتح بابي، لم أعرف لماذا إلّا حينما استدار ناحيتي، وفتح لي مبتسماً، وقال وهو يغمز: «الآن تفضّلي أميرتي»، ابتسمتُ له، وشكرته، وبينما أنا أمشي نحو شقتي، ذكّرني: «أرجوك أوعديني تفكرين»، قلت له: «وعد».

قد لا يمحو الرجل إلا رجل آخر، فهل كنت بحاجة إلى حب رجل يمحو ذاكرتي، يعيد تكويني، يوقظ تقاسيمي، ويسقي عاطفتي الموحشة؟ هل جاء سعود في وقت كنت فيه أنتظر رجلاً؟ هل هو جاد فعلاً، وسينتهي هذا الحب نهاية مريحة، أم أنه سيسلب ما تبقى من ذاكرتي ويرمي بي؟ قرّرت أن أتخفّف من قلقي، وأصارح هشام بذلك، فهو صديقي وأخي في الغربة، وهو أيضاً صديقه من قبل ويعرفه جيداً.

في اليوم التالي أرسلت لهشام أن نلتقي مساء في مقهى ستاربكس ويلشر، وحدنا من غير سعود، وصلت قبله، وطلبت له قهوته الأميركية السوداء، وحين جلس أمامي اعترفت له بما حدث من سعود، ففاجئني ببرود: «أدري»، ثم أضاف: «سعود قال لي إنه معجب فيك، ويتمناك من أول ما شافك، وكل يوم يحن على

راسي، لكن أنا قلت له ما راح أتدخل بينكم»، صمت هشام لوهلة أمام دهشتي وارتباكي: «إذا تبغينه ترى واضح أنه يحبك».

تنهَّدتُ بعمق: «أدري، والرجل محترم، بس أنا أخاف».

ارتشف من كوبه: «تخافي من أيش؟».

ازدردت ريقي: «أخاف يستغلني في الغربة، أو يغتصبني».

جحظت عينا هشام: «يخسأ، ورب الكعبة ما أكون رجل لو ما أقتله، ترى أنتِ بمكانة أختي، وأخاف عليك مثل ما أخاف عليها، ما تخافي من هذا الجانب، حتى لو تبغين أقول له ما يفكر ينام معك أصلاً».

همست: «ايه بليز قل له».

طالعني مبتسماً بخبث: «أكيد ما تبغين؟ من هنا ولا هنا؟ ما تقولي لي بكرة صاحبك ما يسوي شيء؟».

دفعته بقبضتي في كتفه: «عيب».

ضحك ساخراً وهو يفتعل الألم من قبضتي الضعيفة، تحدّثنا عن الدراسة، حكى عن معاناته مع تعلُّم اللغة، قال إنه صادق كل بنات لوس أنجلوس ولم يتقن اللغة بعد، ضحكنا بسعادة، ودَّعته ومشيت، كنت بحاجة أن أجلس قليلاً في الخارج، مررت بحديقة على الطريق، فكرت أن أجلس لكنني خفت، جلست في مقهى بلاك دوغ، وكتبت رسالة لسعود: «سأعطيك فرصة أتمنى تكون قدها، ولو كنت ناوي تجرحني في يوم أرجوك أنا ماني ناقصة جروح، لا تحبني إذا تفكر في يوم تتركني».

لم تمر سوى دقيقة حتى غنَّى جوالي: «راح نبقى مع بعض للأبد، وما راح أتركك إلّا لما تشوفي جثماني بالقبر».

ثم أرسل ثانية: «ممكن أمر بكرة آخذك ديت، بس أنا وإياك؟».

وافقت. كان أول لقاء غرامي حقيقي في حياتي، فكلّ لقاءاتي مع حبي القديم كانت بالجامعة، وفي سلَّم الطوارئ، وأرتدي فيها معطفي «لاب كوت» مع التنورة السوداء، لا مطاعم ولا سينما ولا بيوت، لا نأكل معاً ولا نشرب، كنَّا حذرين في سلالم الطوارئ، نسرق العناق والقبلات بقلق وخوف.

هنا أنا حرَّة، سأقابله أينما شئت، سأرتدي له ما أريد، سأرتدي كل ما يبرز أنوثتي، أنا نجمة السهرة معه، سأختار فستاناً قصيراً وبلون داكن، لا، هذا لا يليق أبداً، ماذا سيقول عني؟ «بيتش»؟ طبعاً لن يتزوجني بعد ذلك، لكن ما قال إنه يخطّط لأن يتزوجني وهو رآني أضحك كثيراً، وأمازح هشاماً وأضمه أحياناً، لا أتخيّل أن رجلاً سعودياً يتزوج فتاة ضحوك وتمازح الرجال، لا وتضم رجلاً غيره، صحيح أنه يعرف علاقتي الأخوية بهشام، ويدرك أننا أصدقاء فقط، لكن ألا يشك بأن ثمة أسراراً بيننا، وربما علاقة إعجاب أو حب لم يستمر، ألا يشك أننا كشخصيتَين مشاغبتَين، جربنا من باب المغامرة ولو مرة واحدة، لذلك سيتردّد في الارتباط، لا ليس بهذا الشكل، لا أعتقد أنه شخصية شكاكة ومضطربة، ثم إن هناك صديقات لي تزوجن من عشاقهنّ، ها هي سمر تزوجت حبيبها محمداً، وهذه عهود مع أنها مطلقة تزوجت تركي الذي يصغرها، بعد قصة حب لشهور، وغيرهنّ أكيد هناك كثير... وأظل أهجس: يجب أن تكوني ثقيلة متزنة، لا تكوني خفيفة ومتعجلة، لكن الثقل لا يعني ثقل دم، لا لا، يجب أن يكون بعقل، وابتسامة خجل، فالرجال يحبون الفتيات اللاتي يخجلن، لكن الوقت فات على ذلك، هو عرف

شخصيتي إلى حدّ كبير، ومع ذلك ما زال لدي الكثير لأفعله، كي يتعلَّق بي أكثر.

رأسي مشوّش، وأفكاري متضاربة، كلمات وكلمات تضجُّ بجنون، تخيلت علاقتنا قبل أن تبدأ، يا اللّه، هذا غير معقول، أحاول النوم دون جدوى، ربما لو اتفقنا أن نلتقي وحدنا فقط، ولم يذكر كلمة «ديت» التي أثقلتني، لو لم يقل ذلك لتعاملت مع الأمر ببساطة، كموعد عادي وليس موعداً غرامياً، فقد تشرَّبت كلمة «ديت» من الأفلام الأميركية القديمة، ويجب أن أستعدّ لذلك كما لو كانت أهم سهرة في حياتي.

لن أنام أبداً إذا بقيت أفكر، فتحت درجاً مجاوراً، وتناولت حبتَي تايلينول نايت، ثم أغمضت محاولة أن أجعل عقلي صفحة بيضاء كي أنام فوراً، لكنني لم أنم كعادتي بعد حبتَي منوّم، فاضطررت بعد ساعتين من محاولة النوم الفاشلة إلى التهام حبتَين إضافيتَين، وسقطت في بئر عميق حتى الظهر، فتحت عينَيّ بخدر، التقطت جوالي وطالعت الوقت، نهضت بعجلة، وخرجت إلى بيفرلي سنتر لشراء فستان، فلا يمكن أن أرتدي بنطال جينز، لأنه كلما خرجنا هشام وهو وأنا، أكون ببنطال جينز وقميص، لذلك قررت أن أشتري فستاناً معقولاً، ليس فوق الركبة، وإنما تحتها بقليل، تجوّلت نحو ثلاث ساعات، دخلت متاجر الموضة الشهيرة كلها، واخترت فستاناً أنيقاً من آن تايلور، وهرولت عائدة إلى الشقة، فتحمّمت على عجل، أزلت الشعر الزائد في أنحائي، هو لن يرى هذه الأماكن الخاصة، لكن تلك الطراوة تدخل البهجة فيَّ، وتمنحني مزيداً من الثقة بالنفس. وضعت مكياجاً خفيفاً وناعماً، ولبست فستاني،

ورششت عطراً من نينا ريتشي، وجلست أمام التلفاز كي تهدأ أعصابي.

بعد دقائق رنَّ جوالي، التقطت حقيبة لويس فويتون البنية الصغيرة، وخرجت حيث سعود في سيارة بورش استعارها من أحد أصدقاء هشام، لا أعرف كيف قفز ذلك المشهد البغيض فجأة، حين دخلت مع هشام الملهى الليلي، وتحدّاه أحد الشباب بأن يغويني بسيارته البورش التي يتبجَّح بها. كدت أتعثر في خطواتي نحو السيارة، رغم سلوك سعود الرائع، حين نزل واستقبلني، ثم فتح الباب لي مبتسماً، لكنني شعرت أنها سيارة الشاب الحقير ذاته، وتخيّلته اصطادني بها، سرنا، ولاحظ مزاجي المتعكِّر، فسألني ما بك؟ وسألته بدوري: «سيارة مين هذي؟»، قال إن هشاماً دبرها له، وأضاف: «لو تضايقتِ من السيارة نرجعها عادي». أخبرته أن مزاجي تبدّل بسبب موقف، وحكيت له تلك المرة التي تلفظ عليَّ الشباب وخرجت قبل أن أجلس، تناول يدي وقبَّلها، وهو يقول: «أنتِ رائعة يا رشا، أي قدر أنتِ». كان يتحدث بلغة فصحى، ثم همز أغنية كاظم الساهر: «أحبيني بلا عقد، وضيعي في خطوط يدي، أنا رجل بلا قدر فكوني أنتِ لي قدري». همس حينما توقفنا عند إشارة تقاطع الشارع السادس مع فايرفاكس: «رشا كوني لي قدري». كم كان ساحراً هذا السعود، وهو يرمي كلماته الفاتنة في طريقي، لم أجب طلبه، لكنني فتحت جوالي وكتبت له: «تنتظر كلمة أحبك، شايفك مشغول فيها، كل شيء بوقته حلو، ليه مستعجل عليها»، ورغم أنني سمعت رنة الرسالة في جواله، إلا أنه كان ينتظر إجابتي، فضحكت وأنا أقول له: «شوف جوالك».

ابتسم: «أنتِ مرسلة لي؟ معك ما أفتح رسائل، لأنك أهم شيء في الدنيا، حتى أمي»، أجبت بحذق فتاة صالحة: «لا عاد، إلا الوالدة». فتح الرسالة وقال: «ستحبينني، أنا واثق، وأنا ما أحبك بس، أنا ميت فيك»، ثم بدأ مزاجي يتحسَّن أكثر حينما بدأ يحكي لي عن أمه وأبيه، وكيف تزوّجا بعد قصة حب، وهو يقول إننا سنتزوج مثلهما، كنت سعيدة، كما لو نبت لي جناحان، كما لو كنتُ أطير.

وصلنا مطعماً أميركياً فاخراً، اسمه ذا إيفي، كان حجز لنا فيه طاولة، وأخبرني أن هذا المكان للمشاهير، ونحن الليلة أكثر شهرة منهم، فهم من يطلب التصوير معنا، لا نحن، ثم ضحك بسعادة. كان هشام هو من اقترحه وحجز لنا فيه، كدت أبكي لحظتها، كان أخي فعلاً، وصديقي، ورفيق عمري، استلموا السيارة منا، ووضع ذراعه اليمنى، فشبكت يدي فيها مرتبكة، سألني: «ما بك؟ خائفة أن يراك أحد؟».

قلت: «لا، خائفة لأنني لم أخرج في موعد مع رجل في حياتي».

ابتسم وهو يدلف الباب المفتوح لنا: «وهو أول وأجمل موعد، وآخر رجل في حياتك».

كانت مجموعة طاولات منتشرة بشكل مدروس، تحفظ مسافة بين كل طاولة والأخرى، وفوق كل منها زجاجة نبيذ، ما عدا طاولتنا، لم نكن بحاجة إلى ذلك، فسكرة لقائنا لا يعادلها شيء في العالم. جلسنا كنجمَي سهرة، لا أعرف هل كان النُدُل يتنافسون حولنا لأننا الأجمل، أم يفعلون ذلك مع الجميع، أم أنني أتخيّل ذلك. كان سعود لا يكفّ عن الكلام، تحدث عن حياته وكيف جاء

إلى هنا، عمله في شركة إلكترونيات، ثم في بنك، ثم في شركة تأمين طبي، وكيف قاد حملة ضدّ المدراء الوافدين من الإخوة العرب، لأنهم يحتكرون عمولة الشركات والمؤسسات الراغبة في التأمين على موظفيها الذين يزيدون عن ألف موظف، ويتركون الفتات للسعوديين، فتمَّ فصله تعسفياً، وقرر أن يسافر ليكمل دراسته، فاختار المكان الذي يقطنه صديقه كي يخفّف عنه الغربة، وليختصر عليه الخطوات اللازمة. وددت القول إنني محظوظة بقراره، لكنني لم أقل شيئاً، حكيت له رحلتي من جامعة الملك سعود، إلى هنا، وفشل خطبتي من عبد الإله، طبعاً من غير تفاصيل لقاءاتنا الغرامية في سلَّم الطوارئ.

«هذي أقدارنا يا رشا، ما كان نصيبك، ولا أنتِ نصيبه، مكتوب يخونك وتحزنين فتكرهين الجامعة والمستشفى والذكريات، وتأتين هنا، ومكتوب إني أتمرد على مدراء الشركة كي أُفصل، وأسافر كي نلتقي».

قلت له وأصابعه تعانق أصابعي الناحلة:

«أقول لك شيء، صحيح هشام عرفنا ببعض، لكن لو تعرف كيف تعرَّفت أنا على هشام صدق تضحك بقوة».

«أعرف».

كان هشام حكى له كثيراً عنّي، أكثر مما كنت أظن، أجزم أنه قال له كل شيء حتى عن اضطراب مزاجي قبل الدورة بتسعة أيام، أعرفه ثرثار، لكنه يحبني ويخاف عليَّ.

حين جاء الطعام نهض سعود من مقعده نحوي، وتناول منديل الطعام من أمامي، وفرده على حضني، وهو يقبِّل خدِّي، يا اللّه ما

أجمله، لم يكن رومانسيّاً فحسب، وإنما عاشقاً يفهم جيداً في الأصول، كادت تدمع عيناي من فرط السعادة، فلم أتخيَّل يوماً أن أحيا مثل هذه اللحظات النادرة؛ بعد الأكل طلب قطعة تشيز كيك واحدة، وقال لي:

«سنتشاركها»، ثم أضاف: «كي نتشارك حياتنا في المستقبل، ما عدا أطفالنا أريدهم كلهم يشبهونك، كي أراك في كل مكان في البيت».

كان شاعراً بأحاسيسه، بكلماته الدافئة، وفي تصرّفاته أيضاً، إذ يمدُّ شوكته بقطعة تشيز كيك تجاه فمي، ثم يتلذّذ ببقاياها على أسنان الشوكة، كان خياليّاً هذا السعود، عاشقاً من نوع لا يتكرَّر، لا ينسى أبداً أي تفصيل في يومنا هذا، وأيامنا الباقية.

خرجنا من المطعم، كانت السيارة بانتظارنا، فتح لي الباب، وصعد من الجانب الآخر، انطلقنا بسيارة بورش تلمع في شوارع لوس أنجلوس، بداخلها قلبان يرفرفان بشغف، بينما صوت عبد الرب إدريس ينساب كنهر: «ليلة لو باقي ليلة، بعمري أبيه الليلة، واسهر في ليل عيونك، وهي ليلة عمر»، ثم يصيح بجنون: «يا اللّه يا اللّه، وش كثر أنتِ جميلة». وأصيح أنا معه: «يا اللّه يا اللّه، وش كثر أنا أحب!».

كنت أصيح به: «يا مجنون كيف رتبت كل شيء؟».

ويصرخ في ضجيج الأغنية: «كل شيء مرتب، السيارة، المطعم، الأغاني، كل شيء، ما زال فيه الكثير، الليل في أوله».

توقف عند محطة وقود، ليس لأجل الوقود، وإنما دخل السوبر ماركت، وعاد بالمثلجات، وعلبتَي سبرايت، فوجئت بأنه جلب

مثلجات بطعم القهوة، الذي أحبه جداً، قال إنه سأل هشاماً عن الأشياء التي أحبها، يا اللّه، ما أجملهما، وما أسعدني بهما، أخ وحبيب معاً.

كان يقود غرباً، صوب البحر، باتجاه سانتا مونيكا، وصلنا هناك، حيث الشوارع خفيفة، نزلنا نمشي على الرمل، طلب أن أخلع حذائي، وأمشي حافية، كان يحمل في يده كيساً صغيراً، توقّف عند عمود إنارة، خلع العِقد من عنقي، وأخرج من الكيس سلسالاً ناعماً، لفَّه حول عنقي، واستدرت كي يوثقه، ثم احتضنني من خلفي وقبَّل عنقي، كنتُ خجلة منه، لا أعرف كيف أتصرَّف، اكتشفت أن ما كنت أظنه حبّاً في الرياض، لم يكن كذلك. حين وقف يتأمّل العِقد قال: «حلو عليك لأن عنقك الطويل يجمِّل أي شيء»، أجبت: «بل ذوقك كان جميلاً».

لم أكن أحكي، كان هو سيد الكلام، وعرَّاب الحب، يحكي عن البحر، عن جماله وبوحه، عن إلهامه للعشاق والمحرومين، قال لي وهو يضحك: «تعرفي؟ لو كنت امرأة لتمنيت أن ألد في البحر، أسهل للولادة، والجنين يتعلَّم السباحة بدري!».

«بسم اللّه على ولدي».

«الحين صار ولدك؟».

«ايه بس أنت تحمل فيه».

ضحكنا.

ثرثرنا طويلاً.

كنَّا نقف تحت عمود الضوء حينما اقترب من وجهي. عيناه مركبان يتأرجحان، احترت أيهما أصعد. اقترب أكثر، ودخت قبل

أن يلامسني، دخلنا في ملكوت اللذة خمس أو عشر دقائق، لقد توقف الزمن عندها، كنت أرفرف معه حتى ارتفعنا فوق العمود، وأصبح الشاطئ المضيء يرقص تحتنا كأغنية ناعمة، توقفنا ونظرنا معاً إلى البحر:

«أرجعك الشقة؟ الساعة 2 الحين»، سألني.

فزعت فجأة، فعلاً تأخّر الوقت ولم نشعر به إطلاقاً.

(17)

علينا ألّا نأخذ الحياة على محمل الجدّ!

لم أنم ليلتها، أو لم ننم معاً، قضينا الليل كله نتبادل رسائل الحب والغزل والوله، بدأها هو حينما أقفلت باب الشقة خلفي، فرنت نغمة الرسائل في جوالي:

«وحشتيني».

يا اللّه، لم أبرح مقعدي بجواره إلّا منذ دقيقة، فباغتني برسالته تلك، لم يكن سعود شاباً عادياً، بل عاشقاً محترفاً، استطاع أن يأكل قلبي شيئاً فشيئاً، كنا نخرج معاً، سعود وهشام وأنا، وأحياناً يكون معنا زياد، ابن عم هشام، الذي لا يحبّه سعود، ولم يرتح له أبداً، رغم أنه لطيف، وصامت معظم الوقت، ولا يؤذي أو يجرح أحداً، هل يغار من وسامته؟ أم لمح في عينيَّ نظرة غامضة حاولت أن أواريها عن هشام قبلاً، لا أعرف كيف يمكن قراءة ذلك في عيون الآخرين، سهولة اصطياد عينَين ذائبتَين، هل يشعُّ منهما شيء غامض أو خفيّ أو مكشوف؟

كان حبيبي يحكي عن زياد بشكل سيّئ، يسعى إلى أن أكرهه، رغم أنني لم ألاحظ عليه شيئاً، بأن تطاول عليَّ، أو تحرَّش بي،

كان يحكي عن تصرفات أراها طبيعية، لكنه يفسّرها بطريقته، ويعتبرها محملة بنوايا قذرة، وحين أحاول تهدئته وقول رأيي بحسن نيته، كان يغضب ويسفِّه رأيي، وأنني لا أعرف حيل الرجال وألاعيبهم، ثم تحوَّل مع الوقت إلى أن أصبح يطلب منيّ بألّا أحكي معه كثيراً، ولا أمازحه أو أضحك معه، صحيح أن غيرة حبيبي تسعدني، وأراعي ذلك كثيراً. وصحيح أن زياداً كان وسيماً، وربما وسامته تسرق نظراتي أحياناً رغماً عني، لكن حبي الكبير لسعود أقوى من وسامة زياد وجماله، وأقوى من كل إغراءات الرجال، كان سعود رجلي الوحيد، رجلي الأخير.

في عطلة نهاية أسبوع قرّرنا أن نذهب إلى ملهى ليلي. كنت أجلس مع حبيبي في المقعد الخلفي، بينما زياد يجلس أماماً بجوار هشام الذي يقود السيارة. بعد منتصف الليل خرجنا، ولم يكن مسموحاً لهشام قيادة السيارة بعد الشرب، ولا حتى زياد الذي شاركه، سلَّم هشام مفتاح سيارته لسعود، واستدار راكباً بجواره، بينما ركبت في الخلف بجوار زياد، فرفض سعود أن يقود السيارة إلّا بعد أن يعود هشام إلى الخلف، وأركب أنا بجواره، لحظتها غضبت منه:

«ليه طيب، ما فيه ثقة؟».

«إلا، لكن ما تركبين جانبه».

«سعود من يسمعك يعتقد أننا في خلوة، هذا هشام جنبك كله طاقة من كثر ما هو شارب، يعني أيش نسوي وراء وأنت تسوق؟».

«أنا قلت لا، يعني لا».

تلك كانت أول خصومة بيننا، وهي أول مرة أيضاً يفرض عليَّ شروطه علناً، وأمام الآخرين، وبالقوة، كدت أبكي لكنني تحاملت

على نفسي. كنت خرساء طوال الطريق، ورجلي اليسرى تنتفض غضباً، وعند بناية شقتي نزلت من السيارة وصفقت بابها بعنف. حين عاد إلى شقته اتصل بي، كان منفعلاً، فازداد غضبي أكثر، وصرت أصرخ بدوري، حتى أقفلت الخط بوجهه، بعدها لم أرد على اتصالاته، وتجاهلت رسائله. قرَّرت تأديبه بعد هذه الحركة التافهة، لكنه بعد يومين جاء عند باب شقتي. طرق الباب وقال إنه جاء يعتذر ولن يتحرك من هنا قبل أن يدخل، فتحت له، ودون أن نحكي عانقني بشغف، فاحتضنته طويلاً، كان معه المثلجات التي أحبها، وباقة ورد، وسواراً ذهبياً، حكى كيف عاد بهما تلك الليلة، وكيف استفزّه زياد حتى كادا يتضاربا بسببي:

«كيف استفزك؟».

«قال لي كلاماً رخيصاً، تخيَّلي قال إنك تحبينه، والدليل أنكِ عصَّبتِ عليَّ حين حرمتك من الجلوس بجواره».

لم أتوقع أن يستغل هذا الوقح غضبي بهذا الشكل، صحيح أنني ثرت وانفعلت، فليس مقبولاً أن يتحكَّم رجلٌ بي هكذا، حتى لو كان حبيبي، ولو أردت أن أفعل أي شيء لفعلت سواء مع زياد أو مع غيره، من يمنعني في بلاد حرَّة كأميركا؟ ولم أظن أن حرباً بين رجلَين ستقوم لأجلي، حيث كادا أن يشتبكا في السيارة، لولا تدخّل هشام بينهما. لم أتوقَّع هذا الشاب الصامت الوديع، زياد، أن يكون بهذا اللؤم وهو في حالة سكر.

بعد هذا الموقف الصعب، منعني سعود من رؤية زياد تماماً، أو التحدث معه بأي وسيلة، وإلى الأبد، واحتراماً له ولمشاعره، وحفاظاً على حبنا الكبير، قطعت على نفسي وعداً بذلك.

هل هذا الموقف عجَّل بشراء سيارة سعود؟ لا أعرف، ربما، رغم أنه منذ وصوله وهو يبحث عن سيارة تناسبه، فاشترى فورد بيضاء، وقرّرنا أن نحتفل بها، ونسافر إلى ثلاث مدن بصحبة هشام الذي لم تتغيَّر علاقته أبداً بسعود بعد الموقف مع ابن عمه، كانت وجهتنا شمالاً على الساحل نحو سان فرانسيسكو، قطعنا الطريق كله نثرثر ونغني ونصفِّق، كنَّا أطفالاً أشقياء، أطفالاً تخلّصوا من رقابة أمهم، أمهم البلاد، التي تترصَّد سكناتهم وحركاتهم. لقد كسر هشام مزاجنا الرائق وهو يذكِّرنا: «تخيلوا نفعل هكذا في طريق الدمام مثلاً».

حينما وصلنا سان فرانسيسكو اخترنا فندقاً متوسطاً، وأخذنا غرفة بسريرَين، ينام هشام وسعود معاً في سرير، وأنام أنا في السرير الآخر، وفي الليلة الأولى تسلّل سعود من سريرهما نحوي، قبَّل رأسي بامتنان: «عادي أنام جنبك؟».

أجبته: «لا».

رغم أننا وقعنا في حبنا الكبير منذ شهرين، لكنني لم أود بأن نغامر أكثر، وكان سعود مطيعاً تماماً، لا يناقشني أبداً حينما أرفض، فقط عن خاطره طلب أن يحتضنني لدقائق، وفعل ذلك لخمس دقائق، عانقني، بل هصرني بعشق، كانت أول مرة نعانق بعضنا ونحن متمددين، ومسَّ شفتَيّ بخفَّة، ثم عاد إلى سريره مع هشام.

كنت أتمنى أن أحتضنه أكثر، وأقبِّله بشكل أطول، لكن ضميري يمنعني أولاً، كما أن وجود هشام معنا في الغرفة نفسها يجعل الأمر صعباً، بل مستحيلاً، تذكَّرت كيت المجنونة، كيف كانت تفعل ذلك دون أن تهتم لوجود كائن ثالث اسمه رشا في الغرفة نفسها.

في صباح اليوم التالي تجوّلنا في المارينا، حيث المحيط الشاسع، كانت تمطر، ورشاش المطر يبلّل رأس هشام الذي كان يلبس معطفاً مطريّاً بنيّاً، بينما يلتصق بي سعود تحت مظلّة شفافة فوق رأسينا. توقفنا عند ستاربكس، وبينما جلست مع هشام في الداخل، خرج سعود يحمل المظلة وكوب القهوة السوداء، ويدخّن تحت المطر. كان يقول لنا حين عدنا للمشي، إن أعظم اللحظات هي أن تدخّن سيجارتك مع قهوة أميركية تحت المطر، وتساءلت بعتب: «وحبيبتك؟». ضمّني وهو يقبّل جانب رأسي: «اللّه يخلّي لي حبيبتي».

بعد ساعات من المشي الطويل تحت سماء غائمة وباردة قليلاً، وتحت مطر متردّد، يهمي، ثم يكفّ، ثم يهمي مجدّداً، كما لو كان يوشوشنا، قررنا أن نتناول الغداء في مطعم ووتر فرونت المطلّ على البحر، كان المكان مذهلاً، وكذلك الطقس والصحبة، يا لها من لحظة ممتعة إلى درجة أنني كدت أبكي، كنت منهمكة في تأمل حبيبات المطر المتراكضة فوق الزجاج، بينما يختصمان أمامي كطفلَين شقيَّين، إذ يتذمَّر هشام من رفس سعود له طوال الليل، وسحب الغطاء كل لحظة، التفت نحوي:

«خذي حبيبك جنبك وخلصينا من رفسه وإزعاجه».

تأملتهما باستخفاف:

«على غيري يا حلوين، أعرف هذي خطة منكما، لكن يمكن أن ينام أحدكما الليلة على الكنبة».

وهذا ما حدث فعلاً، أصبح هشام ينام وحده على السرير، بينما سعود ينام على الكنبة!

كانت أيامنا كلها ضحك وسعادة، حينما نخرج ليلاً، كنت أتباطأ في خطواتي خلفهما، وأتركهما يسيران أمامي، وأحياناً يسهو أحدهما، فيمسك بيد الآخر، فأسخر منهما، بأنهما يشبهان مثليَّين جميلَين في مدينة سان فرانسيسكو التي تشتهر بالمثليين، وسرعان ما يفكّ سعود يد هشام وهو يلتفت نحوي: «يا لئيمة»، لم تطل إقامتنا في سان فرانسيسكو لما يبديه سعود من كره شديد لهؤلاء، فلم يستطع تحمُّل تلك المشاهد الفاضحة، خاصة حينما نجدهما يقبِّلان بعضهما بعضاً.

سرنا إلى سان خوسيه التي تبعد عن سان فرانسيسكو أقل من ساعة، كنا جائعين. توقفنا عند مطعم دش داش، وانتظرنا لدقائق حتى تشغر طاولة، حين انهمكنا نقلِّب صفحات قائمة الطعام، سألت هشاماً عن مكونات وجبة ما، فلم يجب، رفعت رأسي ولم أجده على مقعده. أدرت رأسي للخلف، فلمحته يقف بجوار طاولة يحادث فتاتين، قلت لسعود: «صديقك هذا ما هو صاحي»، ضحك وهو يقول: «ما شفتِ شيء، أعرفه من سنين ما يهمه شيء، حكمته أضحك للدنيا تضحك لك». كان غريباً هذا الآدمي، بكل سهولة يفتح حواراً مع الآخرين، وخلال ساعة يقيم علاقة معهم، ثم يصبحون أصدقاءه في الصباح التالي، لم أكمل تفكيري حتى عاد ومعه الفتاتان، طالباً مقعدَين إضافيَّين لهما، عرّفنا إليهما: «شمسة وشيخة»، رحبنا بهما، كانتا قد فرغتا من الأكل، حين سألتهما ممازحة: «لا يكون صاحبنا قطع عشاءكم؟»، ضحكتا وهما سعيدتان به، وبسخريته وتعليقاته.

كانتا طالبتي بكالوريوس في سان فرانسيسكو، وتنتظران قبولاً

في جامعتنا بلوس أنجلوس، عرضت المساعدة عليهما، فشكرتني شمسة وهي تقول إن هناك بعض أصحابهما يسعون لذلك، لكنهما بادلتانا أرقامهما، لنكون معاً حينما تقيمان في لوس أنجلوس.

كانت شيخة أكثر اتزاناً، تبتسم بخفر، بينما شمسة ضحوك لا تكفّ عن التعليق والسخرية، ملامحها أجمل من شيخة، وربما أكثر ثقة منها، شعرها قصير ومنفوش، تشبه فرساً توقّف عن الركض قبل قليل، واندمجت مع هشام بسهولة، كأنهما قُدَّا من عجينة واحدة.

عدنا، وقد تغيّبنا يومَين عن الدراسة، لكن المتعة التي عشناها تستحق، كنت أفكِّر أحياناً بمنطق هشام، بأن علينا ألّا نأخذ الحياة على محمل الجدّ دائماً، لكنني للأسف لا أستطيع، أفكِّر كثيراً بكل شيء حولي، أفكِّر بأهلي، بأمي، بمعاناتها مع أبي، وزوجته فتيحة، أخوتي، أفكِّر كثيراً بالمستقبل، وربما أعقِّد الحياة أكثر ممّا هي معقَّدة، ربما القدر وهبني هشام ليخفِّف عني هذه الجدِّية والتعقيد، رغم أنني لم أتغيَّر كثيراً.

أحياناً أشعر أن سعوداً يشبهني كثيراً في حساسيته، وقلقه، وحتى حبّه. هو ما أتمناه، حيث الحب الذي يتملكني، يغار عليَّ، يحيط بي، ويغمرني باهتمامه الكبير، يمسح على شعري، ويقبِّل جبيني، ويلثم يدي كلما رآني، يداعبني ويغازلني، كنت أنثاه المنضوية تحت ذراعه رغم قوتي، كنت طفلته وأمه معاً، وكان رجلي القوي رغم حساسيته وشاعريته، وطفلي المستكين والعنيد في الوقت ذاته.

(18)

لماذا لا أحد في البيت؟

في ليل شتوي من 2007، أنهيت كتابة ورقة عمل لأقدّمها في محاضرة اليوم التالي، ثم قلت لنفسي وأنا أصنع حساء الشوفان سأتصل بأمي، لكنها لم تجب، فأرسلت لها رسالة ولم تردّ أيضاً، اتصلت بأبي ولم يجب، فأرسلت له ولم يردّ أيضاً، بدأت أشعر بالقلق، فاتصلت عدة مرات على هاتف المنزل الثابت، ولم يجب أحد، يا إلهي، ما الذي يحدث في بيتنا من خلف قارتَين ومحيط، ما الكارثة التي حلَّت بهم، جزمت أن ثمة أمراً مخيفاً، اتصلت بأختي زهرة: «أين أنتم؟ قلقت عليكم».

«في بيت جدِّي».

«لماذا لا أحد في البيت؟».

«عندنا عزاء».

لحظتها كدت أسقط خوفاً:

«عزاء من؟».

«خالتي».

أقفلت وانهرت أبكي، بكيت كما لم أبكِ من قبل، خالتي رفعة

توفيت وأنا في بلاد غريبة، لا أبكي معهم، ولا أشاطرهم، بل من يشاطرني الحزن وأنا هنا وحيدة؟ انفجرت أبكي بصوت عالٍ، كنتُ مفجوعة، ما أصعب الموت وما أقساه حين تكون وحيداً، كنت محشورة وأكاد أختنق رغم برودة الخارج، ارتديت معطفي ولففت شالي وخرجت، كنت أهيم في شارع ويلشر ليلاً وأبكي، أمشي في الشوارع الهادئة وأبكي بحرقة، جلست على مصطبة، واتصلت بحبيبي، حاولت أن أحكي، لكنني فشلت، كنت أجأر وأرتعد برداً، كان مفجوعاً، يريد أن يفهم: «طيب اهدئي، أين أنتِ الآن؟».

لم تمضِ دقائق حتى توقف أمامي بسيارته الفورد، ونزل راكضاً نحوي، كنت أرتجف برداً وبكاءً، احتضنني، وأركبني بجواره، وبدأ يواسيني ويقبّل يدي، ويطمئنني بأن هذه هي الدنيا، لن يبقى أحد، كلنا سنموت، وبعد ساعة هدأتُ قليلاً:

«سنعود للبيت»، قلت.

«كيف أتركك بهذه الحالة؟».

«لن تتركني الليلة، تنام عندي».

منذ تلك الليلة دخل سعود شقتي، كما دخل قلبي من قبل، ولم يخرج، فحينما وضعني على السرير جلس بجواري، وهو يمسد على رأسي، فشعرت بالدفء ونمت.

حين استيقظت صباحاً، وجدته فرش لحافاً على الأرض ونام، كم كان نبيلاً هذا السعود، لم ينم معي على سريري، رغم أنني لم أطلب منه ذلك. نهضت ومسحت جبينه، ففتح عينَيه، وطلبت منه أن ينام على السرير:

«لماذا لم تنم على السرير؟».

«لست أنا من يستغل الظروف».

«لكننا لن نفعل شيئاً، سننام بهدوء».

غفا، وانهمكت أصنع قهوة وأحمِّص شرائح توست، وأدهنها بزبدة الفول السوداني. التقطت جوالي، ووجدت عدة اتصالات ورسائل من أمي وأبي، ثلاث رسائل من أمي، آخرها تشدِّد عليَّ أن أتصل بها حالما أصحو إن كنت نائمة، ترددت، خشيت أن ينهض حبيبي وأنا أحادثها فيحكي دون قصد وتسمعه. أكملت القهوة والإفطار، جلست بجواره وأيقظته، فلما دخل الحمّام هاتفت أمي، وبكيت حتى علت شهقاتي، كنت لا أبكي خالتي رفعة، وإنما أبكي حزن أمي، فنحن لا نبكي الموتى إذا ماتوا، لكننا نبكي الأحياء إذا حزنوا وتفتتت حناجرهم من البكاء المرّ، بكاء الفقد واللوعة، وربما وخز الضمير وعذابه على التقصير مع الميت.

أنهيت مكالمتي، وما زلت أنهنه، بينما خرج هو من الحمّام، واحتضنني بقوة وهو يقبِّل رأسي، جلس أمام الإفطار، فرشت على حضنه منديل المائدة، وسكبت له فنجان قهوة، وجلست:

«تعرفين رشا؟ أتخيل لو أعيش معك في شقتك».

«هذا ما سيحدث»، أجبت.

سحب يدي ولثمها وهو يغمض عينيه.

منذ تلك الليلة أصبح سعود ينام في شقتي، وانتقلت ملابسه وأغراضه شيئاً فشيئاً إلى شقتي، وأصبحتُ أصنع فطوره الصباحي حتى لو كانت محاضراتي بعد الظهر، فقد كان يصحو في السابعة كي يلحق دروسه في الثامنة، فأصحو معه، أجهّز الحمّام ليستحم، أعدُّ له الإفطار، أكوي ملابسه، حتى تحولنا مع الوقت إلى زوجَين فعلاً،

حتى ملابسه الداخلية أقوم بغسلها وتنشيفها وكيها، وأحياناً أقربها من أنفي، فأشم رائحته، وأبتسم.

كنت أذهب للجامعة ظهراً، وأبقى هناك حتى الخامسة، بينما يعود هو في الثالثة عصراً إلى البيت، وحين أعود بعده بساعتين نخرج معاً، ونصطحب هشام معنا لعشاء مبكِّر، أو نزوره في شقته لنسهر معاً، خاصة حين يدعونا إلى كبسة دجاج نشم رائحة الرز «البيشاور» لحظة صعود الدرج، أو نبقى في الشقة نشاهد فيلماً، أو ننجز واجباتنا.

كان سعود يعشق المسرحيات كثيراً، ولا يملُّ مشاهدتها، فاشتريت له جهاز عرض وشاشة كبيرة، وكذلك نظاماً صوتياً، وضعتها في شقته ذات الشرفة الجميلة، كي يستمتع بمسرحياته المفضَّلة بنظام السينما، لكن الشقة مع مرور الوقت تحوّلت إلى ملتقى للأصدقاء والسهر، بعدما أضاف لها سعود إضاءات ملونة وهادئة، ورغم أنه كان صديقاً متفهِّماً، ومتسامحاً أيضاً، ولا يمانع بدخول الشراب إلى شقته، إلا أنه يرفض تماماً دخول قطع الحشيش، ولا يقبل أبداً وجود حشَّاشين في شقته، سواء عرباً أو أجانب.

كان حريصاً على أن يُسعد الأصدقاء، ويلبّي رغباتهم، فذهبنا ذات يوم إلى متجر للألعاب، واخترت له لعبة الشباب المفضَّلة «فروزبي»، مجموعة لاعبي كرة القدم الصغار التي تُلعب باليد، فأصبحت الشقة ملاذاً للمتعة والتسلية، وصارت السهرات يومية تقريباً، نعود بعدها إلى شقتي التي صارت شقتنا معاً، لننام، بعد أن أنفقت عليها معظم نقودي المدَّخرة، كي أكمل تأثيثها، ولم يتبقَّ معي من نقود شراء السيارة سوى أربعة آلاف دولار فقط.

كنت أهتم بكل تفاصيل سعود، صحيح أنه يحبُّني بجنون، ويهتم بي، لكنني أهتم به بطريقتي، أقلِّم أظفاره، وأحلق ذقنه، وأقصُّ شاربه، وأغسل ملابسه، وأجهِّز طعامه، كنت حبيبته وعشيقته، طفلته المدلَّلة، وزوجته المؤجّلة، فرغم أننا نسكن في الشقة ذاتها، بل في الغرفة نفسها، كان سعود رجلاً وفيّاً، ومحافظاً على ميثاقنا الأول، بألّا يحدث بيننا شيء، ولو سطحيّاً، فأقصى ما نفعله يحتضن أحدنا الآخر، ونقتات بالقبلات العميقة، ونستمتع بلحظات حبّ دافئة.

مرَّت الأيام بين الجامعة والمعمل والمختبر، والسينما، والسهر مع الأصدقاء والصديقات، حتى اتصل بنا هشام ذات مساء، ودعانا إلى عشاء على شرف أصدقاء، قال إنه سيعرِّفنا إليهم، كان هشام حجز طاولة لخمسة، وحين دخلنا مطعم كليو هوليوود، وجدنا هشاماً جالساً مع الفتاتين شمسة وشيخه اللتين تعرَّفنا إليهما في سان خوسيه، صحتُ فرحاً بوجودهما هنا في لوس أنجلوس، حيث تمكّنتا من الانتقال إلى جامعة كاليفورنيا لوس أنجلوس أخيراً، لم يتخلَّ هشام عن صخبه وجنونه ومفاجآته، دائماً يحب أن يفعل ما هو خارج المألوف.

حين خرجنا من المطعم ودَّعناهما على أن نلتقي، ظننت أنهما جاءتا مع هشام، لكنهما اتجهتا نحو سيارة شمسة من طراز أودي 230، سوداء وأنيقة.

كنت بدَّدت مالي بين الأثاث والسفر، ولم أشترِ سيارة بعد، لذا فكرت بأن أخترع لأبي حكاية جديدة، مثلاً لديَّ مشروع بحث عملي يحتاج إلى المال، وكذلك سداد سكني مع العائلة، كانت فكرة ذكية

حصلت بها على مبلغ جيد، أضفته على ما تبقى لديَّ، لكنني حين ذهبت مع سعود لشراء سيارة اكتشفنا أن النظام الأميركي لا يسمح بتسجيل سيارة باسم شخص لا يحمل رخصة قيادة، فاضطررنا إلى تسجيلها باسم سعود واسمي معاً، كانت سيارة صغيرة من فورد، على لوحتها اسم كاليفورنيا بخطّ أحمر وحرّ، وحروف كبيرة، وأرقام زرقاء حفظتها عن ظهر قلب، بل وضعت صورتها كمعرِّف في حساباتي بمواقع التواصل الاجتماعي.

حين يمعن الليل، وتهدأ الشوارع، كنَّا نخرج معاً، حيث يدرِّبني حبيبي على القيادة، تعلَّمت سريعاً، أسرع مما توقَّعت، لكنني فشلت في الاختبار الميداني، بسبب طريقة إمساكي بعجلة القيادة، وكذلك عدم قدرتي على ضبط السرعة على رقم محدّد، في حين تجاوزت الاختبار النظري ببساطة بعد أن جئت وقد حفظت جيداً معاني العلامات وإشارات الطرق، لكنني نجحت بعدما دخلت الاختبار للمرة الثانية، وأصبحت سائقة بشكلٍ رسمي، أستطيع قيادة سيارتي الصغيرة وحدي، وفي أوقات عادية.

في المساء قرَّر سعود أن نحتفل بعشاء خاص بمناسبة حصولي على الرخصة، كان مبتهجاً حين ركب بجواري: «الآن أنتِ سائقة نظامية». قدتُ السيارة في شارع صانست، ولففت قليلاً في الشوارع الداخلية، حتى وصلت شارع نورث كانون المتفرِّع من ويلشر، فتوقفت أمام مطعم سباجو، بوجباته المحلِّية من كاليفورنيا.

كنت أدرك أنه يجب عليَّ قيادة سيارتي الفورد فيوجين في الطرقات، كي أتعلَّم سريعاً، كانت كلمة «سيارتي» غريبة، وجديدة على لساني، أتلعثم حين أنطقها، مثلما تتلعثم عروس حينما تقول

أمام الناس: «زوجي». في اليوم التالي استأذنت حبيبي أن أخرج مع شمسة وشيخة ليلاً. كنا سعيدات ونحن نطوف الشوارع، بينما شمسة تغني بصخب مع جوالها: «دان دانه اللي دانه دان هو داني، يروح في السدريك صوب المحابيب»، لم أكن أعرف أغنية الجسمي هذه، ولا كلماتها، لكنني أصفِّق معهما بمتعة كلما وقفتُ عند إشارة مرور، وأنا أبتسم لشمسة التي تجلس في المقعد المجاور لي، وتهزُّ كتفيها بسلطنة، كنت أرى ملامحي في وجوه المارة، كما حين أمشي على الرصيف، وأشاهد الفتيات والشبَّان من خلف زجاج نوافذهم المقفلة، وهم يغنون ويرقصون بجنون، فلا أرى سوى أفواههم، وأجسادهم تهتز بمتعة، دون أن أسمع شيئاً مطلقاً.

كنتُ مبتهجة معهما، وأشعر بثقة كبيرة في نفسي، مررنا بسوق ذا غروف، ثم تعشينا في مطعم كرافت، وفي الطريق صوب سكنهما طلبت شمسة أن أتوقف عند شقة أصدقاء خليجيين، وقبل أن تنزلا اقترحتا أن أنزل معهما لوقت قصير، كنت متردّدة قليلاً، لكني خجلت أن أستشير حبيبي أمامهما، فوافقت، ونزلت معهما.

حين دخلت من باب الشقة كان ثمَّة دخان، ورائحة ماريجوانا حادّة تسلَّلت إلى أنفي، لم يكن لائقاً أن أخرج مباشرة، كنت خجلة من صديقتَيّ، صافحنا ثلاثة شبّان، وفتاتين معهما، كلهم يعرفون شمسة وشيخة، كنت الوحيدة الغريبة بينهم، سألني أحدهم، أظن اسمه سالم، وقد كان دائخاً: «تبين ويد؟» هززت رأسي بالنفي، وقلت له: «حتى دخان ما أدخن». في البدء كنت خائفة من حالتهم، وكنت أتصيَّد لحظة لأستأذن بالخروج من هذا الوكر، لكنني مع الوقت شعرت أنهم رائعون، كانوا يدخنون ماريجوانا، واكتشفت أن

شمسة أيضاً تدخّن، بينما شيخة لم تكن تدخِّن أبداً، والضحك لا يتوقف، نكات وراء نكات، اقترح أحدهم، اسمه مبارك، أن نشاهد فيلماً، سهرنا على فيلم حركة، ثم استأذنتُ منهم وخرجت.

رجعتُ إلى الشقة، فسألني سعود عن مشوارنا، حكيت له كل شيء، فغضب وثار في وجهي صارخاً: «كيف تسهرين في شقة شباب؟»، حاولت أن أتكلّم، لكنه لم يتوقف: «المفروض أول ما شممتِ رائحة ويد ما تدخلي أصلاً». كان هائجاً كثور، لأول مرة أرى عينَيه تستشيطان غضباً، ما جعلني أثور وأغضب أكثر منه، كان يصيح بي، فأصرخ بدوري بجنون، وأتهمه أنه يتدخَّل بحياتي، بأنفاسي، بكل شيء حولي، لم يهدأ، بل ازداد انفعالاً وجنوناً، حتى طردته:

«لا أريدك ولست حبيبتك إذا تصرخ في وجهي هكذا».

بغتةً، ساد الصمت.

«تطردني؟»، قال ذلك بهدوء بينما أنفاسه تتلاحق كمن توقّف بعد سباق ألف متر.

جمع أغراضه خلال دقائق معدودة، ثم خرج سريعاً، وصفق الباب خلفه.

جلست على الكنبة ألهث، ولممت ركبتي إلى صدري، غارسة رأسي الثقيل بينهما، ثم انهرت أبكي، أبكي بحسرة وقهر، لا أعرف كيف وجدت نفسي في الفجر مرمية فوق الكنبة، وقد أيقظني البرد القارس المتسلِّل إلى عظامي.

(19)

لن يخبئ شيئاً

لم أتصل به، ولم أعتذر، أنا لستُ عنيدة لكنني لم أخطئ حتى أعتذر، لم أشرب، ولم أدخّن ماريجوانا، ولا شيشة، بل لم أدخِّن السجائر العادية، ولم أخُنه مع رجل، بل لا أفكِّر إطلاقاً بذلك، ولا يعني جلوسي مع هؤلاء أنني مثلهم، ولستُ وصية على الآخرين، فكلٌّ حرٌّ في تصرفاته، وأنا أيضاً حرَّةٌ في تصرفاتي، ما يهمني في هذا العالم هو ألّا يؤذيني أحد، وفي المقابل لا أملك أن أمنع أحداً من أن يؤذي نفسه، ويرتكب ما يشاء من حماقات، فلم أنتقد كيت حينما كانت تمارس الجنس بعشوائية مع الشباب، بل تدخلهم إلى غرفتنا المشتركة، لم أمنعها مع أنني أستطيع، ومن حقّي منعها لو أردت، بأن أرفع شكوى إلى إدارة السكن، كما لم أمنع هشاماً من الشرب مع أنه في مكانة أخي، وصديقي الحميم، وكنت أستطيع ذلك على الأقل حين نكون معاً، لأنني أعرف أنني تجاوزت حدودي وتدخّلت في خصوصياته وسلوكه الشخصي.

لذلك لن أتصل به أبداً، بل عناداً فيه استمرّت علاقتي بشمسة وشيخة، وتوثَّقت أكثر، خاصة شيخة التي تشبهني كثيراً، أفكارنا

متشابهة جداً: «وش علينا من الناس، وش على الناس منّا»، هكذا كان مثالنا في الحياة، بل حتى ظروفنا كانت تتشابه، لديها حبيب خليجي تحبّه كثيراً، ويبادلها الحب، ويشاركها السكن، ومع ذلك لم ترضَ أن ينام معها، لكنها اكتشفت أنه يكلِّم بنات أخريات، فتركته بحزم، دون أن تضعف أو تنهزم أو تنكسر، كانت شخصيتها قوية وملهمة، أجدها نموذجاً جميلاً، خلافاً لشخصية شمسة اللعوب، التي تبقى على علاقة بأربعة شبّان في وقت واحد، وتُبدي لكل واحد منهم أنها تحبّه، ولا تعرف غيره، تكذب على الجميع، وتمارس معهم كل شيء، تكسب منهم المال والهدايا والحب، كانت جريئة، بل متهوِّرة جداً.

منذ طفولتي كنت أتعرَّف إلى بنات الصف، أصادقهنّ ببساطة، وفي أميركا كنت أخرج مع أصدقائي وصديقاتي، لكنّ سعوداً لا يقبل أن أخرج مع خليجيين غير أصدقائه، ويوافق على خروجي مع أصدقاء من جنسيات أخرى، يعتقد أن الخليجي لا يرى في البنت غير جسدها، وأن هذا الجسد مكانه السرير، بينما الرجل الأجنبي يفرِّق بين الصديقة والعشيقة، طبعاً بعد خصامنا بأسبوع تقريباً عدت امرأة عادية وحرَّة، أعيش حياتي بشكل طبيعي، أخرج مع أصدقاء خليجيين، وأقبل دعواتهم، لكنني أحافظ على كل مبادئي كما أنا.

ذات مرة، كنت في مطعم مع شمسة وشاب كويتي عرَّفتني إليه، اسمه بشار، كانت جلسة عشاء عادية، أحاديث وضحك، لكن أحد أصدقاء سعود شاهدنا معاً، ونقل له أنه رآني مع شاب كويتي، فجنَّ جنونه، وأصبح يتتبّعني، حتى كنت يوماً مع مجموعة أصدقاء، شيخة

وشمسة وشباب خليجيين بينهم الكويتي بشار، في طريقنا إلى شقتهم، وما إن توقفنا في شارع صانست، تحت العمارة، حتى اندفع نحوي هائجاً، لا أعرف من أين جاء، ولا من أين هبط، كأنه شهاب خطف فجأة من السماء، فالتقطني من معصمي بحدَّة.

«تعالي معي»، قال وهو يكزُّ على أسنانه.

خفت، ولشدة خجلي من أصدقائي، اضطررت للسير معه حيث جذبني، لم يكن سعود الذي أعرفه، كانت يده ترتعش، وعيناه حمراوان، فيهما شرر وجنون، حين ابتعدنا عنهم، وانعطف بي سيراً من طريق جانبي:

«تخونيني؟».

«ما خنتك».

«والكويتي؟».

«هذا بشار صديق شمسة».

«أنا سمعت أنك تطلعين معه».

«وربي ما طلعت معه وحدي، اللّه يحرمني من شبابي، رح اسأله».

فجأة انهار يبكي، تحوَّل إلى سعود الطفل الذي أعرفه. التقط يدَيّ وهو ينتفض، وصار يقبِّلهما ويبكي بسخاء: «رشا أحبك، أرجوك لا تتركيني، أبوس رجليك»، وانحنى عند أقدامي -ونحن نقف على الرصيف أمام كوفي بين- ليقبِّلهما، فنزلت معه وضممت رأسه إلى صدري، فمستحيل أن أسمح له أن يفعل ذلك، لمحت في داخل المقهى شاباً أسمر أمام جهاز لاب توب، توقف عن الكتابة، وجعل يحدِّق بنا، قمت ورفعت سعود معي:

«تعال للبيت».

تناولت مفتاح سيارته، لأقودها بدلاً عنه، اتصلت بشمسة لأعتذر منها، فجعلت تضحك بلؤم:

«اشتقتِ لذاك الكبير».

«ما تقدرين تصبرين! ها؟».

وعدتها أن أتصل بها لاحقاً، وأقفلت الخط، لكنني فتحت ألف خط ودهليز في رأسي، وبقيت عباراتها ترنُّ في ذهني، كيف تعرفه وتصف حجمه، هل فعلتها ونامت معه؟ أعرف أنها لا تتردد بفعل أي شيء يخطر في بالها، ولا تشعر بأي ذنب، كانت تردِّد أنها «تسمع بشيء يُدعى الضمير»، حتماً وراءها حكاية حزينة أوصلتها إلى أن تطلق حرية جسدها بهذه الفوضوية، كل هذا لا يعنيني، ولا تهمني حياتها ولا تصرفاتها، لكن كيف عرفت؟

كنت أوسوس في داخلي، ولكن لم يكن سهلاً أن أسأله عن هذا الأمر، وخصوصاً أننا تصالحنا للتو، ونعيش أجمل لحظاتنا بعد هذا الخصام، وقد يفتح سؤالي جبهة جديدة لحرب ثالثة، فخصامي الأول معه كان بسبب ركوبي في الخلف بجوار زياد، والثاني بسبب دخولي تلك الشقة المشؤومة، ولسنا بحاجة إلى صراع آخر.

قلت لنفسي، سأفكِّر كثيراً، وسأتعب ما لم أحسم الأمر، يجب أن أفعل ذلك، ويجب أن أباغته كي لا يفلت، وقع السؤال عليه فجأة سيوضّح لي الأمر:

«سعود».

«عيوني».

«فيه شيء بينك وبين شمسة؟ قل الصدق، وما أزعل». قذفت الكلمات كلها في وجهه دون تمهيد. تردَّد وتلعثم:

«ليه؟ أيش قالت لك؟».

لحظتها شعرت بانقباض معدتي، وأيقنت أن في الأمر رائحة خيانة فعلاً، لكن يجب أن أتأكد، وأحافظ على ما تبقى من أوراقي:

«أنت قل لي أولاً. هي قالت أشياء أقولها لك بعدين».

هكذا عصفت به من جديد، جعلته هو من يفكِّر ويشوّش رأسه، لقد بعثرته تماماً بعباراتي تلك:

«أوكي».

ثم حكى لي أنه حين تخاصمنا، وخرج غاضباً، فكَّر أن يذهب إلى شمسة التي ضللتني، وأغوتني بالسهر في شقة الشباب، فاتجه إلى شقتها، كي يتفاهم مع الأفعى -كما يصفها- حينما فتحت له الباب، لم تكن شيخة في الشقة، فجلس في الصالة يهدِّدها ويتوعَّد إن كرَّرت ذلك معي، ويخبرها أننا نحب بعضنا، وأنه يغار عليَّ من الآخرين، وبيننا اتفاق على الزواج، فعلاقتنا ليست لهواً وتسلية. كانت تبتسم ببرود، ثم قالت فجأة:

«أحس الجو حر».

ثم بحركة سريعة خلعت القميص الذي ترتديه، وبقيت ببنطال الجينز ومشد الصدر، وأكملا الحوار، حيث كانت تشرح له أن دخولي في هذا الشقة كان للتسلية والضحك مع أصدقاء، وكل شخص حُرّ في تصرفاته، ثم فجأة استأذنته، وعادت بعد دقائق بلباس داخلي، فطلب منها أن تلبس: «واللّه الجو مرة حار»، ثم جلست بجواره، وحينما لمحته يتمدَّد، مدَّت يدها نحوه لتمسك به، خشي

أن يلعب به الشيطان، ففزَّ خارجاً من الشقة فوراً، ولم يعد يكلمها نهائياً.

«أيش قالت لك؟».

سألني، وأخبرته بعبارتها البذيئة والساخرة، ورغم اعترافه لم أتخلَّص من الشكّ، هل ما حكاه هو الحقيقة؟ هل خرج من عندها فوراً، أم أنه بقي وحدث ما يشوّش ذهني؟ هل كان الشيطان معه ذاك المساء، أم أن الشيطان يربض في عقلي؟

كنت أحترق غيظاً، كيف تتحرَّش به ببساطة، هو رجل وطبيعي أن يحدث له ما حدث بعدما أثارته، كنتُ غاضبة منها أكثر من غضبي عليه:

«ليه ساكتة؟ زعلتِ؟ أنا آسف».

«لا أبداً ما زعلت، اللّه يهديكم، ولو تحب تنام معها أنت حرّ، أنا لن أنام معك».

«مستحيل، أعوذ باللّه، أنا معي القمر»، والتقط يدي يلثمها من جديد.

توقفت عند محل داخل محطة، وعدت له بشراب ريد بول مقاس كبير، كنت أعرف أنه يحبه:

«أنت تصالحني بآيسكريم، وأنا أصالحك بمشروبك المفضَّل».

قال ممتناً:

«اللّه لا يخليني منك».

«آمين، ولا منك حبيبي».

كانت الحادية عشرة ليلاً، وقد تذكَّرت حديقة هارولد بارك

القريبة، بملاهيها وأراجيحها الصغيرة، فكَّرت أنه لا يوجد أطفال في هذا الوقت المتأخّر:

«نروح الحديقة هنا؟ نلعب بالأراجيح وننبسط؟ كلها كم سنة ونرجع لبلاد الملل».

«لن تكون بلاد ملل، ستكون أجمل بلاد الدنيا، لأننا سنكون معاً، وأنتِ زوجتي وأم عيالي».

ذهبنا إلى الحديقة، أمسك لي أرجوحة، وصعدت، فدفعني كذا مرة، ثم ابتعد قليلاً، كي يُجري مكالمة، وحينما عاد قال لي:

«تسلّم عليك الوالدة».

«تعرفني؟»، قلتها ضاحكة وأنا ما زلت في الأرجوحة.

صعد الأرجوحة بجواري، وهمزها بقدميه وهو يقول:

«أخبرتها عنك، وقلت لها إنني أحبك، وسأتزوجك».

لا أعرف كيف أصبحت الأرجوحة جناحَي حلم يطير بي في سماءات لوس أنجلوس، كنت أطير دهشةً وسعادة، وتطير من حولي فراشات ملوَّنة، هل سيصبح حلمي حقيقة قريباً، سأعيش مع زوجي وحبيبي سعود، هل سننجب أطفالاً؟

كانت الأحلام الجميلة تزفُّني تلك الليلة، وسرنا نحو شقته، كي نستعيد أغراضه مجدَّداً قبل أن نعود إلى عشّنا الصغير، نزلت معه، وأخذنا ما يحتاج إليه من بيجاما وملابس وأدوات الحلاقة وغيرها.

حينما دخلنا شقتنا، عانقني من جديد، وهو يهمس:

«افتقدتك».

«أنا أيضاً افتقدتك».

صنعت له عشاءً خفيفاً، وما أن تمدَّدت على السرير، حتى

تبخَّرت أحلامي من النافذة، وعادت إلى ذاكرتي شمسة الملعونة، كيف استطاعت أن تفعل ما عجزت عنه، رغم أننا ننام في شقة واحدة لأشهر، كيف مدَّت يدها القذرة إلى ملكي وتفحّصته، كنت أتمنى في داخلي أن ألمسه، لكنني أخجل أن أفعل.

أغمضتُ كأنني نائمة، وحينما أحسست به نائماً بجانبي، رميت يدي هناك كما لو كان من غير قصد، كان نائماً، كذلك هو كان محشوراً، فتأوَّه حبيبي، وأبعدت يدي فوراً، قلت لنفسي، في الصباح تستيقظ الأشياء، وسأراه حينها، لكنني نمت، فنهض هو قبلي، ودخل الحمّام.

في اليوم التالي، استيقظت شمسة معي، كلماتها، وإيحاءاتها، وخبثها الذي قهرني، كنت قرَّرت أن أسألها عمَّا حدث، كي أسمع الرواية منها، لكنني خشيت أن أغضب وأخاصمها، وتكبر المشكلة، وأفقد صديقتي شيخة، وقد ملأت أيامي. فكَّرت في هشام، وأن أفاتحه بما حدث، ولكن كيف أسأل رجلاً عن موضوع كهذا، هذا لا يليق أبداً، فعلاً من المخزي أن أسأل صديقي الحميم عن شأن ذكوري كهذا، وخاصة شخص ساخر ومتهكِّم مثل هشام الذي سيتندَّر عليَّ، ويقلب الأمر إلى أضحوكة وسخرية دائمة!

ليس سهلاً أن يقضم الشكّ قلبك، وريداً وريداً، ويزداد الأمر سوءاً لو تكوّمت وسجنت نفسك داخل قفص هذه الشكوك، يجب أن أتجاوز الأمر، وهذا ما فعلته، عدت أستمتع بالحياة مع حبيبي، ومع أصدقائنا هشام وشيخة وشمسة، وأصدقائهما سالم ومبارك وسيف، وأحياناً نخرج وحدنا من باب التسلية إلى ملهى، لمشاهدة راقصة التعرّي وهي تتماوج بجسدها، وأحياناً تجلس في حضنه، فأضحك

بجنون، ربما كنت أضحك كي أطرد غيرتي، لا أعرف، لكنني كنت أرى شيئه يكبر ويتجبَّر، وفي داخلي أتساءل كيف سيكون من غير حجاب، حتى جاءت لحظة غير مقصودة ذات صباح!

كنت أعددت الفطور وأيقظته، فدخل يستحم، وبينما أنتظره طلب مني منشفة كانت في خزانة الملابس، وظننت أنه يستحم خلف ستارة الحمّام، لكنه لم يكن كذلك، ففتحت الباب، ورأيته.

خرجت مرتبكة، وصفقت الباب خلفي، ثم دخلت غرفتي ولم يزل المشهد أمام عيني، حتى هذه اللحظة، بعد مرور سنوات من تلك الحادثة.

عدت إلى غرفتي وقلبي يدقّ، لست باردة، بل أحترق كجمرة، لا أعرف، هل أمتلك قدرة هائلة على السيطرة على نفسي، أم يمنعني الخوف، أو أن الاتفاق بيننا على الزواج يحدُّ من إطلاق رغبتي، والمغامرة أبعد، لئلا أكون في نظره امرأة لعوب وغير مأمونة، كنت أستعيد المشهد، لكنني للأسف لم أستعده وحده، بل مصحوباً بضحكات شمسة اللئيمة تحلّق حول أذني كالدبابير، تطنُّ بإلحاح، اللعنة عليها، لماذا تحضر الآن، وتقتل لذَّة المخيِّلة؟ كم هي مذهلة المخيِّلة، تدير الذكريات ببراعة كما لو أننا أمام نافذة قطار يسير بسرعة مئتي ميل في الساعة، وحينما يأتي المشهد المؤذي يتوقف القطار فجأة، ولا يبقى أمام النافذة سوى ذلك المشهد، كنتُ كذلك في غرفتي، بل اخترعت مشاهد جديدة ربما لم تحدث، تخيّلتها معه، بجنونها وشبقها، لا، ليس هكذا، سأعود إلى مشهد الحمّام الذي حدث قبل قليل، كيف كان حبيبي يقف بكل جمال ورجولة، كان صوته يدعوني:

«رشا تعالي افطري».

جلست معه، أناوله كل شيء، لا أتركه يفعل شيئاً ما عدا كوب القهوة في يده، لم يضحك أو يعلّق على دخولي المباغت أثناء الاستحمام، ربما فعلها بقصد، كي يثيرني.

كنتُ أنثى غيوراً، لكنني أكتم هذه الغيرة بإصرار، حين يحادث فتاة، لكن غلياني يصبح جحيماً حين يتحدث مع شمسة، أو حين ألمحه يبتسم لها، أو تبتسم له، كانت تؤذيني طريقتها رغم أنها تفعل ذلك مع جميع الشباب، وتمتلك قدرة عجيبة على غوايتهم.

أحياناً تظهر غيرتي فوراً على ملامحي، وربما مشكلتي الأزلية هي انفعالاتي المكشوفة، فوجهي يفضح إن كنت غاضبة أو هادئة، معجبة أو نافرة، سعيدة أو حزينة، فشغفي وولعي، وكذلك قلقي وارتباكي مكشوفون تماماً، ومع ذلك لا يمكن أن أفعل شيئاً يضايقه، أو يثير غيرته، أو يخلق الشكّ في داخله. كنت أنفّذ تعليماته بكل دقّة، وأثق به ثقة عمياء، بل أجزم بأنه سيقول لي كل ما يحدث له، حتى لو كان يضايقني، لكنه لن يخبئ شيئاً.

يتحكم بحياتي، يفرض شروطه وأقبلها بحبّ، لا أخرج مع الشباب من دونه، لا أكلّم فلاناً، ولا علاناً، فأقول لنفسي هي غيرة مفرطة، لم أفترض يوماً أنها قد تكون عدم ثقة، يخرج مع أصدقائنا كما يشاء، خاصة حين أنشغل بأبحاثي وواجباتي الجامعية، فأتركه حرّاً، وأثق به، وفي المقابل لا يثق بي، رغم أنه يبرّر دائماً بأنه يثق بي لكنه لا يثق بالآخرين.

(20)

أيُّ قلب تحجَّر في صدورهم!

ذات عصر ربيعي، بينما الشمس الباردة تتمطَّى بكسل من النافذة، كنت أطارد الوقت، لأنجز ورقة مطلوب تسليمها في الغد، لئلا أتأخر عن سهرة الأصدقاء، حيث إننا مدعوان، سعود وأنا، عند أحد الأصدقاء الكويتيين، وحين أنهيت الفهارس اكتشفت أن الطابعة بلا حبر، فوضعت ورقتي في USB، وذهبت إلى محل بست باي، قلت إما أن أجد حبراً مناسباً، وإما أطبع ورقتي هناك، لكن هناك كان عجيباً، فهناك بدأ فصل جديد ومثير في حياتي، حياتي التي أصبحت محطات في سلَّم مفتوح للأعلى أو للأسفل، كلما صعدت أو هبطت لا أعرف إلى أين ينتهي هذا السلَّم، كأنه معلَّق بين السموات والأرض، لا شيء في القاع، ولا نور في الأعلى، آه لو كنا نرى المستقبل قبل أن يحدث كي نغيِّره، لو ثمَّة جهاز صغير بشاشة مسطحة، نضع فيه تاريخاً بعيداً، مثلاً الثالث عشر من نوفمبر 2008، لكنت رأيت ما سيحدث لي، وتوقفت عن صعود أو هبوط هذا السلَّم، لاخترت سلَّماً آخر، يفضي إلى هدوء وراحة، لكن الحياة ذات سلالم سرِّية، غامضة، ومفاجئة أحياناً.

دخلت المحل. لم يكن ثمة زبائن كثر. كنت أطوف بين الرفوف بحثاً عن الحبر، لأنني نسيت الورقة التي كتبت عليها نوع الطابعة، فاضطررت أن أتفقّد الطابعات الجديدة، بحثاً عمَّا يشبه طابعتي المنزلية، ومن ثم معرفة نوع الحبر:

«هل أستطيع المساعدة؟».

قالت لي موظفة جاءت نحوي بعد ما لاحظت أنني حائرة، أخبرتها أنني لست متأكدة من الحبر الذي يناسب الطابعة، ثم وصفتها، واختارت لي الحبر المناسب:

«لو لم يكن هو يمكنك إعادته».

شكرتها، وأخذتني تجاه أمين الصندوق. كانت ملامحها عادية، أميركية أو أوروبية، بيضاء، شعرها بنّي متموّج، وعيناها بنّيتان، في أذنها اليسرى عدّة أقراط. لمحت اسمها معلَّقاً على صدرها: ليليان هاريس. ناولتها بطاقتي البنكية لسداد المبلغ. نظرَت فيها:

«سعودية؟»

هززت رأسي بالإيجاب.

«وأنا أيضاً يُفترض سعودية».

«كيف يُفترض، لم أفهم»، تساءلتُ.

«أبي البيولوجي سعودي، اسمي سارا السمراوي، لكن الظروف أجبرتني على اتخاذ هذا الاسم».

أثارت دهشتي وفضولي، وأيضاً شكوكي:

«طيب أين والدك؟ ولماذا غيّرتِ اسمك؟».

«هذه حكاية طويلة، ولديَّ شغل الآن».

أحسست أنها لا تودّ أن تحكي، لكن فضولي قادني إلى دعوتها إلى شقة الأصدقاء، وأخبرتها أنها ستتعرَّف إلى سعوديين وعرب هناك.

ابتسمت، وشعرَتْ بالامتنان:

«أتعلمين أنك أول سعودية تتفاعل معي وتحاورني؟ كلهم حين أقول لهم إنني سعودية، يهزّون رؤوسهم باستغراب، ثم يمضون».

كسرت خاطري، جاملتها لأكفِّر عمَّن لا يكترثون بها:

«لا أبداً، نحن أهلك وأنتِ بنتنا، وتعالي الليلة نسهر ونستمتع، وتتعرَّفين إلى سعوديين جيدين».

«تمام، أنهي عملي الساعة 11، بعدها أشارككم لساعتين».

اتفقنا. دوَّنتُ لها عنوان الشقة. ودَّعتها وخرجت أفكِّر، كنتُ أرى في الأماكن العامة والحدائق وملاهي الألعاب فتيات أميركيات يسلين أطفالهنّ من آباء ملوَّنين، ربما سعوديون أو خليجيون، إذ تطيش من أحدهم كلمة عربية، لكنهم كانوا صغاراً على عكس هذه الشابة العشرينية، فهل سيكبرون بلا آباء، ويتتبّعون جذورهم الضائعة، وهوياتهم المفقودة، يلاحقونها كما يلاحقون هذه الكُرة المطاطية الخفيفة، وحين يصلون إليها بعد عناء، يركلونها بحنق، ويمضون في حياتهم.

لماذا دائماً يهرب الآباء، تاركين أعين صغارهم الشاردة وهي تحدِّق بالطائرات العابرة؟ أيُّ قلب صلد تحجَّر في صدورهم الموحشة؟ كيف ترخي جفونهم ليلاً، فينامون مطمئنين، غير مكترثين بغيرهم، بل بأبنائهم من أصلابهم!

كنت أمشي نحو شقتي، يتأرجح كيس الحبر بيدي، وأفكِّر بأن

الأمهات أيضاً أنانيات، كما الآباء، لماذا ينجبن ويتركنهم يواجهون مصائرهم وحيدين؟

اتصلت بسعود، وأخبرته عن حكاية سارا، وعن دعوتي لها، فعلَّق:

«رشا أنتِ إنسانة نبيلة».

في المساء جاءت سارا، وعرَّفتها إلى الأصدقاء والصديقات:

«ليليان، صديقتي».

لم أذكر لهم قصتها كي لا أحرجها في أمر شخصي يخصُّها، تاركة لها حرِّية التعريف بنفسها، فوجدتها تعرِّف باسمها الأصلي، سارا البنت السعودية الأميركية، التي تحكي بضع كلمات عربية، لكنها كانت سعيدة ليلتها بالتعرُّف إلى الشباب، وهم يثرثرون بالعربي، لتغامر أحياناً بالحديث معهم، رغم أنها معظم الوقت بجواري تحكي معي، وأحكي لها بعض المواقف التي حدثت لي في لوس أنجلوس، كان الكلام عاديّاً وعابراً.

بعد السهرة اتفقنا أن نلتقي قريباً. كنت أفكِّر فيها قبل النوم رغم أنني متعبة، أتخيَّل طفولتها، صباها، حتى غفوت، وفي الصباح حضَّرت ساندويتشاً بالجبن ومربّى التوت الذي يحبّه سعود، وملأت سخانه الصغير قهوة، ووضعتها على طاولة المطبخ، ثم خرجت إلى الجامعة، بينما كان نائماً، حيث تبدأ دروسه يوم الجمعة متأخّرة عن محاضراتي بنحو ساعة أو أكثر.

(21)

قهوة، وباقة زهور

في الظهيرة اتصلت بسارا واتفقنا على اللقاء صباح الأحد، يوم إجازتها، ومع أن الاستيقاظ صباح الأحد مزعج، إلّا أنني استيقظت باكراً، وهاتفتها:

«أين تفضلين أن نلتقي؟».

«يضايقك لو اخترت أماكن نزورها قد تشعرك بالملل؟»، تساءلت.

«اليوم يومك، مرّي، وسأذهب معك أينما شئتِ، المهم أن نأخذ قهوة الصباح حتى نركز في باقي اليوم».

مرَّت بي، وسرنا في شارع ويلشر، وقبل أن نصل ستاربكس، صادفنا رجلاً مشرّداً (Homeless) بجواره كلب وكيس متَّسخ، كان ينتظر بضعة سنتات، توقفت وبحثت في محفظتي، فلم أجد سوى أوراق من فئة العشرين دولاراً، فمنحته ورقة، ومضينا إلى ستاربكس:

«غير معقول أن تمنحيه عشرين دولاراً».

جلسنا على كرسيَّين عاليَين بطاولة مطلّة على الشارع:

«تذكرينني بسعود».

«لماذا؟».

«يردِّد أنني لا أكسب أجراً فيهم، هم غير مسلمين، ويشترون بالمال شراباً وليس أكلاً» وأضفت: «قلت له أنا لا أعطي بحثاً عن شيء لنفسي، أعطي لأنني أتألم عند مقارنة ما لديَّ، بمن يريد مبلغاً بسيطاً كي يأكل، من الظلم أن أصرف عشرة أضعاف ما يصرف».

تنهَّدت سارا بعمق:

«ولكنه لا يستحق كل هذا المبلغ، كان ممكن أن تعطيني هذا المبلغ وليس هوم لس».

«هذه نقودي أعطيها لمن أشاء»، قلت ذلك وغمزت لها مبتسمة.

ضحكَت بخجل، وشعرت أنها أنانية، أو ربما أنا من تبذل ببذخ. طلبنا كوبَي قهوة أميركية، فطلبت سارا كوباً إضافياً مجانياً، حيث يقدّم ستاربكس عرضاً، يمنح فيه كوباً إضافياً صغيراً، ولمرة واحدة، لمن يريد ذلك ممن يتضمن طلبه كوب قهوة أميركية.

ظننت أن الكوب الإضافي لها، ففاجأتني حين أغلقت الكوب بغطاء بلاستيكي وهي تقول:

«سآخذه لجدتي في المستشفى».

رفعت رأسها نحوي:

«هل تذهبين معي؟».

«يسعدني»، قلت.

شربنا قهوتنا، وخرجنا معاً باتجاه المستشفى الجامعي، لجامعة جنوب كاليفورنيا، حيث ترقد جدَّتها، فكَّرت أن من المناسب أن

أبتاع لها باقة زهور. أخذنا باقة صغيرة، وصعدنا للطابق الثاني، دخلنا غرفتها، وفوجئت بأن جدتها عجوز هرمة جداً، ربما في التسعين، مستلقية على فراشها وتحدِّق في السقف، كالميتة كانت، لا تتحرَّك، ولا تتكلَّم، ولا تسمع، كنت أراها هكذا، مجرَّد جثَّة هامدة، بأنفاس رتيبة وبطيئة.

جلست سارا على مقعد بجوارها، وقبَّلت يدها، بينما جلست أنا بجوار سارا، كنت متردِّدة بشأن باقة الزهور، أسلِّمها لمن؟ أم أضعها بجوار القهوة على الطاولة؟ قالت سارا:

«جدَّتي، جاء معي ضيوف» ثم أضافت: «معي صديقتي رشا من السعودية».

لم تتحرَّك جدَّتها مطلقاً، رغم ذلك استمرت سارا تحادثها:

«جدَّتي، رشا تريد معرفة قصَّتي».

قامت وجلبت كوب القهوة، ووضعته بجوارها على الطاولة الجانبية:

«هذا كوب قهوة جلبته لك من ستاربكس».

لم تستجب جدَّتها أبداً، ولم تنبس، فالتفتت سارا نحوي مبتسمة وهي تقول:

«رشا، جدَّتي لا تتحرك منذ سنوات، لكنني متأكدة أنها تسمع وتفهم». وأضافت:

«منذ سنوات لا يزورها أحد سواي، وحتى أنا لا تسمح لي ظروف عملي إلا بزيارات الأحد».

كدتُ أبكي:

«اللّه يخليك لها، ويخليها لك».

تنبهَت إلى الباقة في يدي، فأخذتها منِّي، ومدَّتها للجدَّة:

«هذه باقة زهور جلبتها لك صديقتي رشا».

ثم وضعَت الباقة بجوار كوب القهوة على الطاولة الجانبية، والتفتت نحوي، ثم قالت وهي تتنهَّد:

«هل تريدين معرفة حكايتي، رشا؟».

هززت رأسي بالإيجاب.

(22)

أي أمر ينتظرنا في المنحدر.. خلف التل!

جاء أبي إلى لوس أنجلوس شتاء 1980، لدراسة الكيمياء، كان شابّاً في الثامنة عشرة، أرسله جدِّي الذي يمتلك ثروة جيدة، وقد ضمن له عملاً في شركة الزيت، تعلَّم أبي اللغة الإنجليزية خلال عام ونصف العام، ثم التحق بالجامعة، وهناك تعرَّف إلى أمي لورين. أبي كان كسولاً وغير مبالٍ، ليس مهتماً بالدراسة، خلاف أمي التي تعشق علم الكيمياء، إلى درجة أنها تحلم بأن تنشئ مصنعاً للأدوية.

خلال أحد فصول الدراسة شاءت الصدفة أن يجتمعا، فقد كانوا يقسمون الطلاب إلى مجموعات، فكانت شريك أبي في المختبر، هي شريكة المختبر بالنسبة إليه، وكم كان محظوظاً، لأنها تقوم بكل شيء في المختبر، بينما كان هو متفرجاً، كما يليق بشاب كسول، من أُسرة غنية.

تقاربا، خرجا معاً في موعد خلال الأسبوع الثاني، ولم تمضِ بضعة أسابيع حتى وقعا في الحب، وتعلَّق قلب كل منهما بالآخر. أمي كانت مدمنة حبوب مخدِّرة، وأدوية نفسية، تبتاع مختلف الأدوية

الممنوعة، وتستخدم حبوب ميثامفيتامين، وهو نوع معروف في أميركا باسم «ميث»، وتحوّلت إلى تصنيعها في المنزل من تركيبة محدّدة لمجموعة أدوية، وبيعها، إضافة إلى استخدامها، من هنا استغلّ أبي إدمانها وحالتها النفسية غير المستقرة، ليقدِّم لها الوعود بأنه سيخرجها من دائرة الإدمان والأزمات النفسية المصاحبة، بينما استفاد من ذكائها وشغفها الكبير بالكيمياء، كي يحصل على الشهادة الجامعية من أقصر الطرق، هكذا جمعتهما الحاجة أو المصلحة كشابَّين من بيئتين مختلفتين.

عاشا حياتهما طولاً وعرضاً، يلهوان ويستمتعان، أبي كان كريماً، ولديه المال الوفير كي يسعدها، وهذا كافٍ لفتاة أميركية عشرينية لأن تذوب وجداً فيه، وتتعلَّم ثقافته وتقاليده، وتحب وطنه؛ حتى أتذكَّر إحدى صورها وهي تحمل العلم السعودي الأخضر على كتفيها حينما شارك منتخب بلاده في تصفيات لوس أنجلوس سبتمبر 1984، لقد توحَّدت فيه تماماً، ونقلها فعلاً من أزمتها النفسية إلى منطقة آمنة، حتى تشكَّلتُ نطفة في أحشاء أمي، فبدأت المشاكل تظهر بينهما، كان أبي يحاول أن يسقطني، أو يقتلني، وليته فعل، بينما أمي تمسَّكت بي، كانت تقول له إنها تريد كائناً يؤنسها، يبعد عنها الاكتئاب، ويسعدها في هذا العالم المظلم، حتى وصل الجدال بينهما أن جعلها توقِّع على تنازل عن أي نفقة مستقبلاً، ولا يحق لها، ولا لي أن أرث شيئاً منه، باختصار جعلها تتنازل عن كل حقوقها في المحكمة مقابل الاحتفاظ بالجنين، الذي كنته.

لم يطل الأمر كثيراً، ربما كنت في السنة الثانية، بالكاد أخطو وأتعثّر حينما غادر أبي إلى وطنه، فتعثّرتُ بقية حياتي. في البدء كان

يتصل بأمي أسبوعياً، ثم تباعدت مكالماته، حتى اختفى تماماً، ولم أعرف أبي أو أشعر بحضنه وعطفه، كل ما يربطني به مجموعة صور قديمة، سواء لهما بلباس البحر في سانتا مونيكا، أو جولاتهما في لاغونا بيتش، أو صورتي الوحيدة معه في عيد ميلادي الثاني، الذي غادر بعده بأشهر تاركاً خلفه شابَّة منهارة انكفأت مجدَّداً على الحبوب المخدرة بقوة، وطفلة لا تعي من أمرها شيئاً، كنت يتيمة الأب قبل أن تعصف بي الحياة أكثر.

ولم تكتفِ أمي بالإدمان فحسب، وإنما أنشأت معملاً صغيراً في قبو المنزل، تصنع فيه الحبوب، وتبيعها، كي توفِّر لنا دخلاً مناسباً، كانت تخشى أن تتركني وحدي في الأعلى، فتأخذني إلى القبو المعتم، ومعي عرائسي، ألهو بها، وأحلم ببيت جميل، وأُسرة متكاملة، وأب يعود إلى البيت مرهقاً منتصف الليل كي يحتضن طفلته، كنت في الخامسة تقريباً، في ذروة أحلام اليقظة، أحكي مع نفسي كثيراً وأحرِّك العرائس، بينما أمي منهمكة مع تركيب أدويتها، وخلفها على الجدار صورة جيم سيري الذي لم أكن أعرفه، ولا أعرف ما يمثِّله بالنسبة إليها، إلا حينما كبرت، وعرفت أنه الأب الروحي للمخدرات لجيل الستينيات من الشباب الأميركي.

كانت طريقتها مأمونة في التعامل مع الزبائن، لكن الأمور ليست دائماً آمنة، حتى إن اعتقدنا ذلك، فقد وقعت في الفخ ذات ليل، واصطادتها الشرطة في موقف متلبس، وحُكم عليها بالسجن ثماني سنوات، كنت في السادسة آنذاك، وسُلِّمت لجدتي التي كانت كبيرة في السنّ، حيث بدأت الذهاب إلى المدرسة، وفقدتُ أمي وأبي معاً.

في بيت جدَّتي، ورغم فقدي أمي، وأبي أيضاً، عشتُ أجمل

أيام طفولتي، جدَّتي خياطة ماهرة، علَّمتني كيف أقصّ القماش وأخيطه، كنتُ أجلس معها وهي تخيط، وأفتح الباب للزبائن، وفي المساء تقرأ لي القصص المسلِّية كي أنام، وبادلتها الدور حين كبرت؛ فصرتُ أقرأ لها القصص لأسلِّيها. مرَّت الأيام والسنوات بهدوء وسلاسة، أقضي الوقت بين المدرسة، وبيت جدَّتي، وأزور معها أمي كل شهر أو أكثر.

عدتُ ذات ظهيرة من المدرسة، وحين نزلت من الحافلة، وجدت امرأة غريبة تنتظرني عند باب البيت، فعرفت أن جدَّتي أصيبت أثناء غيابي بجلطة، ونقلها زبون يقف معها حين سقطت، ومعه الجيران، إلى العناية المركَّزة بالمستشفى. جاءت هذه المرأة الغريبة لتأخذني إلى ملجأ الأيتام والمشرَّدين، حيث قضيت هناك أسوأ أسبوعَين في حياتي، أدركت وقتها أننا حين نعظِّم الأمور الصغيرة لا ندرك أي أمرٍ ينتظرنا في المنحدر، خلف التل؛ فهناك خلف التل مباشرة كان الملجأ، حيث أطفال الشوارع المشرَّدين، الذين شكَّلوا عصابات داخل الملجأ، وأصبحوا أوغاداً بكل ما تعنيه الكلمة.

بعد أسبوعَين أخذتني أُسرة حاضنة، مكوَّنة من أم وأب وطفلة تكبرني بعام، اسمها ليندا، لا أعرف إن كانت بنتهم فعلاً، أم قاموا بتبنّيها أيضاً. عشت معهم سنتَين كاملتَين، كانت من أجمل أيامي رغم فقدي لجدتي، لكنني استمتعت بدفء أُسرة راقية، بيتهم مكوّن من طابقين، ولي غرفة خاصة في الطابق العلوي، بجانب غرفة ليندا، التي كنت أسمّيها أختي. لقد أصبحت حياتي طبيعية أخيراً، بوجود أم وأب وأخت، ومنزل رائع، ومنطقة راقية، إضافة إلى أنهم كانوا يلبّون كل احتياجاتي وأكثر، حتى إنهم حريصون على أن أزور

جدَّتي مرتين إلى ثلاث مرات أسبوعياً في المستشفى، وكلما ذهبت يحمِّلونني ورداً، وشوكولا، وغير ذلك.

أتذكَّر كيف كنت أخاف من الكلب الذي يعيش في المنزل، فلم أعايش حيوانات من قبل، ومع ذلك، بعد عدَّة أيام، أصبح هذا الكلب صديقي وأنيسي، حتى إنه ينام معي في سريري.

في هذا البيت تعلَّمت الكثير من الأشياء، لقد هذَّبوا سلوكي، وأعادوا تكويني، وعندهم أدركت أنوثتي مبكّراً، صحيح أنني لم أتجاوز الثانية عشرة بعد، لكن هذا الأمر حدث، فقد كنت وليندا نلعب مع أطفال الجيران، أحدهم صبي في الرابعة عشرة، يُدعى توماس، وذات مرة، بينما نلهو في غرفته، قال مبتسماً:

«سأطلعكم على شيء».

قام وأقفل باب الغرفة، وفتح سحّاب بنطاله، ثم أظهره، وقال لليندا: «أمسكيه»، كنت خائفة وهو يقترب أكثر من ليندا قائلاً: «أرجوك ليندا أمسكيه»، ففعلت وصارت تضحك، ثم اقترب منِّي وقال لي أيضاً، ففعلت بخوف. قال لنا: «عندي لعبة، لكن يجب أن تخلعوا ملابسكم أولاً». كنت خائفة حين رفضت، بينما خلعت ليندا، والتحم بها وهي تضحك مستمتعة، وفيما بعد عرفت أنها لم تكن المرة الأولى، بل فعلها معها مراراً، منذ كانت أصغر!

بعد بضعة أيام، كنت وتوماس نلعب في الحديقة، فقال لي أن أقفز من النطاطة البلاستيكية، ففعلت وسقطتُ أرضاً، فجاء يطمئن على ساقي: «أنا دكتور وأطمئن عليك»، ثم أدخل يده يتحسَّس، فاقشعرّ جسدي، وأصابني شعور غريب، لم أرغب معه أن يبعد يده، همس: «تعالي إلى الغرفة كي أفعل معك مثل ليندا، لتكوني سعيدة»،

نهضت معه، وآلمني، فلم أعد عذراء حتى قبل أن أعرف الدورة الشهرية!

كنا، ليندا وأنا، نذهب مع توم يومياً، ونلعب معه، فأصبح يفضِّلني عليها، ويستمتع معي أكثر، بسبب صدري الذي بدأ يكبر، وملامح أنوثتي التي بدأت تفيض.

بعد سنتين تقريباً، وحينما بلغت الرابعة عشرة، خرجت أمي من السجن، واستعادتني، فهي الوصي عليَّ، وهي أمي التي أحتاجها رغم علاقتي السطحية بها، ولكن رغم أنني افتقدت البيت الجميل، بيت الأُسرة الحاضنة، وعدتُ إلى شقة صغيرة وقذرة، مجرَّد غرفة وحمام، استأجرتها أمي، ورغم أن مالكها القبيح ذا اللحية الكثَّة، والرائحة الكريهة، يطرق الباب كل شهر، ويطالب بالإيجار، ويجادل أمي، ويشتمها أحياناً، إلّا أنني كنت مطمئنة في حضنها، كنتُ وحيدة، وأحتاج إلى أحد أستند عليه، وخصوصاً أنها وعدتني بأنها لن تعود إلى استخدام الـ«ميث» أو بيعه، بعدما حكت لي معاناتها في السجن.

كبرتُ، وبدأت أفهم علاقة الرجل والمرأة، فحكت لي لليالٍ عن أبي، أبي الذي رحل ولم يترك أثراً، جعلني أستدعيه من خلال الصور، صوره مع أمي، وصوري وهو يحملني في طفولتي المبكّرة. كنتُ أفكِّر لماذا هجرها إذا كان أحبها فعلاً، لماذا يذوي الحب بعد سنة، سنتين، أو ثلاث على الأكثر؟ سألتها ذات مرَّة، فأخبرتني أن العلاقة، ولو كانت حبّاً جارفاً، لا تدوم ما لم يحكمها الاحترام والتفاهم، هل خدعني واستغل ظروف إدماني، كي أساعده في الدراسة وقد كان بليداً؟ لا أعرف. هكذا كانت أمي تردِّد دائماً.

مرَّت الأيام ثقيلة، كنَّا نعيش فقراً مدقعاً، حتى إنها كانت تستخدمني كي أتسوَّل في الطرقات والشوارع والمحال، حتى عثَرَت على عمل في محل غودويل لبيع الملابس المستعملة، كنت أمرُّ عليها في المحل نهاية الدوام، أساعدها أحياناً، تبتاع لي الملابس من المحل، لا أعرف هل تبتاعها أم تأخذها فحسب، حيث المحل يستقبل ملابس الأغنياء البالية، حين يستغنون عنها، ويبيعها بسعر زهيد للفقراء والمعدمين.

في البداية كنت أفكِّر، هذه البلوزة الزرقاء التي أرتدي من ماركة غاب، قد تكون من مخلَّفات ليندا، من بقايا البيت الجميل هناك في بيفرلي هيلز، لكنني بعد ذلك لم أعد أفكِّر بالأمر أبداً.

مرَّت ثلاث سنوات، وأنا أقضي وقتي بين المدرسة والمحل، حتى أنهيت الثانوية بعدما تجاوزت السابعة عشرة بقليل، كنت أتمنى أن أكمل الجامعة لكن ذلك يتطلب مالاً كافياً، فعملت أمينة صندوق في ماكدونالدز لمدة ستة أشهر، ثم عملت في باسكن روبنز لعام، أو أكثر قليلاً.

كان معدلي في الثانوية عالياً، فرفعت أوراقي إلى «فايننشال أيد» لاستكمال دراستي، وحصلت على موافقة على أن أسدِّد أقساط الدراسة للجامعة عند التحاقي بأول وظيفة بعد التخرّج. لم يكن أمامي سوى ذلك، فهنا إما أن أحظى بمنحة دراسية مجانية، وهذه صعبة للغاية، وإما أن أحصل على تسهيل بسداد أقساط الدراسة بعد التخرّج، وهذا ما فعلته، ولأجل ذلك أعمل الآن في بيست باي، كي أجمع مالاً لسداد الأقساط والسكن الذي أقطن فيه وحدي، بعد أن غادرت أمي إلى شيكاغو.

(23)

هوتيل كاليفورنيا

كنتُ أنصت لحزنها، إذ تحكي عن حياتها الغريبة، وكلما ازدادت مرارة السرد، واسودَّت أيامها، جعلت تتأمل الطريق والعابرين، كأنما تداري دمعتها، ثم تلتفت نحوي مبتسمة:

«تعرفين رشا؟ من الصعب أن نحكم من المذنب تجاهنا»، وتضيف: «هل تودين معرفة موقف أبي تجاه سنواته الخاسرة التي قضاها في أميركا؟».

هززت رأسي بلهفة:

«أكيد، ولكن هل اتصل بك يوماً؟».

«لا طبعاً».

«إذاً كيف عرفتِ موقفه من حياته هنا؟».

حين عشت مع أمي في غرفتها القذرة، بعد خروجها من السجن، كنت أقضي ساعات طويلة وحدي حين تخرج لمحل الملابس المستعملة، فوجدت ذات ظهيرة في القبو المعتم دفتراً عتيقاً، معظم صفحاته فارغة، ما عدا بضع صفحات مكتوبة بلغة لم أفهمها، وحين صورتها عرضتها على شاب عربي لفكّ شفرتها،

كانت مذكرات لأبي لكنها لم تكتمل، ربما كتبها في لحظة حزن، وهو يدرك أن أمي لن تفهمها، فاحتفظت بها لسبب ما، كتب يقول:

«لا أعرف هل أحببت لورين، أم كنت بحاجة إلى امرأة، بعدما عبثت سنتين كاملتين، وقد جئت من الظهران إلى أميركا في التاسعة عشرة من عمري، بصحبة ابن عمّي، عمّي وشريك أبي في أعمال المقاولات والتشييد. وصلنا في خريف 1980، وقد اتفقت مع ابن عمّي أن نستمتع في الرحلة أولاً قبل همّ الدراسة، فحجزنا على الدار البيضاء، ومنها إلى لندن، ثم نيويورك، صحيح كانت الرحلة طويلة لكنها كانت ممتعة، حيث قضينا بضعة أيام في المغرب، ثم سهرنا في حانة بلندن، وتمَّ إيقافنا في مطار نيويورك لمدة ساعتين، حيث لم نستطع التفاهم مع شرطة المطار، والإجابة عن الأسئلة المعتادة، فلم نكن نعرف أبجديات اللغة، ما جعل كل لحظات المتعة تطير، وحين تجاوزنا المطار، سهرنا ليلة من أجمل الليالي في ملهى ليلي في نيويورك، ثم اتجهت إلى سانتا مونيكا، للالتحاق بمدرسة إي سي، وكانت تلك السنة أجمل أيام حياتي، تعرَّفت خلالها إلى أصدقاء يابانيين وصينيين يدرسون اللغة معي، أحدهم اسمه يوشي، شاب مجنون بكل ما تعنيه الكلمة، فوضوي، يحب السهر والشرب والنساء، صادقته ثلاثة أشهر قبل أن ينتقل إلى جامعة جنوب مين، في الشمال الشرقي، وأكملت حياتي متّخذاً أفكاره وتعاليمه نبراساً لي، يقول لي إن خلاصة الحياة أن تكون أنت، تماماً أنت، وليس غيرك، لا تصدِّق ما يسمونه الإنسانية، هذه أكذوبة اخترعها الغرب، لا تحمل عبء أحد، فقط احمل حياتك على كتفك واسعَ في الأرض فساداً، واحذر أن تظهر لأحد أنك نقي وإنساني وتؤثر

الآخرين، أبداً لا تؤثر أحداً على نفسك، أنت أولاً، وبعدك الطوفان.

كل ليلة يرقص ويشرب في الملاهي الليلة، دون أن يتعب أو يسكر، يفتتح سكرته بجرعة صغيرة من الساكي، ثم يكمل شربه، يقول لي: ما لم تفتتح ليلتك بهذا المشروب الياباني العريق، ستبقى تطوف حول السياج كالقرد، ولن تقفز من داخل القفص إلى العالم الرحب. يوشي كان عجيباً، لقد هزَّ قناعاتي الراسخة، خاصة أول سنة، ثم بدأت أعود إلى طبيعتي، لكن يوشي ما زال يظهر بين الفينة والأخرى كوحش ياباني يحرق الغابة، أعني غابة قلبي.

كان يصيح في الطرقات، يمدُّ يدَيه بصخب كلما خرجنا من الحانة: «هوتيل العالم، وليس هوتيل كاليفورنيا» ثم يصرخ حتى تبين عروق رقبته النحيلة: «إننا محبوسون داخل فندق العالم»، يقفز حافات الأرصفة بحذائه الرياضي، يتدحرج فجأة على الرصيف مثل كُرة، وهو يصيح: «أريد أن أسقط من حافة العالم!» ويرفع رأسه عالياً ويجأر: «أخرجوني... أخرجوني من هنا»، ثم يردِّد كلمات أغنية هوتيل كاليفورنيا: «إننا سجناء هنا، لكن على طريقتنا الخاصة».

ينهض، وينفض ملابسه، يلتفت نحوي وقد تغيَّرت ملامحه فجأةً كمن يبكي، وبنبرة حزن ياباني عميق: «كلنا نركض نحو الباب يا صديقي... كلنا نبحث عن المخرج، لكن العالم سجن كبير، ليست كاليفورنيا وحدها».

لا أعرف أيُّ أثر تركه فيَّ هذا الياباني، لم تكن فلسفته عادية وعابرة لرجل مثلي جاء من الصحراء ومنابت الرمل، لم يأتِ من

وحشة الأرض وجفافها، بل من زهرها وثلجها وغرابتها، جاء من الشنتو القديمة، وتورَّط في كاليفورنيا حتى الصخب والبكاء. حكى لي قبل أسبوع من سفره أن الكامي في اليابان هي الأشياء الغامضة أياً كانت، صخرة، شجرة، حيواناً، ولكل شخص الكامي خاصته، فالمسافر يكون الكامي له مفترق الطرق، وللصيادين البحر والعاصفة، وللحطَّابين الجبل والأشجار، وهكذا، ثم وضع يدي بين يديه وهو يتمتم، لا أعرف هل كان ساحراً أم فيلسوفاً، لكنه مضى وترك أثره في داخلي إلى الأبد. قال لي قبل سفره بليلة، وكنَّا دخلنا حماماً عمومياً، تعال معي أمام المبولة. لم أفهم في البداية، لكنه جعلنا نتبول معاً في المبولة ذاتها، رغم أن ثمة أكثر من مبولة شاغرة. كنَّا نفعلها ونضحك بصخب، حيث خيوط السائل المتدفق تتشابك وتتقاطع وتتصارع، فنضحك أكثر كطفلَين شقيَّين».

(24)

سارا ترفرف كفرخ يمام

قالت سارا:

«لم أتحسَّر على شيء في حياتي قدر حسرتي على أني لم أعش مراهقتي مع هذا الأب».

هززتُ رأسي بدهشة:

«فعلاً مذكراته غريبة، فلسفته جاءت من الحياة والتجارب».

صمتنا، وسألتها: «هل هذه مذكراته فقط؟».

«لا، كتب أكثر، لكنها تفاصيل لا تختلف عمَّا عرفته من قبل»، وأضافت بعد صمت: «كتب يقول:

لم يكن حاجز اللغة سهلاً، لكنني تجاوزته، وحصلت على قبول في تخصّص الكيمياء بجامعة جنوب كاليفورنيا، وانتقلت هناك في سبتمبر 1982، وهناك تشاكست مع زميلتي الأميركية لورين، حين كنا في استراحة بين المحاضرات، نتحدث عن مايكل جاكسون وكيف احترق شعره أثناء تصوير إعلان بيبسي، كنت أسخر من الحادثة، ومن الصحافة الأميركية التي تنشغل في موضوعات تافهة،

مما جعل لورين تنفعل عليَّ، وأنني لا أفهم ماذا يعني مايكل جاكسون للأميركيين، حتى دمعت عيناها وهي تحكي بانفعال، فاعتذرت منها بشدّة، وبعد نهاية اليوم دعوتها إلى الغداء في مطعم قريب من الجامعة، ثم اشتريت لها على سبيل الاعتذار تي شيرت عليه صورة فرقة مايكل جاكسون. استمر خروجنا معاً، وأصبحنا صديقين، فتعرَّفت من خلالها إلى الثقافة الأميركية، وإلى السينما، وموسيقى الروك، والصحافة، والحياة، قادتني إلى دروب لوس أنجلوس، وحاناتها، وصخبها، كما قادتني بذكاء إلى قلبها الصغير، كانت شغوفة بعلم الكيمياء، لم تكن تفكِّر بالوظيفة كما أفعل، بل منتهى المتعة بالنسبة إليها أن تقرأ وتبحث وتكتشف. عرفت فيما بعد أنها مدمنة على حبوب مخدِّرة، كانت تقوم بتركيب هذه الحبوب من مجموعات أدوية، لكنني استطعت أن أخرجها شيئاً فشيئاً من هذا المستنقع، كنت أسكن في غرفة صغيرة، ثم استأجرت شقة صغيرة وجميلة قريبة من بيفرلي هيلز، وانتقلت للعيش معي بعدما قرَّرنا أن نتزوج، ربما أكثر ما يعجبني فيها ذكائها ووعيها الذي يفوق عمرها، لكن يعيبها عنادها وتمسّكها المتشدِّد بثقافتها، وأحياناً انفعالها من أفكاري، فمثلاً كنت أكره طالباً أميركياً أسود معنا في القسم، ويشارك في المختبر مع طالبة برازيلية جميلة، كنت أراه قرداً، وحينما أقول ذلك تصيح في وجهي: «أنت عنصري»، كم كانت تقاتل بأظفارها ضدّ العنصرية والتميز!

بعد بضعة أشهر حبلت، فغضبتُ كثيراً، وطلبت منها أن تسقط جنينها لأننا لم نستمتع بالحياة بعد، ولسنا على عجلة من أمرنا في تكوين أسرة وإنجاب أطفال، كنت أفكِّر أن أهرب حينما أنتهي من

دراستي، فلا أحد يعرف زواجي إلا ابن عمي الذي انتقل للدراسة في جامعة أيوا في وسط البلاد بعدما ظفر بقبول فيها.

حينما أنجبت لورين تقبَّلت الأمر الواقع، وسألتني عن اسمها، طلبت منها أن تختار هي، فاقترحت اسم «سارا» وهي تقول إنه اسم عالمي متفق عليه. لم تستمر جذوة الشغف بمعرفة الآخر، ولم تعد حياتنا على الوتيرة نفسها، تخففنا من الحب، ومن الثقة أيضاً، فحين نذهب إلى ملهى ليلي مع أصدقاء وصديقات، أغضب منها حين تراقص أحدهم وهي في حالة سكر، وأجزم أنها قد تنام معه لو طلب منها وهي في هذه الظروف. لا أعرف، أحياناً أشعر أنها تتقصَّد عنادي، وهي توافق على الرقص مع الأسود القذر، وحين نعود ونتخاصم تقول لي، ألم ترقص مع ماريا البرازيلية؟ لماذا تعتقد أنني أفعل جريمة؟ أصيح بها منفعلاً: «فعلت عناداً بك حينما قمت معه إلى حلبة الرقص». كانت طفلتنا الصغيرة سارا تجلس على الأرض وتبكي بقوة، ونحن نصيح كثورَين هائجَين.

كنت أنتظر نهاية السنة الأخيرة في الجامعة، أنتظرها بفارغ الصبر، وبعد الامتحانات الأخيرة، استلمت وثيقتينا في حفل التخرّج، كنت تخرَّجت بتقدير جيد، فلم أكن متفوقاً، بينما هي تحصل على الدرجات الكاملة، خاصة في الجانب العملي الذي كانت بارعة فيه.

قلت لها وهي تحتضنني في المطار، وتقبِّلني، وتعتذر عن كل شيء، إنني سأعود قريباً، وآخذها معي إلى السعودية، بينما في داخلي شخص آخر، شخص عقلاني، يوشوش في أذني: كيف تقضي حياتك مع مدمنة؟ كيف تثق بها؟ وأنت رجل شرقي، لديك

تقاليدك، مبادئك وقيمك، بينما هي أميركية همها الأول والأخير كيف تسحب ما تستطيع من المال الذي بحوزتك. حتماً لو كانت تسمع هواجسي، لصاحت بي، وهل المبادئ والقيم أن تخدع وتكذب وتهرب؟ هل هذه تعاليم الصحراء؟

كانت ابنتي سارا مستلقية في عربتها، تضع إصبعها في فمها، بعدما دفعت مصاصتها بعيداً، حينما اقتربت منها كانت ترفرف بيديها مثل فرخ يمام، فانحنيت نحوها، وقبَّلتها لآخر مرَّة، قبَّلتها دون أن أرفعها، ثم مضيت نحو الطابور عند كبينة الجوازات، كنت كل فينة ألتفت نحو لورين وأبتسم، بينما أصطادها وهي تمسح بأناملها حول عينيها، وفي المرة الأخيرة حين وقفت أمام الموظف كانت رفعت سارا من عربتها، حملتها بيد، وجعلت تحرِّك يدها الصغيرة البيضاء، كي تلوِّح لي. لوَّحتُ لهما وأنا أضع جوازي وبطاقة صعود الطائرة في جيب قميصي، وأمضي.

صحيح أنني هاتفتها عدة مرات، واطمأننت عليها وعلى الصغيرة، وقمت بتحويل مبلغ من المال مرتين أو ثلاثاً، لكنني بعدها اختفيت من حياتها، لأصنع حياتي الجديدة في بلدي».

(25)

رائحة الآباء حين يعودون من العمل

سارا التي لوَّحت لأبيها وهي في الثانية، تحكي لي الآن بعد عَقدين من الألم والشتات عن أمها التي تخلَّت عن جَدَّتها، وهي تقول: «حين أجد وظيفة جديدة أفضل من العمل في محل بيست باي، سآخذ جدتي عندي في البيت بدلاً من المستشفى، وأجلب لها ممرضة من راتبي». دمَّعتُ وأنا أسمع حكايتها، ولكي تتفادى دموعي، اقترحتُ أن أحكي لها عن نفسي، فحكيت لها قليلاً، لكن ذهني كان منشغلاً بها، فتساءلت: «لماذا لا نبحث عنه؟».

«من؟».

«أبوك».

«مستحيل»، تنهَّدت وهي تستبعد ذلك.

«من سجلات الجامعة، أو من الشركة التي خطَّط جدُّك على توظيفه فيها».

هزَّت رأسها بالنفي، وأوضحَت بأن الأمر غير ممكن.

«صح صعب، لكن لو وجدنا أحداً يساعدنا، سنصل إليه».

«أرجوك، أتمنى أن أجده، أسمع صوته، أعانقه وأرمي رأسي

المتعب على صدره» وأضافت: «أريد أن أشمّه، هل تعرفين رائحة الآباء؟ رائحة عرقهم وتعبهم؟ أصواتهم المرهقة حين يعودون من العمل؟».

هززتُ رأسي بالإيجاب، ودمعة صغيرة تتكوَّر في عيني.

التفتَت نحو جدَّتها، وهي تقول:

«لا تقلقي جدَّتي، أنا بخير». ثم أضافت: «هل تريدين شيئاً أجلبه لك الأحد القادم؟».

لا أعرف لماذا تصرُّ على أنها تشعر وتسمع، وأنها لم تفقد وعيها تماماً. كانت تؤلمني وهي تفعل ذلك، وأقول لنفسي ربما إحساس حفيدتها أكثر صدقاً من الواقع الذي أراه أمامي.

قبَّلت جبين جدَّتها، وخرجنا.

في الطريق سألتني عن حكايتي، فكل إنسان له حكايته الخاصة، حكيت لها عن عائلتي، أبي، وأمي، والزوجة الثانية، كانت تقول إنني محظوظة بأب، وأم، وأيضاً زوجة أب، وإخوة، كم رائع أن يكون لديك أُسرة كبيرة.

ذهبنا إلى مطعم كاليفورنيا بيتزا كيتشن، وظللنا نحكي عن ظروفنا، لكنني لم أحكِ لها عن سعود، فقط أخبرتها عن خيبتي مع عبد الإله، دفعتُ الفاتورة، واقترحت سارا أن نعود كي تنجز واجباتها، ودّعتها على أمل أن نلتقي قريباً.

حين فتحت الباب كان سعود يشاهد مسرحية مصرية، لا أعرف اسمها، جلست بجواره متحمِّسة، وبدأت أحكي له قصة سارا، بل مأساتها العجيبة، كان بارداً وهو يعلِّق:

«هؤلاء دراما لا تنتهي، أفلام هوليوود، لا تصدقي أصلاً، كلهم من غير أم ولا أب، أولاد زنى يعني».

«سعود، لا تقول كذا، يجب أن تكون عندك إنسانية»، قلت بتحفّز.

«بلا إنسانية، بلا كلام فاضي، تعالي نطلع نتمشى».

كم يضايقني ويغيظني سعود بكلامه، بمواقفه، هل تغيَّر، أم أنني لم أعرفه جيداً؟ كيف يكون حسَّاساً، ويقول لي كلاماً يشبه الشعر، ولا يحس بأوجاع الآخرين:

«طيب سعود، هل ستساعدني أم لا؟».

«بجد؟ هل ستبحثين عن أبيها؟ حبيبتي لو كان يريدها لوجدها».

«أنت لا تعرف، يمكن انقطعت أسباب التواصل بينهم»، ثم أضفت: «ثم هي تريده، ومن حقها ذلك».

«أقول اسمعي، اتركي عنك هذا الكلام، وتعالي نستمتع».

حين صعدنا سيارته قلت له: «سأبحث عن أبيها حتى أعثر عليه».

لا أعرف لماذا يسخر من موضوع كهذا، من ابنة لم ترَ والدها منذ أكثر من عشرين عاماً، حتى هشام حينما أخبرته، انقلب ضحكاً وسخرية، وهو يردِّد: «أما دراما البنات، صدق عجيبة»، مضيفاً: «بجد أنتم كل شيء تصدقونه؟».

صحيح أنني أتأثر أحياناً بما حولي، لكنني عنيدة جداً، أفعل ما أريد، وأقاتل لأجل هدفي، لذلك سأعثر على أبيها الذي انقطعت به الأسباب، ولم يعد يعرف ابنته، فكَّرت بالجامعة أولاً، فهنا يسهل الوصول إلى المعلومات على عكس بلادنا، تذكَّرت الدكتور جاكوب

الذي يدرِّس الثقافة الإسلامية بالجامعة، والذي درست عنده فصلاً دراسياً، كنت الطالبة المسلمة الوحيدة عنده، فكان يحترمني ويهتم بي، ويسألني دائماً عن بلادي، لديه شغف بكل ما له علاقة بها، كان يسمع منِّي الأخبار، أو التعليق عمَّا يحدث من جديد، يسأل كثيراً عن أوضاع المرأة المسلمة، وينظر إلى أن ما تعاني منه لا علاقة له بالإسلام، وإنما هو أمر مرتبط بالمذاهب، كالوهابية، لكنني جادلته مراراً بأن الوهابية ليست مذهباً، فالمذاهب في الإسلام أربعة فقط، والوهابية هي دعوة إصلاحية هدفها تجديد الدين وتنقيته من الخرافات، فأتورّط معه في جدل يفوق ثقافتي ومعرفتي، خاصة حين يحكي عن جوهر الإسلام، واستغلاله من قبل الساسة والحركات المتطرفة وغيرهم، كان يقول لي: «دينكم دين روحاني عظيم لولا فريقا الساسة والإرهابيين، كلٌّ يجذبه نحو مصالحه وأهدافه»، وينهي الجدل وهو يربت على كتفي كأب حنون.

فكَّرت ليس هناك سوى جاكوب، فهو من سيساعدنا في العثور على عنوان والد سارا، ولكن لا بدَّ من مكالمته أولاً، لتحديد موعد معه.

عند السابعة خرجنا، سارا وأنا، وسرنا نحو المطعم الذي اتفقت مع الدكتور جاكوب على اللقاء فيه، وصلنا قبله، اخترنا طاولة مجاورة للشارع، ولم تمضِ دقائق حتى لمحت الدكتور مقبلاً بقميصه الأخضر ذي المربعات الصغيرة وكمَّين مشمَّرين، وبنطال جينز كحلي، ونظارة طبية فوق أنفه، صافحته بحرارة، وعرفته بصديقتي سارا، ثم حدَّثته عن حكايتها، ركَّزت على الجانب الإنساني فيها، وحدتها ووحشتها، وفقدها لأبيها، وحاجتها إليه ولو

معنوياً، شرحت له حاجة الفتاة إلى أبيها في مختلف مراحل حياتها، وبخاصة الآن.

سكتُّ، وتنهَّد بحسرة، وهو يشبك أصابع يديه تحت ذقنه، قلت له إننا نودُّ أن يساعدنا في العثور على معلومات والدها من خلال سجلات الجامعة.

صمت قليلاً، وحرَّر أصابعه وهو ينظر نحوي بهدوء:

«الأمر صعب، ليس سهلاً كما تتخيلين»، ثم أضاف: «لكنني أعدك بأن أعثر على بريده الإلكتروني على الأقل».

«لكن ليس هناك بريد إلكتروني زمن دراسته في الثمانينيات».

ابتسم وهو يهزُّ رأسه:

«صحيح، لكن مركز المعلومات في الجامعة يحدِّث المعلومات لمن يستجيب من الطلاب القدامى».

شكرته، وقلت إن البريد الإلكتروني سيكون وسيلة اتصال جيدة، نستطيع من خلاله الوصول إليه. وددت لو قلت له إننا نتمنى أكثر من ذلك، كرقم جوال مثلاً، لكنني تراجعت، وودّعته بامتنان.

(26)

أنا سارا وهذا أخي القمر

وليام، جاك، أوليفر، جيمس، بنجامين، مايكل، جاك الآخر، جون وعددتُ لها أسماء العلاقات العابرة التي عشتها، والأصدقاء الذين نمت معهم، حتى صاحت بي رشا ونحن نمشي في ظلال أشجار حديقة واتلس بارك: «توقفي سارا، أبوك لو يعرف أنك نمت مع كل هؤلاء ممكن أن يقتلك ببساطة»، كانت سألتني إذا عشت علاقة حب، فذكرت لها علاقاتي فقط، ولم تتركني أكمل حديثي، وأذكر لها أهم خمس علاقات طويلة عشتها، كانت تخبرني: «لا يمكن أن تفقد بنت سعودية عذريتها قبل الزواج، وإلا يمكن قتلها». وهي تقصد ما فعله بي توم وأنا في الثانية عشرة، وأن هذا كارثة لأبيها لو عرف بذلك.

هل هذا ذنبي؟ طبعاً لا، فهو بسبب أبي الذي تركني في أميركا، حيث لا توجد بنت في الثانوية بلا «بوي فرند»، ولو وجدت فلأنها قبيحة، ولا يرغب بها أحد، عكس ما يحدث في بلادي السعودية، ففيها مدارس للبنين، ومدارس للبنات، بينما نحن لا نستطيع، منذ الصبا ونحن في الحفلات، فلا يمكن لبنت حضور الحفلة من غير صديقها.

قالت لي: «اسمعي سارا، لازم تفهمين أن ماضيك صفحة سوداء يجب نزعها من حياتك تماماً»

«أنتِ تعقدين الأمور يا رشا، تخوفيني من السعودية».

«وأنتِ فاهمة السعودية خطأ يا سارا».

وبدأت تحكي لي عن استبداد الرجل، وقمع المرأة، وتقييد حرياتها، وسلب حقوقها، تحدّثت طويلاً عن أمور لا أعرفها من قبل، لكنني لن أهتم، لا يهم أين أعيش، بل مع من، مع أُسرة تحيط بي، وتغمرني بالحنان والمحبة، لم تكن رشا تفهم للأسف، ولا تشعر بفقد الأُسرة، لذلك يصعب شرح الأمر لها. قلت لها: «هل تعرفين معنى أن تكون أُسرتك هي مجرد جدَّة تذوي على فراش الموت؟».

كانت رشا تشكو من زوجة أبيها، من المشاكل العائلية، ما أجملها من مشاكل، هاتِ العائلة وليضجَّ البيت بالشجار، لتعلو الأصوات الغاضبة، اللاعنة، الساخرة، الحزينة، المتهتكة، ليعلو أيُّ صوت، يغنّي، يسعل، يصيح، يعطس، أي صوت آخر غير صوت الكلب. الأصوات التي تحيط بنا في بيوتنا تعطي الحياة معنى وقيمة.

عند كل لحظة قنوط، كانت تطمئنني: «سنجد أباك، لا تقلقي يا سارا».

كم أنا محظوظة بهذه الصديقة التي تحمل رائحة الوطن، الوطن الذي لا أعرفه ولم أزره بعد، تلكم الصديقة التي غيَّرت نظرتي نحو شعب هذه البلاد، إنها إنسانة بكل ما تحمل الكلمة من معنى. لقد كانت رشا مدهشة حقاً وهي تقف معي، وتحارب لأجلي، كنت أفكِّر بعدما تركتني عند شقتي ومضت، ها هو الحظّ يبتسم لي أخيراً بعد سنوات من التعاسة والوحدة والحزن.

كنت منهكة وقد عدتُ إلى الشقة بعد عمل طويل، لكن لدي طاقة وشغف لأن ألتقي صديقتي، ابنة بلدي، هاتفتها واتفقنا على أن نجلس في مقهى ستاربكس، وصلتُ قبلها، واتخذتُ طاولة مطلّة على الشارع. بعدما دخلَت كان هاتفها يرن، انتشلته من حقيبتها، وابتسمت وهي تشاهد الرقم، حرَّكت شفتيها نحوي: «الدكتور جاكوب». تحدّثت معه قليلاً، ثم أشارت بيدها بحثاً عن ورقة وقلم، ودوَّنت عليها بريد أبي الإلكتروني.

كان قلبي يرفرف فرحاً، ها نحن نخطو قليلاً باتجاه حضن أبي، وفجأة جحظت عيناها دهشة: «ماذا؟ معقول يا دكتور؟ هل أنت متأكد؟». ما إن أقفلت الخط حتى وقفت أمامي متجمّدة، تحولت إلى تمثال ينظر أماماً: «رشا، ما بك؟ لقد توترت، هل مات أبي؟».

«لا».

ثم أضافت:

«أبوك لم يزل حيّاً».

«إذاً ما الأمر؟».

«أخوك بدر يدرس هنا».

«ماذا؟».

«وفي جامعتنا، تخيّلي!».

أصبت بخرس فجأة، لم أنطق، ليس سهلاً أن أعرف أن أخي هنا دون أن أشعر به:

«هذه السنة الأولى له في الجامعة، ودرس لغة سنتين في الولاية».

فجأة اغرورقت عيناي، وطفرت دمعة صغيرة، مسحتها بظاهر

كفّي. احتضنتني رشا وهي تمسح على ظهري، ثم ناولتني منديلاً ورقياً، مسحت أنفي:

«تخيّلي رشا، أخي هنا على بعض خطوات ولم أتعرف إليه»، وأضفت: «هل قابلته صدفة في مقهى، هل وقف خلفي في الصف ليطلب قهوة في ستاربكس أو كوستا، ولم أحس به؟ هل مرَّ على محل بيست باي في وقت غير دوامي؟» توقفت لوهلة، وسألتها: «ما اسمه؟ ماذا قلتِ؟».

«اسمه بدر».

«بدر، أخي بدر»، ردَّدتُ الاسم بحب.

«هل تعرفين معنى ذلك بالعربية؟».

هززت رأسي بالنفي.

«يعني القمر الدائري المكتمل».

«ماذا يدرس؟ أي كلية؟»، سألت بلهفة.

«لم يقل لي ذلك، سنعرف كل شيء».

كنتُ أفكّر كيف يكون أخي، لحمي ودمي، هنا في لوس أنجلوس، وعلى بعد خطوات من شقتي، ولم أرَه بعد، يا إلهي، يا لهذه الدنيا الصغيرة، كم عجيبة هي الحياة، كم غريبة أقدارنا، والصدف التي تصنع حياتنا. لم نطلب قهوة، بل قلت لها تعالي معي لأكتب رسالة لأبي، هذه المرة سأكتبها لأب حقيقي، وليس لأب لا أعرف أين هو، هذه المرة رسالتي ستصل، وليست كالرسائل التي كتبتها في طفولتي ومراهقتي حين تضيق بي الحياة، فأكتب رسائل إلى أبي البعيد، وأعرف أنني لا أملك عنوانه، وأن هذه الرسائل مقرّها الأخير هو دفتر مذكراتي الشخصية.

فتحتُ ملف وورد، وكتبتُ صفحة، صفحتَين، ثلاثاً، خمساً. . . يا أبي، كم أحبك يا أبي، وأفتقدك كثيراً، أفتقدك أكثر ممّا تتخيل، لقد غادرت وأنا في الثانية فانتزعت قلبي معك، فأنا فتاة بلا قلب، روحي تائهة وضائعة، أبي أريدك أنت فقط، لا أريد مالك ولا نسبك، ولا أي شيء، أريد حضنك كي أتكوَّر فيه، يديك الخشنتين لأقبّلهما، رقبتك كي أتعلَّق بها. رائحتك، رائحتك فقط يا أبي كي أتنفسها، وصوتك الثقيل يناديني: سارا، سارا تعالي هنا. سارا أين جواربي؟ أين نظارتي؟ سارا قلت لكِ لا تخرجي. حذَّرتك ألا تذهبي مع فلان. سارا اصنعي لي كوباً من القهوة. بالمناسبة تعلَّمت صنع القهوة العربية استعداداً للقائك. أنا يا أبي فقدت الحياة بعدما قبَّلتني آخر مرة في مطار لوس أنجلوس وأنت تغادر نهائياً، تعال وأعدني إلى الحياة. لن أحاسبك على إماتتي، أبداً لن أعاتبك، تعال كي أتحسّس شاربك الكثيف، وأقبِّل رأسك، وأتعلم حين أصحو كيف أقول لك: صباح الخير يا أبي!

كنت أكتب وأبكي، وبجواري رشا تمسح دموعها وهي تقرأ كلماتي، وتمسِّد شعري. كتبت خمس صفحات من الحنين والشوق واللهفة والأمنيات الباذخة، وحينما انتهيت ضغطت زر الإرسال، وليتني لم أفعل، ولم أتعجَّل في الإرسال، وظللت لأيام أقف أمام بريدك الإلكتروني يا أبي، وأتأمله بحب وشغف، أنتظر أن يفتح لي باب الجنة، فأنت جنَّتي يا أبي. ليتني ظللت أكتب وأكتب لليالٍ، حتى أغسل وحدتي وفقدي، فأن أنتظر الأمل البعيد أفضل من الخيبة العاجلة، أن أقف أمام باب موصد، وأعرف أنه قد يفتح على صحراء، لا على منزل، أحسن لي من باب أتعجَّل بدفعه فينفتح على

يباب أو خراب، هكذا جاء الردّ خلال ثوان: «البريد المرسل إليه لم يعد مستخدماً»، كانت الرسالة من شركة هوتميل، فأجهشت، وتلقفَت رشا رأسي نحو صدرها وهي تواسيني، بأننا لم نفعل سوى خطوة واحدة، لم يزل الطريق طويلاً، والفرص لم تزل سانحة.

كنت أفكر لِمَ هربتَ هكذا يا أبي، لماذا مسحت ماضيك كله، حتى بريدك الإلكتروني لم تعد تستخدمه، هل نسيت كلمته السرِّية كما نسيتني؟ هل أنا مجرَّد كلمة سرِّية شكَّلتها ذات ليل في رحم أمي، ثم نسيتها؟

«لا تقلقي سارا، سنصل إلى أبيك عن طريق أخيك»، قالت رشا.

التقطت اللاب توب من حضني، وفتحت على صفحة فيسبوك، وبحثت باسم أخي بدر، واسم عائلته، حتى عثرت عليه، وأنه طالب في الجامعة، تأملتُ صورته لوهلة، دمعت عيناي وأنا أحدق في الصورة، لم أقرأ شيئاً من صفحته، فقط أنظر في عينيه، هل يشبهني؟ يشبه أبي؟ أم يشبه آخرين، أمه مثلاً وأخواله؟ أحسست بقشعريرة تفضّ جسدي، وأعدت الجهاز إلى حضني، كأنني سأحتضن أخي، وأعانقه، وأشم رائحة أهلي فيه. نظرت نحو رشا وأنا أبتسم:

«ماذا أفعل الآن؟».

«اطلبي إضافة».

«أخشى ألا يوافق على ذلك».

«لا، لا تقلقي، اسمك مختلف عنه، ليليان هاريس، فتاة أميركية».

ابتسمت بسعادة، وضغطت زر طلب الإضافة، وبعد خمس دقائق، تعادل خمس سنوات من الانتظار، جاءت موافقة منه على صداقتي، فصرخت وجعلت أصفِّق بجذل، فقالت لي رشا:

«الخطوة التالية أن تعرِّفي بنفسك كفتاة أميركية، وبعد كذا رسالة بينكما اطلبي موعداً».

«ثم ماذا؟».

«سنذهب معاً لمقابلته، وتتعرَّفي إليه، وتعرِّفيني كصديقة سعودية، ولا نخبره عن حكايتك إلا بالتدريج».

كانت رشا تحدّثني كفتاة سعودية تدرك جيداً نسيج مجتمعها وتقاليده، وأن هذا الأمر يعتبر مشيناً في نظر أخيها بدر، ويقلِّل من مهابة الأب السعودي أن تكون له علاقة حب قديمة.

(27)

ذبابٌ صغير حطَّ فوق أنفها

خلال يومين، تمكّنت سارا من كسب ثقة أخيها بدر، وبدء علاقة صداقة معه، بينما أخطّط لكيفية تقديم موضوعها الشائك له، ليتعاطف معها، ولا ينفر منها. أيقنت أن وجودي معها أثناء اللقاء في منتهى الأهمية كي أمهِّد للأمر، وأطرح قضيتها بشكل عام، كفتاة لأب سعودي وأم أميركية، جعلها القدر وحيدة، بسبب غياب أبيها، وفقد أمها. فكَّرت أن نقول إن أمها ماتت، لكسب تعاطفه، لكنني صرفت النظر عن ذلك، فقط نشير إلى أنها تعيش وحيدة في هذه المدينة، ثم في لقاء آخر أطول، نجلس معاً للعشاء نحكي له أن هذا الأب الغائب هو أبوه، ونخفّف من الموقف بأن الأمر طبيعي، فكثير من الزيجات قد تحدث خلال مراحل الدراسة الجامعية، بعضها ينجح ويستمر، وبعضها يفشل، خاصة حينما تكون بين طرفَين من ثقافتَين مختلفتَين.

لا نعرف كيف سيتقبل الأمر، وخصوصاً أن سارا فتاة أميركية بكل ما تعنيه الكلمة، لا تختلف أبداً عن كيت، صديقتي وشريكتي في السكن التي صدمتني علاقاتها المتعدِّدة، ماذا لو يعرف أخوها

بدر، أو أبوها، أنها نامت مع أكثر من عشرين رجلاً، كانت صعقتني وهي تعددهم واحداً واحداً، حتى تعبتُ من العدِّ حين وصلت الرقم 23، فصحت بها: «كفى، توقفي» وأضفت: «هل تعرفين ماذا يُقال عنك عندنا؟».

هزَّت رأسها نافية:

«لا».

«عاهرة».

أغرب شيء أنها تحاول تفسير الفرق بين تجاربها، التي تصفها بأنها أمر طبيعي لكل فتاة أميركية، وبين «العاهرات» اللاتي يعملن كوظيفة لكسب المال، وبينما أشرح لها أنه لا فرق، لأن جسدها متاح للعابرين، ترفض بأنها تفعل بمزاجها، وهي من تقرر الذهاب أو عدم الذهاب إلى النوم. لم أنجح معها، كما لم أنجح قبل ذلك مع كيت، وحتى حينما أنتقد طريقة المعايشة والمساكنة والإنجاب من غير ارتباط رسمي، كانت تجيب بأن الزواج ليس ورقة وبضع كلمات تردَّد أمام الكاهن في الكنيسة، بل هو مشاركة حقيقية في كل شيء، ويقين بحاجة كل طرف إلى الآخر.

اتصلت بي سارا وأنا في الجامعة، وأخبرتني أنها اتفقت مع أخيها بدر على اللقاء عند السابعة مساءً، مررتُ بها، ووجدتها تنتظرني على الرصيف، أخذتها وانطلقنا إلى مقهى إنتليجنتسيا في شارع صانست، كانت ترتجف من الخوف والقلق والحذر، تقول لي إنها تتمنى ألا تعرف أحداً من عائلتها إذا كان سيخذلها، بينما أشرح لها أن الأمر ليس سهلاً، فهذا الخبر سيكون ثقيلاً على إخوتك وأمهم، بل حتى أبوك سيصاب بصدمة وخوف أن تهدمي أسرته المستقرة.

«وأنا؟ ألست من أسرته؟ هل أصمت حفاظاً عليها»، قالت ذلك بعصبية.

«لا، لا أعني ذلك يا سارا، فقط أقصد ألّا تصابي بخيبة وتنهاري لو لم يعترف أخوك أو أبوك بك، فهو أمر متوقَّع جداً». وأضفت: «حاولي أن تتفهمي الأمر، ضعي نفسك مكانهم».

كنت أحاول في الطريق ألّا أجعلها تبني آمالاً كبيرة على وجود أُسرتها، فالأمر قد يكون مخيِّباً، ولا أودّ أن تُصاب بصدمة أو انتكاسة كبيرة.

وصلنا المقهى قبله، اتخذنا مكاناً لائذاً، كأننا نختبئ عن أنظار العالم، كي نعيد ترتيب الحياة، كنا نرى الطريق والسيارات، ونلمح من بعيد الداخلين للمقهى: فتاتان تضحكان وتثرثران قبل أن تدخلا المقهى، عجوز وطفل في السابعة على الأكثر، شاب يرتدي تي شيرت أبيض، وجاكيت من جلد شمواة فاخر، وفي يده نظارة شمسية، يمشي ببطء ويتلفت، لوَّحت له سارا، فأقبل مبتسماً، قبل أن يسترد ابتسامته حين رآني، صافحته سارا باحترام وسعادة تطفر من عينيها، وقدمتني له: «رشا، صديقتي من السعودية»، وأضافت: «في جامعة جنوب كاليفورنيا».

«غريبة، لم أرَك في أي مكان، الجامعة أو خارجها»، تساءل.

«للأسف، ما أعرف سعوديين كثير هنا، ولا أحضر مناسباتهم».

كان شاباً في التاسعة عشرة، يبدو من مظهره أنه من أسرة ثرية، حتى طريقته في الكلام، متأنّية ومتأنّقة، يحكي بطريقة هادئة، ويشرب قهوته بأناة، على عكس سارا بملابسها الرثّة الرخيصة، واضح الفارق الشاسع بين الطبقتَين. سألته سارا عن دراسته، قال

لها إنه اجتاز اختبار التوفل، وحصل على قبول في الجامعة الفصل الماضي، لكن والده أصرَّ عليه أن يكمل آخر مرحلة من اللغة، كي تصبح لغته ممتازة في جميع المهارات، كانت يدا سارا ترتجفان حينما سمعته يقول: «والدي»، لكنني لكزتها كي تهدأ، وسألته عن عائلته، فعدَّد إخوته الثلاثة، ثم أضاف: «ونورة أختي الكبرى».

فجأة انهارت سارا، وقلبت كل شيء، لم تستطع أن تتماسك حين قال: «أختي الكبرى»، رمت الأوراق كلها في أول خمس دقائق، أطلقت رصاص كلماتها بحرقة، وبكت أمامه كطفلة عاجزة: «أنا أختك الكبرى يا بدر!».

كتمت غضبي، وأنا أتميَّز من الغيظ، لماذا قلبت الطاولة فجأة، ولم تستطع الصبر للقاء آخر حتى يطمئن أخوها إليها. كان مصدوماً من كلامها، ونظر نحوي، ثم نظر إليها ببرود: «كيف يعني؟».

«أبوك أبي، جاء إلى لوس أنجلوس أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، ودرس الكيمياء مع أمي، وتزوّجا، بعد أن بلغتُ سنتَين تخرَّج أبي من الجامعة، وعاد وتركني هنا وحدي».

هززت رأسي بأسى: «صحيح يا بدر، هذا ما حدث للأسف».

ثمَّة ذباب صغير طار وحطَّ فوق يده، وهو ما زال ينظر نحوها بحدّة:

«هذا كذب»، قال بهدوء، وبينما تنقَّلت عيناه بيننا أضاف: «أنتما نصابتان، هل تبحثان عن المال؟».

نهرته:

«لا يا بدر، نحن لسنا كذلك، أختك تبحث عن أسرتها، عن أهلها وعزوتها».

أضافت سارا بصوت مختنق: «أنا أحتاجك. هل تعرف ماذا يعني أن تحتاجك أختك؟».

قاطعها بحسم:

«كيف تكوني أختي وصورك خالعة في فيسبوك؟ كيف ينظر إليّ أصدقائي وأنتِ بملابس غير محتشمة، ومع شباب مختلفين؟»، ثم أضاف: «امسحي صورك كلها الآن».

تبدَّل وجه سارا، ولمحتُ الصدمة على ملامحها، وربما تفاجأت من ردَّة فعله السريعة، وقد تكون تأكدت من كلامي عن السعوديين، وعن بلادنا وتقاليدها.

«سأفعل»، هزَّت رأسها موافقة.

كنت أفكِّر في داخلي، إذا كانت الصور أثارت غيرته، ماذا لو عرف أنها نامت مع أكثر من 23 شاباً، هل سيصفعها؟ أم يقتلها؟

حطَّ الذباب الصغير فوق أنفها حين فتحت جوالها على صفحة فيسبوك، ثم مسحت الصور كلها، وتنهَّدت وهي تتأمله:

«لا أريد شيئاً، فقط اعترفوا بي، أريد عائلتي».

«اسمعي سارا، أنا لست أباك، ولا أنا من تركك، ولا أعرف إن كنتِ صادقة أم كاذبة»، وأضاف بسخرية: «أعرفكم جيداً، أنتم الأميركيون تقومون بتزوير الوثائق والأوراق، مع ذلك سأخبر أبي بموضوعك، أعطيني رقم جوالك، وسأتصل بك».

ودّعنا على عجل، ربما لم يستمر اللقاء أكثر من عشر دقائق بعدما أتلفت سارا السيناريو المتفق عليه، لو تمالكت نفسها لتحدثنا كأصدقاء جدد عن حياتنا في لوس أنجلوس، وتبادلنا الخبرات

والحكايات، وربما تحدَّث أكثر عن عائلته، لكن كل هذا لم يحدث.

لم نخرج من المقهى، وما إن لفظه الباب الزجاجي، حتى صلبَت سارا يديها فوق الطاولة، ووضعت رأسها فوقهما، ثم بدأت تبكي، تركتها لوهلة دون أن أواسيها، ثم وضعتُ يدي على شعرها البنّي، ومسحت عليه بحنو لدقائق، وأنا أردِّد:

«أخوك شاب مراهق وغيور، من يدري، قد يكون أبوك أكثر حكمة، ويشعر بالذنب تجاهك، ويعدِّل خطأه».

لا أحب أن أخدّرها بوعود كاذبة، أو غير مضمونة، لكن اللحظة تتطلب بثّ بصيص من الأمل، حتى ولو كان كاذباً.

خرجنا، وحين وضعتها عند شقتها، ودَّعتها على أن نلتقي غداً نفكِّر بالخطوة التالية.

دخلت، كان سعود متمدِّداً ببيجاما النوم أمام الشاشة، يتابع مسرحية كويتية، انحنيت وقبَّلته: «الحمد للّه على السلامة» قال باستخفاف، وأضاف ساخراً: «بشري، انتهت رحلة البحث عن الأب المفقود؟».

«ما أظن هذا موضوع سخرية».

«أحس أنكم شخصيات مسلسل كرتوني»، قالها ضحكاً.

«اسمع سعود، لو ما تغيِّر الموضوع رحت أنام».

جلست بجواره، أطالع مسرحية كويتية سخيفة، وأسخف منها الجالس بجواري ضاحكاً على كل شيء.

بعد ساعة من الملل، عند الثانية بعد منتصف الليل رنَّ جوالي، كانت سارا ترتجف:

«رشا، ممكن تأتي الآن؟»، وأضافت: «بدر أرسل لي رقم أبي، وطلب منّي أن أتصل به عاجلاً».

«طيب اتصلي حبيبتي، أنا لا أستطيع المجيء الآن، فالوقت متأخّر جداً».

«امم. . . أوكي».

قالَت ذلك وأقفلت الخط.

(28)

أطول ثلاث دقائق في حياتي

تمنيت أن أحادث أبي لأول مرة، وبجواري رشا، كي تمنحني القوة والثقة، وتؤازرني كي أتماسك أكثر، وربما تلهمني ماذا أقول له. فكيف أحكي معه؟ وماذا أقول له بعد عشرين عاماً من الفقد؟ هل سيستقبلني بحبٍّ وأسفٍ لهذا الغياب الطويل؟ هل سيعترف بي كابنة له؟ أم سينكر ويهدّد؟ للأسف لم يكلّمني بدر حتى أكون مستعدة للمكالمة، ولا أعرف ما دار بينهما، كيف أخبره، وكيف تعامل أبي مع الموقف؟ ولا رشا استطاعت المجيء كي تجهِّزني لأول محادثة بين ابنة وأبيها منذ أن تعلَّمت الكلام، فحين رحل كنت أناغيه، بالكاد أنطق: «داد»، وها أنا ذا أتحدث وأثرثر وأجادل، فكيف سنلتقي عبر الأثير؟

فكَّرت أن أؤجّل المحادثة للغد، على الأقل تكون رشا بجواري، ونكون تحدّثنا في النهار عمَّا يمكن قوله في هذه المواقف، لكن جوالي رنَّ فجأة، كانت الشاشة تومض برقم من وطني، العربية السعودية، يا إلهي، ما الذي يحدث؟ هل أنا في حلم؟ هل أجيب المتصل، وأقول: ألو أبي، أين كنت كل هذا

العمر؟ خشيت أن يقفل الخط، فقررت أن أجيب، همزت الزر بيد مرتعشة، وضعت السماعة على أذني، وقفت أمام النافذة المطلّة على الليل الساكن، كان صوتاً خشناً، يتكلم اللغة الإنجليزية بطريقة جيدة، لم يسلِّم أو يطمئن عليَّ، كل ما فعله أن تأكد أنني المقصودة، ثم انفجر بجنون: «من سمح لك يا سافلة بأن تتصلي بابني؟ وتقولي له إنك أخته؟ من قال إنكِ ابنتي؟ أنتِ ابنة زنى، هل تفهمين معنى ذلك؟ أمك الزانية تريد أن تلصقك بي، لكنني أهدّدك ألف مرة، لو حاولتِ أن تتصلي بابني بدر، سأقتلك».

أعرف أنه لن يقتلني، لكنني كنت أحلم أن يجمعني القدر به مجدَّداً كما في القصص التي يغيب فيها الوالدان عن أبناءهما، ما أجمل الصدف في الأفلام التي تزرع الأمل فينا، كما فعل بي فيلمٌ شاهدته منذ أسبوع، عنوانه August Rush عن فتى يعزف في الشوارع، بعد خروجه من الميتم، ليجد أمه مصادفة!

أبي لم يدعني أحكي، كان ينهمر كحجارة من الأعلى، لا أسمع سوى خبطها فوق رأسي. كنت أحلم بأن يطمئن عليَّ، أن يسألني: «كبرتِ؟ كيف شكلك الآن؟ ممكن ترسلي صورتك لأرى كيف أصبحتِ؟». توقعته يعتذر مثلاً: «أنا أحبك، لكن أهلي لا يعرفون بزواجي من أجنبية، لذلك يصعب أن أعترف بك، وأحضرك هنا عندي في السعودية».

كان يشتمني بحدَّة، وأحياناً يقول كلماته البذيئة باللغة العربية: «يا ملعونة، يا قحبة، أنتِ وأمك الزانية، اللّه يلعنك ويلعنها»، لكنني أعرف بعض الكلمات العربية من أصدقائي العرب، كما درست العربية لفصل دراسي واحد، على أمل أن أعود يوماً إلى الوطن.

تمنيتُ أنه صمت قليلاً لأحكي، لأدافع عن نفسي، وعن أمي، بل ليتني أكثر جرأة وشراسة كي أقاطعه: «إذا كنت أنا ابنة زنى، وأمي زانية، فأنت زانٍ يا أبي! لا لست أبي، وإنما الرجل الزاني بأمي»، هل هذه الكلمات تليق بك؟

ليته قال كلمة واحدة، فقط كلمة واحدة إيجابية، أو حتى محترمة، ليته اعتذر عن خطئه، أو قال إنني لا أتحمَّل ما حدث، فليس لي دور في وجودي في هذا العالم، وليس لي يد في تكوُّني داخل رحم أمي نطفة ثم جنيناً. ليته قال لي يا ابنتي اعذريني، أو سامحيني.

كان صلفاً، متغطرساً، ومكابراً، تعامل معي كحشرة، كذبابة مؤذية بطنينها، حتى إنه لم يودِّعني في نهاية المحادثة بكلمة: «باي». ليتني اكتفيت بوداعه قبل عشرين عاماً حتى إن كنت لا أفهم، لكنني أحس وأشعر به في السنة الثانية من عمري، أرفع يدي نحوه وأناغيه كي يحملني معه، لكنه مضى، وعاد بعد عشرين عاماً ليمنحني لقب: القحبة ابنة القحبة. يا إلهي، أي بشر هؤلاء، يا اللّه، كيف وأنت في عرشك تحتمل سيئات عبادك وفجورهم؟ يا اللّه، وأنت العادل، كي ترضى بظلم هذا الأب الأحمق لابنته التي لا حول لها ولا قوَّة؟

أقفل الخط بوجهي بعد أن سمعت صوت بصقته، وأحسست بها، أقسم أنني أحسست برذاذها من وراء محيط وقارتين، لأنها هزَّت أعماقي، وزلزلت قلبي في عرشه.

كل المكالمة لم تتجاوز ثلاث دقائق، لكنها أطول ثلاث دقائق في حياتي، كانت أطول من ثلاث سنوات، ثقيلة ومميتة، بل لم تكن

مكالمة وإنما تحذير وتهديد وكلمات فاحشة باللغتين، مكالمة من طرف واحد، الهدف منها إملائي بما يجب وما لا يجب، بعد كل هذا الغياب بزغ فجأة من أقصى الأرض ليهدِّد ويرعد ويلعن، ليته لم يتصل، وبقيت أحلم، وأستعيد مشاهد فيلم August Rush مئات المرات.

رميت الجوال من يدي، وجلست القرفصاء في زاوية الغرفة. وضعت رأسي بين ركبتَيّ. أجهشت بالبكاء، تلوَّيت على الأرض كدودة زرع خضراء، ثم تجمَّعت، وتمددت على الأرض مثل قتيل يصارع النزع الأخير. كنتُ أبكي وأهذي وأحكي وأنشج وأصرخ وأكسر وأتوه وأضرب وأركل وأشرب وأنكفئ وأدوخ وأسقط وأنهض وأتماسك وأدور وألهث وأبحث وأقطع وأسيل وأغيب. أغيب وأنسى. أغيب وأموت...

(29)

هذا الهواء الحُر.. يفتح مسام جلدي

اتصلت بسارا حين صحوتُ باكراً لأطمئن على مكالمتها البارحة، فلم تجب، أفطرت، وأعددت فطور سعود، ثم اتصلت بها مرة أخرى، فلم تجب أيضاً، فكرت في طريقي إلى الجامعة أن أمرَّ بها لأطمئن عليها، لكن الوقت كان متأخّراً على بدء المحاضرة، قبيل دخول القاعة اتصلت بها، وكان الرنين يستمر في الخواء، ولا أحد. ازداد قلقي كثيراً، بين كل محاضرة وأخرى أجرِّب الاتصال بها، ولا أحد. هاتفتُ حبيبي: «سعود الأمر يخوّف، سارا لا تجيب من أمس، أكيد عملت بنفسها شيئاً. لازم نتصرَّف».

«خلاص ما عليك منها، هذي صاحبة مشاكل، وأمها مدمنة مخدرات، وأخوها تبرّأ منها»، قال ذلك بنزق.

«يا أخي تعامل معها بإنسانية».

«أي إنسانية، وأي كلام فاضي».

«المهم أين أنت؟ خلّصت محاضرتك؟».

لم أنتظره يقرّر، اتصلت فوراً بالإسعاف، وشرحت لهم الحالة،

وأنها صديقتي، وأنني أفتقدها منذ يوم وأكثر، ولا تجيب على جوالها. ذهب سعود معي مكرهاً، كانت سيارة الإسعاف وصلت قبلنا، طرقوا الباب مراراً، ولا أحد يجيب، ثم كسروه، ودخلوا.

كانت لحظة مرعبة، حيث سارا مرمية في حالة مخيفة، وقد حاولت أن تقطع شريانها، الدماء تخضِّب ملابسها التي خرجت بها معي عند لقاء أخيها، فخذها يسيل بعدما حاولت أن تطعن نفسها، كانت منهارة، تبكي وتتقيّأ، حاولَت أن تنتحر لكنها فشلت، حملها رجل الإسعاف بين ذراعيه، وركبتُ معها في الإسعاف، بعدما طلبتُ من سعود أن يتبعني بالسيارة؛ عيناها شاخصتان كعينَي ميِّت، بالكاد تتنفس باضطراب، كنت أبكي وأنا أمسك يدها، أبكي على مأساتها، كم نحن أغبياء، نضجر ونتألم لأشياء تبدو لنا نهاية العالم، وحين نعيش أو نشهد مأساة حقيقية نضحك في دواخلنا عمَّا كنَّا نضيق به ونبكي، أي مأساة إنسانية في هذا الوجه الملائكي؟ كنتُ أنظر إلى بياضها وشعرها الجميل وأتساءل وأدعو، يا رب لا تتخلَّ عن هذه الوحيدة، المقطوعة من شجرة.

حين وصلنا مبنى الإسعاف، رفضوا أن ندخل معها، وبقينا في غرفة الانتظار. كنت أبكي وأنشج ألماً وحسرة عليها، وعلى العالم.

«ما صار لك شهر تعرفينها وتبكين عليها؟».

قال سعود بسذاجة، فصحت به منفعلة:

«اسكت، أنت كل يوم يمر تكرّهني فيك».

«أقول لك شيء؟ لما رفعها المسعف من على الأرض، وبان نهديها البيضاوان، وصارت تلصق بصدره، حسيته يشتهيها، احييه».

وجمت، جفَّ ريقي، أصبت بانهيار وخرس، لم أتوقَّع أن يتغيَّر

سعود إلى هذا الحدّ، بعد أن كان رومانسيّاً وعاطفيّاً وعاشقاً، هل هذه شخصيته الحقيقية، وكنت مخدوعة من قبل... أم تغيَّر بسبب مخالطته للعرب والخليجيين؟ هل شمسة الشهوانية لعبت بعقله، وجعلته داعراً في الألفاظ والأفعال؟

«سعود، قم»، قلت له بغضب، وأشهرت سبابتي بحزم: «قم ارجع».

طالعني بابتسامة باردة:

«أقول لك قم، وإلا أسوي مثلها وأنتحر».

«يا بختي حلوتي تغار عليَّ».

«يا آدمي ما أغار عليك، لكن هذا كلام قذر، كلام شخص مريض، بنت حاولت تنتحر وأنت تفكّر بجنس وقذارة».

«هي الغبية فكّرت تنتحر، تتحمَّل تصرفها».

صرختُ بحدَّة وبصوتٍ عالٍ:

«سعود اطلع من هنا».

نهض مرتبكاً: «طيب لا تأكليني، لما تخلصي كلميني أمرّ عليك».

بعد ساعة من الانتظار، دخلت عندها، كان وجهها مثل ورقة خريفية صفراء، وفي معصمها يغفو أنبوب مغذٍّ، بينما تنظر نحو السقف. حين وقفت بجوارها أدارت رأسها ببطء نحوي، وعلى ملامحها ابتسامة عصيَّة، أغمضت عينيها امتناناً، أمسكتُ بيدها وجعلت أمسدها، وقد اغرورقت عيناي بدمع مؤجّل، كنت أبتسم لها، وأقوّيها، صرتُ أهذي وألومها على ما فعلت، أعاتبها بحب وصداقة، كانت ممتنة لوقوفي بجوارها.

في اليوم التالي كانت هادئة، وحالتها النفسية مستقرة، وعلى وجهها ابتسامة صغيرة، قبّلتها، وجلست بجوارها وأنا أمسّد شعرها، بينما تحكي لي عمّا حدث، عن شتائم أبيها وتهديداته التي أطلقها ذلك المساء.

خرجَت سارا من المستشفى، واقترحت عليها أن تنام عندي حتى ترتاح قليلاً، وتتجاوز أزمتها، فوافقت. هاتفت سعود وأخبرته، فصاح بي غاضباً، متّهماً إياي بالغباء والسذاجة، وأن الأميركيين يسرقون العرب دائماً:

«خاصة مثل صديقتك، من طبقة فقيرة» وأضاف متهكماً: «صدقيني ستسرقك وتختفي».

لم أقاطعه، تركته ينهمر كالسيل، حتى قال:

«وأنا؟ ما وضعي في الشقة وهي موجودة؟».

«لن يتغير شيء يا سعود، تستطيع أن تدخل وتخرج كما تشاء».

طلبت سارا أن نتناول الغداء في مطعم دينوس، وهو مطعم مكسيكي رخيص، تحبه سارا، تناولنا تاكو وفاصولياء سوداء، مع قارورتَي كوكا كولا، وسفن أب.

كانت سارا تنظر نحو الشارع، وهي تستعيد تلك الليلة الحزينة، التي ذابت في ظلمتها آخر شمعة أمل متبقية في حياتها:

«تخيّلي رشا، يشتمني ويعيّرني بابنة زنى، ينكر أنني ابنته، ويتهم أمي بالخيانة»، أضافَت وهي تبتلع عبرة تخنق صدرها: «أنا يا رشا فقدت كل أحلام الطفولة، لم يعد ثمة أمل، لقد أدمنت الأفلام التي يلتقي فيها الأبناء بآبائهم أو أمهاتهم، وظللت أتنفسها، أحيا بما فيها

من أمل وحلم. آخرها فيلم August Rush الذي شاهدته في السينما قبل أيام. هل شاهدتِه؟».

هززت رأسي بالنفي.

«فيلم عن طفل يشبهني، أبعدوه عن والدَيه منذ ولادته، لكنه مع الإيمان والتحدّي وجدهما، هذا كان حلمي يا رشا، شاهدت الفيلم مرّتين، بكيت وأنا في السينما، ازداد نبض قلبي عند بعض المشاهد، وأنا أهمس لنفسي، أنا أيضاً سأجد أبي، لكن المكالمة المشؤومة نسفت كل شيء، أفقدتني توازني، فلم أعد أسلّي نفسي بالأمل، كل شيء انتهى... انتهى».

مسحت دموعها، وناولتها منديلاً ورقياً:

«أذكر حين شاهدت الفيلم في المرة الأولى، كان الناس من حولي متأثرين بقصته، بينما أنا أبكي قصتي الخاصة، أبكي أبي المفقود، أبكي طفولتي البائسة، المشرَّدة... أنا يا رشا أرتدي ملابسي من صدقات الناس، ومن أعطياتهم، حتى السيارة القديمة التي أمتلكها لم يشترها أبي، أو أمي، بل هدية من شاب خليجي، تعرَّفت إليه قبل سنتين تقريباً، كان يشبع رغباته ونزواته بي، حتى رفضت الخروج معه والانصياع له، يستمتع بالعنف معي أثناء النوم، فطلب منّي أن يقيّدني بالسرير ويمارس عنفه ونزواته، مقابل أن يشتري لي سيارة قديمة، فوافقت طبعاً بسهولة، حيث حلمي أن أمتلك سيارة، لا يمكن أن أحصل عليها من أحد، فمن يجلبها لي؟ أمي المدمنة؟ أم أبي الذي لم يعد أبي؟ كل النقود التي أكسبها من العمل أدفعها أقساطاً للجامعة، حياتي ملعونة يا رشا، ملعونة ولا حلّ لها، فلماذا أعيش؟».

كانت تبكي، بينما أواسيها، رغم أنه ليس ثمَّة كلمة ترمِّم حزنها، حياتها فعلاً ملعونة وشرسة، كما لو أن حيواناً متوحشاً لا يكفُّ عن نهشها. اقتربت منها. ضممت رأسها نحو صدري. صرت أمسح شعرها بحنان، بينما أواسيها وأعدها بأن نجد حلاً لمأساتها.

اقترحت أن نتجه غرباً حيث البحر، نتأمل الأفق الأزرق، ونشاهد النوارس البيضاء، ونصعد مركباً في جولة بحرية كي تريح أعصابها، ونفكِّر معاً في حلّ. وافقت، وسرنا غرباً باتجاه سانتا مونيكا، حيث تنكسر الشمس الباردة خلف المحيط الكبير.

النخيل العالي في عتمة الغروب يشبه نساء حزينات يقفن بانتظار أقدارهنّ، اللافتات الكامدة، الجسور القاطعة، المصابيح الحمراء للعربات الذاهبة، والبيضاء القادمة في الطريق السريع، أبراج الكهرباء تنتصب كرجال واقفين وهم يصلبون أيديهم بكل اعتداد، أسلاك الكهرباء الرفيعة أمام حمرة الشفق كالصراط، كل اللحظات الحزينة تذكِّرني بأهلي. كنا صامتتين، سارا وأنا، نتأمل السماء الحمراء حيث تبتلعها سانتا مونيكا.

وقفنا على حافة السياج الحديدي، نتأمل البحر في الأسفل البعيد، ونقضم حبَّات الفشار، الهواء البارد يتسلَّل من أكمام قميصي، ومن فتحة الصدر، ويدغدغني حتى إنني أستنشقه بقوة، وأنا أبتسم تجاه سارا، كنَّا نتأمل البحر معاً حينما قلت بغتة:

«عندي حل».

«حل ماذا».

«وضعك وما حدث لك»، ثم أضفت: «ننتقم منه، فهو ليس أباً كفؤاً».

«كيف؟».

«نرفع قضية نفقة ضده، ديننا يا سارا يشترط على الأب النفقة على مولوده، ونحن في العصر الحديث، يسهل إثبات نسبك له بتحليل الدي إن أي»، وأضفت بحماس: «بعدها نذهب لمسجد وتعلني إسلامك، فلن تحصلي على حقوقك وأنتِ مسيحية»، ثم أكملت: «ثم نرفع أوراقك للسفارة، ونحاول إدخالك للسعودية».

ساد صمت بيننا، يكسره خشخشة الفشار في أفواهنا، وعدنا ننظر نحو البحر، كان صمتنا له صوت غامض، كالخريف، كزحف ورق شجر يابس على رصيف مهجور. تساءلت سارا:

«كيف أدخل؟».

«بتأشيرة عمرة، ثم نكتشف عنوان والدك، وننتقم منه».

أحسست أننا صبيّان مشاغبان يخطّطان للانتقام من معلمهما في الصف عند نهاية العام الدراسي:

«ولكن من أين لي نقود الرحلة؟».

«نحاول نجمع النقود، أنا سأساعدك»، قلت ذلك بثقة.

كان البحر هادئاً، والموجات الخفيفة المتتالية تلمع تحت الأضواء، كما أحلامنا التي تضيء بيضاء كالنوارس، كنّا نحلّق بعيداً، نظنّ العالم وردياً وعادلاً، وأن حقوقنا كنساء يكفلها القانون والنظام.

صحيح أن خبرتي في الحياة بسيطة، ولم أدخل محكمة قط، لكنني ظننت أن كل صاحب حقّ يأخذ حقّه ببساطة، فالشرع يكفل له ذلك، هكذا ظننت قبل أن أسير خلف هدف بعيد وغامض ومشوَّش.

صمت وبحر وضحكات باعة الأكشاك وثرثرة السياح العابرين:

«تعرفي سارا، نحن على طرفي نقيض، أنتِ تبحثين عن أهلك وأسرتك، وأنا أهرب منهم»، وأكملت: «ليتني أضع روحي في جسدك، وتضعين روحك في جسدي، وتعيش كلٌّ منا في سعادة وطمأنينة».

«لماذا لا تريدين أهلك ووطنك؟»، سألَت.

«هل تحسِّين بهذا الهواء سارا؟ الهواء الذي يتسلَّل الآن من تحت التي شيرت؟ هذا الهواء الحُرّ الذي يفتح مسام جلدي، لا أحس فيه في مجتمع يعتبرني منكراً».

أضفت:

«جسمي كله عورة»، وأشرتُ إلى البحر: «حتى البحر ليس له طعم في بلادي، لا يمكن أن أنزل البحر من غير عباءة، أو لأنتظر الظلام كي أنزل خفية عن أعين الناس».

ثم ابتسمتُ بسخط:

«تعرفين ماذا يجمع بيننا يا سارا؟ هي البلاد ذاتها، بلدي وبلد والدك، هي مصدر همومنا وحزننا، فلو كان والدك مسيحياً قد لا ينفق عليك، لكنه لن يتبرّأ منك، ويتهمك بأنك خطيئة، مع أنك لست كذلك، إياك أن تقتنعي بأنك خطأ، ولا أنا خطأ، نحن ضحايا عادات وتقاليد، ضحايا عنصرية وقبلية وخوف مما يقوله الناس».

كنت لا أتوقف عن الهذيان، أكشف كل شيء، أخبرها عن ذهنية الرجل في وطنها الذي تحلم به، الذي ينتقي نصوص القرآن حسب مزاجه، ويتجاهل ما عدا ذلك:

«كثير من الرجال يا سارا يختارون ما يروق لهم من الآيات،

﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٌ﴾، ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾... يؤطرون الدين بتلك الآيات، أما العدل والقسط والحقوق التي جاء بها القرآن فلا مكان لها عندهم».

«لكن أنا تعبانة يا رشا، قتلتني الوحدة والفقر، أحتاج أُسرة ألجأ إليها كلما ضاقت بي الدنيا».

«قد تخففي الوحدة بالأصدقاء، والفقر بالحرية، صدقيني سارا، الحرية لا تُقدَّر بثمن».

كنا نحكي بألم، ونحن نتسلَّى بهشاشة الفشار، نتأمل السماء الغائمة وهي تحتفي بالنوارس، بينما المحيط يفتح حضنه الواسع الذي لا ينتهي.

في الشقة بقيت سارا تشرب وتشرب حتى نامت، بينما لم أنم، كنتُ أفكر فيها، وفي الانتقام من أب مهمل ومتنكِّر، كأنني لا أساعدها فحسب، وإنما أساعد نفسي بأن أنتقم لها من الرجل في بلادي.

أقامت سارا عندي شهراً كاملاً، كنا نخطِّط كل شيء معاً، في الليل نسهر حتى ساعة متأخِّرة أعلمها القرآن، والوضوء، والصلاة. ابتعت لها مصحفاً باللغة الإنجليزية كي تفهم، مع تعليمها التلاوة بالعربية حتى لو لم تفهم بعد الكلمات. كنت أحدِّثها عن سيرة النبي، وسماحة الإسلام الحقيقي بعيداً عن تشويه الغرب، أو تشويه أهله ومن يتسمَّى به.

كانت سارا تنصت جيداً لقصصي عن النبي، تستمتع وهي

تتعلَّم، تسأل كثيراً، حتى قالت لي ذات مرة في ذروة اندهاشها من مواقف الإسلام وإنسانيته:

«تعرفين رشا؟ كنت أريد أن أسلم كي آخذ حقوقي من أبي، لكنني الآن أصبحت مقتنعة بالإسلام».

«يا رب تكوني صادقة، وما تغيِّري رأيك فيه. الإسلام دين عظيم يا سارا، لم يظلم المرأة أبداً، لكن العادات ظلمتها».

(30)

مجرّد مزحة صغيرة

اقترب عيد ميلاد سعود، فخطَّطتُ مع هشام على ترتيب مفاجأة جميلة له، بأن نحجز له طاولة كبيرة في ملهى ليلي، وندعو أصدقاءه، ونأخذه هناك مغمض العينين. اشتريت له قلم مونت بلانك، وجاكيت كالفن كلاين أبيض، فأنا أعشق اللون الأبيض كثيراً حين يرتديه، أراه جميلاً ومناسباً مع سمرته الخفيفة. كان مبتهجاً وهو يرتديه ويقف أمام المرآة، ويلتفّ حول نفسه، ثم يخطو نحوي ويضمُّني. كنت فكَّرت بأن نتناول وحدنا غداءً رومانسيّاً، قبل الذهاب مساءً إلى حفلة عيد ميلاده، لكن الساعات طارت تباعاً ونحن نطوف المتاجر في روديو درايف بحثاً عن حذاء أبيض بلا جدوى، بعدما قرَّر أن يرتدي حذاءً مناسباً مع الجاكيت، ولأنه صاحب ذائقة صعبة، ومتردِّد أيضاً، لا يستقر على شيء، فقدنا فرصة الغداء معاً، وعدنا سريعاً إلى الشقة، كي نستعد للسهرة.

لم يكن سعود يعرف أين سنقيم الحفلة، ولا من سيحضرها. كان يعتقد أننا نحن الثلاثة، هشام وهو وأنا، بينما نحن سبعة أصدقاء تقريباً، هشام وسارا وشيخة وشمسة وسالم ومبارك وجمال

وأنا. جهزنا، لبست فستاناً خمرياً قصيراً، وحذاءً أسود، بينما ارتدى سعود قميصاً مقلَّماً بالرمادي والأبيض، فوقه الجاكيت الأبيض، وبنطالاً رمادياً، وحذاءً أسود. بعد أن وصل هشام، أوثقنا وشاحاً حول عينيه، وأركبناه السيارة في المقعد الخلفي، وجلستُ بجواره، فشعرت بأننا زوجان يحتفلان بالذكرى الأولى لزواجهما في شوارع لوس أنجلوس، حلَّقت بي الأحلام، وربما الأوهام أيضاً، حتى توقّف هشام فجأة أمام كلوب بوليفارد 3، ونزلنا كالعريسَين، أمسك بيده، وأقوده بجواري، كأننا نجمان من نجوم هوليوود، حينما وقفنا أمام المدخل كان هشام يسبقنا، فصدحت أغنية الميلاد، «هابي بيرث داي تو يو»، وفككتُ الوشاح عن عينيه، حيث وقف الجميع يصفقون ويصيحون بصخب، كانت ليلة مدهشة، الجميع يشرب ويثرثر، كانت شيخة تعاتبني على الغياب الطويل، فاعتذرت منها، وقصصت عليها حكاية سارا الأميركية السعودية، فتعاطفَت معها كثيراً، واقترحَت أن نضمن دخولها إلى دبي، ومن ثم نفكِّر في السعودية، استحسنت الفكرة، ووعدتها أن نناقشها فيما بعد.

كانت السهرة صاخبة، غناء ورقص وجنون، خاصة شمسة التي تشرب بكثرة، وترقص بصخب واحتراف. كنت أضحك لجنونها الجميل، لكنها حينما راقصت حبيبي سعود، فززتُ كالممسوسة، والتقطته من أمامها، وراقصته رغم أنني لا أعرف الرقص، كان مبتهجاً وهو يحادثني بما يشبه الزعيق بسبب الموسيقى العالية:

«يا حلو حبيبتي وهي تغار».

«أجل! تأخذ حبيبي قدام عيوني؟».

«كنت متقصد إثارتك حتى تتحركي».

«خجلانة أرقص بفستان قصير».

«حتى لو، عيد ميلاد حبيبك وما ترقصي معه؟».

«شوف السعوديين كيف منتشرين بين الطاولات».

«أتحدى أحد يتجرأ ويطالع فيك، وربي أفقع وجهه».

كنت أراقصه بعشق، عيناي في عينيه، ويده تلتف على خصري، وأصابع يده الأخرى تعانق أصابعي، بينما شمسة تراقص جمال البحريني، ثم مبارك، وثالث لا أعرفه، من مجموعة شباب آخرين. كانت ترقص مع الكل، وتتنقَّل من حضن إلى آخر بمتعة. كنت أغار منها كثيراً، وأخشى على حبيبي منها، أتخيَّل دائماً أنها ستختطفه منِّي، متى غفلتُ عنها، وسنحت لها الفرصة.

كانت ليلة استثنائية، وحين عدنا كان يقبِّلني أمام سارا، فأخجل منها، وأدفعه برفق عنِّي: «ما يصلح قدامها».

«طيب ينفع نصير ثري سوم؟»، قالها مازحاً.

«نعم؟»، تساءلت بغضب.

«أنا موافقة»، قالت سارا ضاحكةً.

احمرَّ وجهي غيظاً، وأحسست بأمعائي تضطرب، ومع ذلك تصنَّعت ابتسامة قصيرة، ومجرَّد أن انفصلنا عنها في طريقنا إلى الشقة حتى انفرطت في وجهه بغضب، فحاول أن يجذب رأسي نحوه، ويقبِّل يدي، ويكرِّر أنها مجرَّد مزحة صغيرة، جاءت طبيعية بعد سهرة أنس وضحك وسعادة مفرطة، ثم كعادته قلب الطاولة، وجعل اللوم عليَّ: «يعني ما كان فيها شيء أن أقبِّلك قدَّامها، وقدَّام الناس كلهم».

(31)

أختلقُ قصصاً عن أبٍ لا أعرفه

لا أعرف لِمَ قلت: «أنا موافقة» حين خرجنا من كلوب بوليفارد 3، وحتى لو كانت على سبيل الضحك والمزاح، فقد كان واضحاً أن صديقتي رشا تنكَّدت، رأيت وجهها وملامحها، كم كنت غبية، صحيح أنني أستلطف سعود، لكن ذلك لا يعني أن أسيء لصديقة فعلت لأجلي ما لم يفعله الآخرون، لقد نذرت وقتها للبحث عن حلٍّ لمشكلتي، بحثت عن أبي حتى عثرت عليه، وعلى أخي بدر، أنقذت حياتي مرتين، مرة من الضياع والوحدة، ومرة ثانية من الموت حين أنقذتني من الانتحار، وجلست بجواري في المستشفى، وآوتني في شقتها لأيام حتى تعافيت، وها هي تقودني في خطة طويلة لإعادة حقوقي المسلوبة، فلم يكن مزاحي لائقاً، وكنت سأعاقب نفسي أكثر لو لم أكن في حالة نشوة البارحة، بعدما شربتُ كثيراً، فكنت سعيدة جداً، وخفيفة، أكاد أحلِّق بجناحي فرح وصخب.

كنت ممتلئة بالأصدقاء ليلة البارحة، وبخاصة الشباب الخليجيون، فلم أعرف الرجل في حياتي، لم أعرفه للأسف،

كحضن ودفء واهتمام، وعلاقة طبيعية، لم أعرفه كأب، ولا كحبيب، فعلاقتي بالرجل من المراهقة وحتى الآن، علاقة شهوة وجنس ومال فقط.

لم يربّني أبٌ، ليس لي خال، ولا أعرف شيئاً عن أعمامي، ليس لي إخوة، لم أعاشر ذكوراً إلّا في نطاق العمل أو الشهوة العابرة، كم هو محبط أن يُعلن في المدرسة عن «يوم الأب» أو «يوم الأم»، وتوجَّه الدعوات للآباء والأمهات، ربما حضرت أمي بضع مرات، وجدّتي مرتين، ما عدا ذلك كنتُ كاليتيمة في المدرسة الابتدائية، ربما الفرق بيني وبين اليتيمات أن أمهاتهنّ وآباءهنّ رحلوا، بينما أمي وأبي على قيد الحياة. كنتُ أقضم أظفاري في قاعة الحفل، وأتأمل زميلاتي يتمسحن بأمهاتهنّ، اللواتي يمسكن أيديهنّ الصغيرة، يطبطبن عليهنّ بحنان، كم كان حزيناً أن أحدّق كفتاة خرقاء في رجل ضخم تركض نحوه زميلتي فيتلقفها، ويحملها فوق ذراعه. كم أشعر أنها فخورة به، وبحمايته لها، وهي تنظر من الأعلى نحونا. حين تصطاد وجومي ونظراتي التائهة إحدى الأمهات، وتسألني عن أمي أو أبي، أتحجّج بأنهما غنيّان، وخارج البلاد في مهمات عمل، وصفقات تجارية، كنت أختلق قصصاً من خيالي عن أب لا أعرفه، وأم سجينة خلال معظم مرحلة طفولتي، وجدَّة كبيرة ومتعَبة.

لا أحضر أعياد ميلاد أصدقائي، فليس لديَّ أحدٌ يمكن أن يأخذني إليهم، وحتى لو كان لديَّ أحد، لا أود ذلك، فكلما شاهدتُ طفلاً ممسكاً بيد أبيه شعرت بالفقد، وانتابتني حالة حزن عميقة، حتى حينما قضيت سنتين في منزل الأُسرة الحاضنة، كنت

أعرف أن البيت ليس بيتي، وربَّ الأُسرة ليس أبي، ومشاعره الدافئة وحنانه لن تجعل منه أباً حقيقياً، وامتثالي لأوامره لن تجعل منِّي ابنة مطيعة، كل شيء لن يغيِّر شيئاً.

في المتوسطة والثانوية تغيَّرتُ، لم أعد أخجل من أنني لا أعرف أبي، وأن أمي مشغولة بعملها، لا يهمُّني ما يُقال، أصبحت مراهقة شرسة، لست مهتمَّة بأحد، فمن سيهتم بي، وبأبي وأمي، وأنا فتاة معدمة، ملابسي مستعملة ورخيصة، لا تتغيَّر معظم الأيام، مع أنني في الثانوية، وحتى الآن، أصبحت أهتم بشراء الماركات المقلَّدة، أريد أن أبدو من الطبقة المترفة، ماذا يضر تزوير فتاة لفستانها وحقيبتها في عالم كاذب وقميء؟ لا شيء، فأنا جزء من هذا العالم المزوَّر، العالم الذي يتحرك بأقنعة كثيرة.

ألم أكن ذات يوم في طفولتي المبكّرة، أصغر مروِّجة مخدرات، حينما كانت أمي تستغلني بأن ترسلني إلى شخص يقف عند ناصية شارع بعيد، أو يجلس في مقهى على جادة؟ ألم تُضع عليَّ فرصة أن أدخل موسوعة جينيس، كأصغر مروِّجة؟ كنت لا أعرف ماذا بداخل الكيس الصغير في يدي، ولا أعرف لِمَ يمنحني هؤلاء المال الذي أعود به راكضة نحو أمي.

كان سجنها خلاصاً لي، كي أنجو من مستقبل معتم، بينما أيامي القليلة مع جدَّتي كانت أجمل أيام حياتي لولا أنها سقطت في غيبوبة، وتركتني للمجهول. لم يتوقف الأذى حتى حينما خرجت أمي من السجن، لكنه كان مختلفاً هذه المرة، فقد كبرتُ ونضج جسدي قليلاً، وأصبح الرجال الغرباء الذين تستضيفهم أمي يغتصبونني حين تنام، كنت أصمت ولا أخبرها، خشية أن ترحل عنِّي

مجدَّداً، وأعود إلى دار الأيتام، أو أُسرة حاضنة. وأنا أريد أن أبقى معها، ما جعلني أتحمَّل كل شيء لأجلها، ولأجل حياتنا معاً.

أكتب يومياً في فيسبوك، أدوِّن حكاياتي وهمومي الصغيرة، وحين نشرت صورة لي على السرير الأبيض، ومحاولة انتحاري الفاشلة، كتب لي أخي بدر رسالة مباشرة، طبعاً على الخاص كي لا يعرف أحد أنه يحادثني، كتب لي: «الحمد للّه على سلامتك، هل أنتِ بخير؟»، فرحت برسالته، لأنني لم أزل أتعلَّق بقشة أمل متأرجحة.

بعد أيام من خروجي اتصل بي، وقال إنه سيزورني في شقتي، رفرفتُ وركضت أجهِّز نفسي، وأنظِّف المكان المتواضع، أرفع بقايا الأكل، وعلب البيرة المكسيكية التي أحبها، وزجاجة نبيذ فارغة، وملابسي المتسخة والمرمية، ثم بدأت أحضِّر قهوة عربية كنت حصلت عليها من رشا. وددت أن أبدو أخته السعودية، بقهوتي العربية، وملابسي المحتشمة.

رنَّ الجرس فهرعت نحو الباب، صافحني ببرود، طلبت منه أن يدخل، فتردَّد وهو يقول: «لن أبقى طويلاً». جلست أمامه كتلميذة، تنحنح: «تأكدت من أبي أنك أختي. عرفت القصة كاملة». فابتسمتُ ابتسامة واسعة جداً، ربما أكبر من المحيط، كان قلبي يخفق كما لو كان سينفلت من قفصه، كنت أتمنى أن أقفز بجواره وأحتضنه، وأضع رأسي على صدره، وأبكي: «آه يا أخي، كم أنا بحاجتك!».

تنبّهتُ إلى أنني لم أحضر له فنجان القهوة، نهضت على عجل، ووضعت الفنجان أمامه، وأنا أقول له بانشراح: «قهوة عربية صنعتها

لأجلك أخي». كنت ألفظها بدهشة وارتباك: «أخي»، كمن يتعلَّم المشي، يبحث عن جدار يستند إليه لئلا يسقط: «هل أحضر لك حلوى، ليس لدي تمر». أجاب: «لا، جئت فقط أخبرك أنني لا أستطيع أن أعترف بك كأخت، لأنني سأتعرّض إلى مشاكل كثيرة»، صمت لوهلة، ثم أضاف: «هو لا يعرف أنني هنا، أعني أبي، لأنه سيغضب كثيراً، ويوقف دراستي، ويقطع مصروفي، وقد يطال الأذى أمي، وينهار بيتنا».

كل السعادة التي خفقَت في عينَيّ كفراشات ملوَّنة، تبخَّرت فجأة، وانتابتني حالة مباغتة من الحياد.

«كل ما أستطيع فعله، مساعدتك بمبلغ من المال كل فترة»، وأضاف: «ليس مالاً كبيراً، حسب قدرتي، فبطاقاتي مرتبطة بأبي، ويعرف عني كل شيء»، ثم نهض وترك لي مظروفاً صغيراً على الطاولة. خرج دون أن يودِّعني، فقط قال: «باي»، دون أن يمدَّ يده ليصافحني. ناولني ظهره: «لحظة بدر، هل يمكن أن نخرج معاً».

«لا».

قال ذلك وهو يهبط من سلَّم الدرج مثل أرنب صغير مذعور.

اللعنة على هؤلاء البشر، أليس لديهم مشاعر؟ ألا يفكِّر كيف عشتُ وحيدة ومحرومة كل هذه السنين، منتظرة رائحة أحد من أهلي؟ لماذا يبخل عليّ بشيء كهذا؟ يا للوحشة، كم تمنّيت أن أقفَ أمامه وأمسك يديه وأهمس: «افتقدتك أخي»، أن أتحسس وجهه كعمياء، ألمس شعر رأسه، ولحيته الخفيفة الناعمة، وأجذبه فجأة إلى صدري، لماذا تفعل بي ذلك أخي وحبيبي بدر؟

عدتُ إلى الطاولة، ورميتُ جسدي المتهالك في مقعده، لم

يرتشف قهوته، لم يجاملني ولم يذقها. التقطت المظروف الصغير وفتحته، ثلاثون ورقة من فئة المئة دولار، هذا المبلغ كبير، وسيحقّق لي أحلامي الطائشة كفتاة محرومة. قلت لنفسي: «هذه المرة ستقتنين حقيبة بربري أصلية وليست تقليد»، فدفعت 1200 دولاراً لها، وكمبيوتر محمول بألف دولار، وجهاز بلاك بيري، وسدّدت بعض المستحقات الصغيرة. أخيراً بدأ الزمن يبتسم لي.

(32)

لماذا لم تنامي حتى الآن؟

أقضي وقتي في الجامعة، أنجز مهامي في المعمل، وأمضي فراغي مع شيخة وهشام، وأحياناً مع سارا التي أدرك أنها بحاجة إلى أي إنسان يذكِّرها بوطنها، الوطن الذي تحبه دون أن تعرفه وتعيش فيه، وتخالط ناسه الطيبين، أو الأشرار، ناسه الذين يقودونها كعمياء.

ذات يوم، قرّرنا أنا وسعود وهشام أن نسافر إلى لاس فيغاس ليومين أو ثلاثة، كنَّا ثمانية أصدقاء في سيارة واحدة، هشام وسعود في الأمام، وأنا وشيخة وشمسة في المقعد الأوسط، وفي المقعد الخلفي تجلس سارا واثنتان من صديقات شيخة، هما مهرة وسمر، ما زالتا تدرسان اللغة. كان الطريق ممتعاً، ثرثرة وغناء، وكل فينة أرفع يدَيّ للخلف، فتشتبكا بيدي سارا. رغم أنها تفهم بعض المفردات العربية، ورغم ثرثرة مهرة معها بإنجليزية ركيكة، إلا أنني أشعر بغربتها، فألتفت نحوها لأحادثها وأمازحها وأبتسم لها.

بينما يقود هشام السيارة، راح يتحدّث عن لاس فيغاس كمدينة كازينوهات وحانات، ولأنني وحدي من ينصت له جيداً، رغم ثرثرة

شيخة وشمسة بجواري، صار يشرح لي لعبة الورق، كيف يفوز بلعبة البلاك جاك، وكيف يخسر الكازينو. تذكّرت فيلماً عنوانه 21 يحكي قصة حقيقية عن شباب اكتشفوا طريقة متقنة للفوز في اللعبة، فكسبوا مبالغ طائلة، حتى تمَّ اكتشافهم.

كان هشام قرأ كثيراً عن طريقة عدّ البطاقات، حتى أتقن اللعبة، ومع أنني لا أفهم الرياضيات جيداً، إلّا أنني التقطت بعض المهارات منه، وفكَّرت لماذا لا أجرب؟ قد أكسب مالاً سريعاً، وأدعم سارا في رحلة البحث عن الأب.

وصلنا لاس فيغاس ظهراً، كانت المدينة حارَّة وصاخبة، تسلَّلنا كغرباء يرمِّمون أوقاتهم باللهو والشغب، سرنا مع دليلنا هشام الذي يعرف المدينة جيداً، حتى بلغنا شارع ستريب، ونزلنا عند فندق سيزر بالاس، فسكنتُ مع البنات في جناح بغرفتين، بينما كان هشام وسعود في غرفة مستقلة، أقضي فيها معظم الوقت، مع صديقي وأخي هشام، وحبيبي سعود.

منذ وضعنا حقائبنا في الغرف، بدأت البنات، شمسة وسارا ومهرة وسمر، يشربن منذ الظهيرة، هذه المدينة مسموح فيها الشرب طوال اليوم، وفي أي مكان، حتى في الشوارع. اقترحت شمسة أن نشاهد عرض سيرك دي سو ليه، فأخذنا ست تذاكر لنا، بينما سخر منَّا هشام وسعود، بأن نرمي مئة وخمسين دولاراً على تفاهات مهرجين.

كنَّا نتجوَّل في شارع فيرمونت، بضجيجه وازدحامه، بلوحات النيون الصاخبة تملأ السماء والأرصفة، الحانات، الكازينوهات،

فرق الموسيقى والرقص، النساء شبه العاريات يعرضن أجسادهنّ. كنا نسير جماعات متتابعة، في الأمام هشام وسعود، وخلفهما شيخة وأنا، ثم باقي البنات، ورغم أنني أنصت لشيخة، كنت أصطاد نظراتهما الجائعة نحو الفتيات المبتسمات، وألتقط حديثهما أمامي وهما يخطّطان لجلب فتاتَين حين نغيب عنهما في السيرك، فجأة التفت سعود ضاحكاً حينما شعر أنني وراءهما مباشرة: «ما رأيك حبيبتي؟».

«جرِّب!»، قلتها بتحدٍّ وغيظ.

لم تفهم شيخة الإشارات المشفَّرة بيننا، فقد واصلت حديثها عن حقائب إيف سان لوران. لا أعرف لماذا شعرت بأنهما جادَّان في ذلك، وبخاصة سعود، الذي فاجأته ذات مرة، وهو يعبث بشيئه أمام شاشة الكمبيوتر، ولم أسأله ماذا يفعل، هل كان ينتشي برؤية مقاطع فيديو، أم في محادثة مع امرأة!

كان العرض مدهشاً، استمتعنا كثيراً بمشاهدة الأجساد المرنة، والقفزات الهوائية، الاستعراض فوق الأرجوحة العالية. خرجنا إلى ملهى ليلي، بينما أفكِّر بالعمليات الحسابية التي شرحها لي هشام أثناء الطريق، كنت أخطِّط لاقتحام الكازينو دون أن أخبر أحداً. سهرنا في ملهى ليلي رائع حتى منتصف الليل، ثم عدنا إلى فندقنا الجميل الذي يعكس الثقافة الإيطالية، ويحتفي بتماثيل عراة للقيصر، ويرتبط به مركز فوروم بمحاله التجارية المتنوعة، وكازينو واسع وجميل. حين دخلت مع البنات في الجناح، وبدَّلت ملابسي، خرجت وقد اعتقدن أنني ذاهبة إلى غرفة الشباب، بينما هم يعتقدون أنني عندهنّ، نزلت إلى الكازينو، كنت متوجّسة ومتردِّدة بعض الشيء، قلت لنفسي سآخذ

جولة وأعرف كيف يفعل الآخرون، لفهم المزيد قبل المغامرة بمئة دولار كنت أضعها في حقيبة اليد الصغيرة، وكذلك تطبيق الخطة النظرية الرقمية لهشام، فإن نجحت معي، أكملت اللعب، وإن خسرتُ عدتُ إلى الجناح بهدوء، ونمت دون أن يشعر بي أحد.

كانت الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً حينما نزلت للعب، ولم أتنبّه إلّا باتصال شيخة:

«أينك؟ لماذا لم تنامي حتى الآن؟»، كانت تعتقد أنني عند الشباب، فأخبرتها:

«تحت في الكازينو».

«كم الساعة؟ تعرفين؟».

فوجئت بأن الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً، كنت مأخوذة خلف اللعب الذي لا ينتهي، كنت كفتاة الغابة التي ترمي حبوب القمح خلفها كي تعود إلى البيت، فأكلت الطيور حبوبها كلها، ولم تستطع العودة، لكن الفرق بيننا أن الآلات لم تأكل نقودي، بل أنا من فعل ذلك، وعدت إلى الجناح وبداخل حقيبتي الصغيرة 1300 دولار. كنت أرفرف فرحاً ومتعةً، فقد أتقنت اللعب جيداً.

في اليوم التالي اتصل سعود مراراً، فأيقظتني شيخة، وحين خرجنا عصراً أخبرته أنني كنت في الكازينو، وكسبت مالاً كثيراً:

«لكن هذا قمار يا رشا، يعني حرام».

قال لي ذلك، ونهاني على فعل ذلك مرة أخرى، قلت له:

«أنت تعرف أن المال لا يهمني، لكنني أجمعه كي أساعد سارا».

«أنا لست مرتاحاً لعلاقتك بها، ولا تعجبني» ثم أضاف: «امشي مع شيخة وشمسة، منَّا وفينا».

كنت لا أعصي له أمراً، أطيعه دائماً، وأنفِّذ أوامره، لكنني هذه المرة لن أفعل، ولو فعلت سأبقى طوال حياتي أشعر بالذنب بأن تخلَّيت عن إنسانة مظلومة من أحد أبناء وطني، ممن هو في مكانة أبي. يجب أن أكون معها حتى تسترد كينونتها، هي الآن تشعر بالضياع والوحدة، تعاني من الفقد، وليس أي فقد، فقد الأب الذي تلجأ إليه البنات في حزنهنّ وفرحهنّ، ثم كيف أتخلَّى عن قضية امرأة، وأنا التي قاتلت أهلي، وجابهت أبي لآخذ حقّي في التعليم بالقوة، فكيف بحقّ الذات والانتماء!

لم أُجابه سعود وأعارضه، هززت رأسي: «أبشر». أحياناً لا جدوى من النقاش معه حول ما يجب وما لا يجب في حياتي. ظللت أنزل سرّاً إلى الكازينو، أقضي فيه ساعات، أخسر قليلاً وأكسب كثيراً، وعدت في النهاية إلى لوس أنجلوس ومعي ثلاثة آلاف وخمسمئة دولار تقريباً.

لم تتوقف رحلاتنا إلى لاس فيغاس، فكلما حانت لنا فرصة سافرنا، خاصة سعود وهشام وأنا، والبقية يتغيَّرون حسب ظروف الدراسة أو العمل. كنت أدمنت اللعبة، وأصبحت مقامرة محترفة، وبعد أكثر من رحلة كسبت ثلاثة عشر ألف دولار، فنادراً ما أخسر، لقد أصبحت خطوط اللعبة كخطوط كفّي، أعرفها جيداً.

لم أفكِّر بشيء إلا بسارا، كيف أساعدها، أخفِّف وطأة وحدتها، أحقّق بعض أحلامها البسيطة، وقد أسرَّت لي يوماً برغبتها في تغيير سيارتها، فمنحتها سبعة آلاف دولار ذات نهار، قالت إنها

تحتاجها، وثانية طلبت ألفي دولار، وهكذا تناقص المبلغ شيئاً فشيئاً، ومع الربح مرة والخسارة أخرى، تلاشت أحلامنا في السفر إلى دبي، ومنها إلى الوطن.

لم أجادلها في ذلك، ربما كانت تحتاج إلى المال داخل أميركا لا خارجها، ربما كانت حاجتها مادية أكثر من كونها عاطفية، لكنها في كل الحالات تفتقد أُسرتها.

(33)

ذاكرة الأغنيات

محزنٌ أن تقف على رصيف محطة، ترى العابرين أمامك يصعدون إلى عربة قطار أو حافلة، ويغادرون، بينما تجلس وحيداً فوق حقيبة السفر، تنتظر مقعدك.

كان الأصدقاء يأتون ويذهبون، وأنا باقية في لوس أنجلوس، هكذا تخرَّجت شيخة وشمسة هذا العام، وقد احتسبت لهما الجامعة ساعات السنة التي ضاعت عليَّ، ورغم سعادتي بأنني تخلّصتُ من شمسة، والشكّ الذي يأكلني في علاقتها بسعود، إلّا أن فقدي شيخة كان كبيراً، تماماً كفقدي صديقتي وشريكتي في السكن كيت في السنة الأولى، التي أدخلتني بقوة إلى الحياة الأميركية، في حين أعادتني شيخة إلى رائحة الأهل والخليج واللؤلؤ والمحار. ها قد عدتُ مجدَّداً إلى الحياة الأميركية السعودية، تلك الحياة الملتبسة والمرتبكة التي أدخلتني فيها سارا، وحكايتها الحزينة.

كثيراً ما أسأل نفسي، هل أقف على الرصيف فعلاً، وهم يمرُّون بي ويختفون؟ أم أنا من يمشي بينما يقفون هم في انتظار غيري؟ هل الحياة هكذا لا تكفّ عن الركض؟ تدور وتدور، وكلما

ملَّت من أحدنا طوَّحت به إلى العدم؟ ماذا ستفعل بي الحياة؟ إلى أين سأمضي؟ هل أعود يوماً مع سعود إلى الوطن؟ وأكوِّن معه أُسرة صغيرة؟ هل سأبقى إلى الأبد هنا؟ أحياناً أتمنى أن أجمع أهلي وأصدقائي وصديقاتي في منزل ضخم، كي لا أفتقد أحداً منهم، هه.. ما هذا الهراء؟!

لو كل الذين مرُّوا بنا بقوا معنا حتى نموت لأصبحت حياتنا لا تُطاق، نحن كالأرض التي تتخلَّص من ملايين البشر سنوياً، لتدفنهم في باطنها، نحتاج أن ندفن الأشخاص والذكريات كي ننجو، لا أتخيَّل أن يُضرب الموتُ عن عمله؟ ويكفَّ عن تنظيف الأرض من الكائنات، حتماً ستحدث كارثة، كذلك نحن، سنصاب بالجنون ما لم نجدِّد هؤلاء الذين يسكنون الذاكرة، أفكّر بعقل، لكن عاطفتي تطوّقني، وحنيني يقتلني كلما استعدت الذكريات.

اقترب الصيف، وفكَّرت بالسفر إلى واشنطن لتمديد بعثة الدراسة، فالاتصال الهاتفي لن ينجز الأمر، لا بدَّ من الذهاب هناك، والوقوف أمام الموظف وجهاً لوجه، وتحمُّل تعليقاته وتلميحاته، لكي تُحل الأمور. اقترحتُ على سارا أن تذهب معي، فغرفة الفندق ستُحجز لي، وعليها أن تتدبَّر تذكرة السفر فقط، وأساعدها في المعيشة، كي تبحث أمر سفرها إلى الوطن بنفسها، فحضورها مهم لحلّ مشكلتها مع أبيها. أما سعود فمن الصعب أن يُغادر معنا، فتأشيرة بعثته الدراسية ستنتهي، ومعدله ما زال ضعيفاً، ومهدَّدٌ بالطرد، نصحته مراراً، وحذرته بأنه سيعود خالي الوفاض، لكنه يضحك دائماً باستهتار: «يكفي أنني سأعود بك!».

في المطار احتضنني سعود بقوة، ثم احتضن سارا أيضاً، لم يُثِرْ

ذلك شيئاً بالنسبة إلي، فالحياة في الغرب مختلفة، مع أنني حتى في الشرق قبلت ذلك، ولم أهتم كثيراً حينما قبَّل حبيبي السابق عبد الإله صديقتي سامية في سلالم الطوارئ منذ سنوات، ربما كنتُ أثق بالحب وحده، أراهن عليه دائماً، أرسم عالماً فاتناً وصادقاً وأميناً، أبذل كل شيء ولا أكفُّ عن العطاء.

صعدنا طائرة «يونايتد إيرلاينز»، ومع أن الرحلة كانت طويلة، خمس ساعات تقريباً، والطائرة لا تتوافر فيها وسائل ترفيه كطائرات الخطوط الخليجية، إلا أننا قضينا وقتاً جميلاً، نتحدث قليلاً، ثم تعود سارا إلى رواية تقرأ فيها، بينما أعود إلى جهاز الآيبود، وأرمي بصري من النافذة صوب براري الغيم، مصحوبة بالأغاني العربية التي أعشقها، فلكل أغنية ذاكرة خاصة، يردّد محمد عبده أغنية «الأماكن»، فأذهب بعيداً مع عبد الإله ونحن نَمتُر شوارع الرياض، وراشد يغنِّي: «أسافر في سما النسيان» فأتذكر عمِّي عبد العزيز، وأحلام تغني: «قول عني ما تقول» فتحضر سامية باعتدادها، أما محمد حماقي فيجعلني أبتسم وأنا أشاهد ابتسامة هشام العذبة حين قابلته أول مرة. . . كل الأغاني ترتبط بالأشخاص الذين مرُّوا في حياتي، كل منهم التصقت به أغنية أو أكثر، فلم أستطع التخلُّص من تلك الذكريات البعيدة.

ورغم أن الأغاني تقودني للحظات إلى ما وراء المحيط، إلا أنني أفكِّر طويلاً فيما سنفعل غداً في الملحقية والسفارة، فغالباً سيسألون عن المرافق الذي سيوقِّع الأوراق، ولن يقبلوا توقيعي لأنني في نظرهم كائن غير عاقل، ولا يدرك تصرفاته، فمن أين أحضر أبي الذي يستحيل حضوره!

التقطنا حقائبنا، وأخذنا تاكسي بثمانين دولاراً تجاه إم ستريت، الذي لم يكن بعيداً عن الملحقية والسفارة المتجاورتَين، لم يكن سعر فندق روز وود مناسباً تماماً، مع أنني حجزت من موقع برايس لاين، إلّا أن موقعه في شارع متفرِّع من إم ستريت جعلني أجزم بمتعة الإقامة فيه.

قالت لي سارا بقلق ونحن نتعشى المعكرونة في مطعم فلافيو الإيطالي المقابل لبوابة الفندق: «أخشى أن تفشل محاولتنا يا رشا». ضحكتُ وأنا أشاغبها: «يكفي أننا سنقضي بضعة أيام رائعة في واشنطن دي سي»، كان النادل ذا ملامح إيطالية، سمين وبشعر أجعد قصير، ونظارة كأنها من زمن الثمانينيات، كنت أتأمّل العبارات فوق المشرب، فصاح: «لا تنظري إلى هذه الخربشات، انظري إلى قلبك فقط!»، ابتسمتُ وهو يضع أمامي كأس شاي مثلّج: «ماذا تعني؟»، أجاب بغمزة ذكية: «أحياناً يحدّق الناس ببلاهة نحو البعيد، وربما يحترسون منه، لكنهم يتجاهلون ما يلامس أصابعهم» أضاف: «انظري تحت الطاولة»، نظرت فعلاً، تحت أقدامي، فضحك وهو يغادر: «مزحة!».

تناولت سارا كأس نبيذ أحمر، وقرّرَت أن تتفاءل، مع أنني في داخلي أشعر أن الأمور ليست بالبساطة التي تظنها. حين خرجنا كانت المصابيح الحمراء تتخلل شجراً كئيباً في ليل إم ستريت، فتضفي عليه مزيداً من الحزن والوحدة والحنين.

كنّا مرهقتَين، وقد ذهبنا في نوم عميق، فأيقظني صباحاً صوت معدتي الذي يشبه طبول حرب، كأننا لم نأكل شيئاً منذ الأمس، أو كأن معكرونة البارحة جنود إيطاليون يتعاركون في بطني. تسلّلتُ إلى

الحمّام كلصٍّ، ثم أيقظتُ سارا، ولبسنا على عجل، كنا نفكّر أن نفطر في مطعم الفندق، لكن أسعاره الباهظة جعلتنا نعدل عن ذلك، ونقرّر أن نتناول شيئاً خفيفاً في الخارج. بعد بضع خطوات عثرنا على بقالة يديرها صينيون، قادتنا إليها الرائحة الغريبة، فأخذنا عصيراً، وقطعتي كعكة، التهمناهما على عجل ونحن نمشي في صباح معتدل وناعم. اتجهنا أولاً نحو السفارة، كي نخلِّص أوراق سارا، كنتُ حريصة أن نحقّق تقدُّماً في قضيتها، وقد راسلنا السفارة من قبل، وأسندت القضية إلى الموظف المختصّ. أمام بوابة السفارة كان يقف حارس أسود ضخم الجثة، منحناه بطاقتينا، واسم الموظف الذي نقصده، وبعد تفتيش دقيق دخلنا، حتى وصلنا الموظف. كان رجلاً في منتصف العمر، بشارب خفيف وحبة خال صغيرة في طرفه الأيسر، يرتدي بذلة رمادية من غير ربطة عنق. كان مهذباً ومبتسماً، أمرنا بالجلوس، وبعد مراجعة الأوراق كلها قال إن كل شيء حتى ورقة النسب لا جدوى منها، ما لم يعترف الأب بها. حاولنا أن نستجديه، وشرحت له معاناتها ووحدتها وحاجتها إلى أسرة.

«مستحيل» وأضاف: «من غير اعتراف الأب، أو أحد أعمامها، أو جدها لأبيها، فالقضية معقّدة ومستحيلة».

قال ذلك، وشرح لنا أنه تمر عليه حالات كثيرة لأطفال سعوديين تخلَّى عنهم آباؤهم، فلم يستطيعوا عمل شيء لهم:

«إصدار جواز لها ودخولها السعودية أمر مستحيل».

أحسست أن طائراً أسود حطَّ على وجه سارا، وراح ينقر مآقيها، كما لو كان سيشرب دمعها. كانت محبطة تماماً، قبل أن يضيف:

«لكن تستطيع التقدّم بطلب تأشيرة عمرة، ثم تحاول إقناع والدها هناك».

مرَّت ساعة تقريباً من المفاوضات، والمحاولات الفاشلة، قبل أن نخرج، وأطمئن سارا بأن الخطوة القادمة هي ادِّخار المال للحصول على تأشيرة عمرة، والسفر، ثم محاولة لقاء والدها.

خرجنا إلى الملحقية الثقافية، ولم يكن ثمَّة تفتيش دقيق، فقط منحونا بطاقتَي زائرتَين، ودخلنا عند أحد الموظفين عن شؤون الطلاب، بوجه مستدير وحبة خال كبيرة أسفل وجهه تنبت فيها شعرة سميكة، قدمت له أوراقي لتمديد البعثة الدراسية، قلَّب أوراقي، وقال لا بدَّ من حضور المرافق لتوقيع نموذج الطلب. قلت له إن مرافقي أبي، وهو مريض ويصعب حضوره.

«آسف، لن يُنظر في طلبك من غير توقيع المرافق».

خرجتُ من عنده، وعند سلالم الطوارئ الجانبية قمتُ بتوقيع الطلب نيابة عن أبي، بينما سارا تهمس وهي تكزُّ أسنانها بخوف: «يا مجنونة هذا تزوير!».

«أعرف»، قلت ذلك وأنا أبتسم، قبل أن أعود إلى القاعة مجدداً، نحو موظف آخر، وجهه ليس مستديراً، ومن غير حبة خال بشعرة سميكة، تفحّص أوراقي ببرود، ثم وقَّعها، ودمغها بختم سحري، يمنحني الدراسة لسنة إضافية.

حين خرجنا كانت سارا تصيح بذهول: «ما هذا يا مجنونة، كيف حصل ذلك ببساطة؟».

«من له حيلة فليحتل».

«لماذا لم نفعل في السفارة؟»، ضحكت لبساطة تفكيرها،

وشرحت لها بأن الأمر مختلف، هناك جنسية وطن، وهنا مجرَّد موافقة مرافق لا داعي لها أصلاً.

قضيت مع سارا أربعة أيام رائعة في واشنطن، كنَّا نتجول في كل مكان، زرنا كثيراً من الأماكن السياحية، سهرنا في المطاعم العربية، مطعم تافيرنا، حيث يغني مطربون هواة بعض الأغاني العربية الشهيرة، رقصنا معاً، بعدما علَّمتها الرقص الخليجي، وفي اليوم الخامس غادرنا إلى المطار، ودَّعتها، واتجهت نحو بوابة رحلتي إلى الرياض، كي أقضي إجازتي السنوية مع أهلي.

(34)

صورتان لسماء حمراء أحتفظ بهما

لم يتغيّر شيء في مدينتي التي أحنُّ إليها، وأغضب من صمتها ونومها الطويل، لم تتغيَّر صديقاتي كثيراً، ما عدا نهلة التي تزوّجت وأنجبت صبيّاً أسمته عاصم، وأم هيفاء التي أصيبت بسرطان الثدي، أما بقية الصديقات فلم يزلن كما تركتهنّ، وإن صرت أكثر زهداً في علاقاتي، كأنما انطفأتُ قليلاً.

قضيت شهرين كاملين في الرياض، أيامي موزعة بين أمي وأبي، وصديقاتي، والتجوّل في المراكز التجارية، والمطاعم، وأتحدّث مع سعود يومياً من خلال السكايب، حيث يقضي وقته مع هشام وسارا وبقية الأصدقاء، بجدولهم اليومي الأكثر إثارة من يومي الكئيب، خصوصاً في الشهر الثاني من إجازتي، وقد بات الوضع مملاً ورتيباً، إذ أنتظر بشغف عودتي إلى بلادي التي أعشقها: أميركا.

قبل السفر بأسبوع تقريباً كنت أحكي فيديو سكايب مع سعود، كان في سهرة مع آخرين في شقة هشام، وحين سألته عمَّ يريد أن أجلبه معي من الرياض، بدأ يعدد الأشياء: كروز دخان، وقهوة، وهال، وتمر، وبهارات، وجبن، وشيبس تسالي... فجأة مرَّ بجواره جمال البحريني، وسلَّم: «هلا رشا»، أجبته: «هلا جمال»

وكان قد تجاوز الشاشة، ثم عاد وهو يقول ضاحكاً: «اتركي السعودي، ترى كذَّاب، السعودي ما يتزوَّج حبيبته. البحريني هو من يتزوج حبيبته». فجأة، التفّ سعود كأفعى وجذبه من ياقته، وهو يصرخ بانفعال: «أنا كذَّاب يا حيوان؟»، وألصق وجهه أمام عينيه، رافعاً قبضته: «أنتم تتزوجون أي بنت، لأنكم بلا نسب، أحنا عندنا أنساب وقبائل، وأنتم تتزوجون شيعة وعبيد وإيرانيين وكل من هبَّ ودبَّ. . .»، فدفعه جمال بقوة، ثم عاد سعود ولكمه في وجهه، وصارا يتعاركان بعيداً عن الشاشة، حتى أصابني خوف وأنا أسمع صوت عراكهما. كدتُ أصرخ به، لكنني سمعت هشام والآخرون وهم يفصلون بينهما، فأقفلت الاتصال فوراً، واتصلت بسعود هاتفياً، ولم يجب، ثم أعدت الاتصال مراراً، حتى أجاب وهو يلهث، ليخبرني أنه خرج من شقة هشام، وهو ذاهب إلى شقته، حاولت تهدئته، وقلت له إنه انفعل بالصراخ والشتم والضرب من غير حاجة ولا سبب واضح، فأسكتني بصفاقة: «كلي تبن أنتِ الثانية».

ورغم أنه أهانني، إلا أنني تماسكت، ولم أنفعل وقتها، وأوجدت له عذراً بأنه كان غاضباً من معركة لا مبرِّر لها. في اليوم التالي اتصل بي معتذراً، ومبرِّراً غضبه لأنه قبل يومين فقط، تحدَّث مجدَّداً مع أمه وأبيه، وأكّد لهما رغبته بالارتباط بي، وقالا له إنه لم يكوِّن نفسه بعد، ومستقبله أيضاً، كما أنه لم يزل صغيراً، وكذلك اختلاف النسب بيننا، فابتسمت في داخلي.

لم أعوِّل كثيراً على وعوده، ولست بحاجة إلى خيبة أخرى، بعد خيبتي الأولى مع عبد الإله، ولم أجب على حديثه سوى أن أهله على حقّ، وهم أدرى بمصلحته، والخيرة فيما يختاره اللّه لنا.

قبل أن يُنهي المكالمة أخبرني أن العمارة التي تقيم فيها سارا تخضع لإجراءات صيانة من أجل السلامة، وستنام عنده بضعة أيام، لم أعلّق بشيء سوى: «أوكي»، وقد راقت لي صراحته ووضوحه، لم أشك أبداً، بل لم أدع مجالاً للشكّ. كنت أثق به أولاً، وأثق بها ثانياً، فهو حبيبي، وهي صديقتي التي ركضتُ لأجلها طويلاً بحثاً عن أبيها، ودفعت لها المال دون تردُّد.

يا لها من إجازة طويلة ومملّة، قضيتها مع مشاكل أهلي التي لا تنتهي، وحنق أمي من أبي، ومن زوجته فتيحة، وتدخّلاتها المستمرّة في حياتنا، عن إخفاء أسرار بيتنا عن أبي، وغضبه من ذلك، وأنه كالأطرش في الزفّة، وتبرير أمي بأنه لا يخبئ عنها شيئاً، كنتُ مهمومة بالمشاكل التي لا تنتهي، وبسعود الذي أفتقد حضنه، بل أفتقد حضن أميركا، وربما أفتقد الوحدة التي أدمنتها وأحببتها، وحاجتي إلى الاستقلال في كل شيء.

كنت بحاجة إلى الهروب من مشاكل البيت، تلك التي لم أحكِ عنها يوماً لسعود، ولم أفكّر بذلك، لا أعرف لماذا أخبئ أسرار عائلتي عن الآخرين، مع أنني اضطررت أن أحكي شيئاً منها لسارا، وحين أقول اضطررت، فلأنني أردت التخفيف عنها، بالحديث عن معاناتي، مع أنها لا تراها شيئاً أمام امرئ ليس لديه عائلة أصلاً، كي توجد تلك المشكلات اللذيذة.

ليلة السفر بكت أمي، وقالت إنها بحاجتي، وددت أن أقول لها: أنا أيضاً بحاجة أحدهم، سألتني: متى تعودين نهائياً؟ كدت أقول لها إنني لن أعود نهائياً، سأحصل على البطاقة الخضراء، وأعيش هناك، لكنني طبعاً لم أقل ذلك.

في الطائرة غفوت نحو خمس ساعات، ثم صحوت، كانت الطائرة معتمة، ومعظم الركّاب نائمون، رفعت ستارة الشبَّاك، فباغتني الشفق الأحمر، كان الفجر فاتناً، ولون السماء جميل للغاية، فتحت جوالي خلسة، والتقطت صورتين للسماء الحمراء، لم أزل محتفظة بهما حتى هذه اللحظة التي أتذكَّر فيها حياتي الماضية.

لم تتنبه لي المضيفات، ولحسن الحظ لم يكن بجواري أحد، أقفلت الجوال مجدَّداً، واستعدت كل شيء بغبطة وامتنان، كم أنا ممتنة لك أبي وقد تغيَّرت عن البدايات، شكراً لأنك منحتني هذه الفرصة الثمينة، شكراً لأمي التي تحاملت على حزنها وبكت بصمت، شكراً لعبد الإله الذي دفعني للهرب من الجامعة والبلاد كلها، شكراً لحكومة بلادي التي أتاحت لي الابتعاث كي أحقق حلمي، شكراً للرجل الطيِّب الذي ساعدني وتغاضى عن موافقة المحرم حتى أنهيت أوراقي، شكراً أيضاً لمخترع الطائرة الذي عبر بي القارات.

صمتُّ لوهلة، وفجأة داهم امتناني للآخرين بعض الألم، صرت أهجس بهمِّ العودة، ماذا سأفعل بعد سنة؟ كيف أستطيع العودة نهائياً بعد التخرّج؟ يا إلهي، ماذا أفعل؟ أحسست بدمعة صغيرة مترددة، ثم تتابع الدمع من عيني، ونهنهت بحسرة خافتة، قبل أن أضطر للذهاب إلى حمّام الطائرة، كي أعدِّل المكياج الخفيف، كنت أحدِّق في عيني المتعبتين في المرآة، وأتنهَّد بحزن محاولةً أن أتناسى المستقبل، وأحيا لحظتي الممتعة في طريقي إلى وحدتي المورقة.

مرَّت الساعات حتى هبطنا في واشنطن، لم تتجاوز فترة الانتظار في مطار دالاس أكثر من ساعتين، قضيتها بالتجوال، تصفّحت الكتب في ستيلار بوكس ولم أشترِ كتاباً، ثم مررت بمحل

هدايا ولم أشترِ شيئاً أيضاً، تناولت فنجان قهوة فقط رغم شعوري بالجوع، قبل أن أمضي نحو بوابة سي 23، وأسترخي في مقعدي في طائرة «يوناتيد إيرلاينز» في الطريق إلى لوس أنجلوس.

في المطار كان حبيبي سعود في انتظاري، احتضنني بقوة، شعرت بلهفته وهو يشبك أصابعه بيدي، ويقودني نحو سيارته في المواقف، سرنا نثرثر عن كل شيء في الرياض، وعن هذين الشهرين اللذين قضيتهما بعيداً عن حضنه، توقفنا عند محطة وقود، وهو يعتذر بأنه نسي تعبئة خزان الوقود، ثم أخذني إلى مطعم بستيا الإيطالي قرب النهر، ووسط المدينة، أحد المطاعم الإيطالية التي أحبها في المدينة.

لا أعرف كيف استعدت لحظات اللقاء الأول، حين اقترح هشام أن أذهب معه للمطار كي نستقبل صديقه، كيف رأيته أول مرة، كيف كنت أضبط عينيه وهما تجوسان وجهي وشعري، هل كان مأخوذاً بي منذ أول لحظة، أم كان يحب النساء والمغامرات الجديدة؟ لا أعرف، لكنني وجدت فيه حناناً ودفئاً لم أعرفه قط، ولا يمكن أن يكون ذلك تمثيلاً، أو نزوة، بل هو العشق الحقيقي.

عدت مجدداً من ليالي الوحشة والوحدة في الرياض، إلى دفء السرير الذي يجمعني به، صحيح أنني لم أمارس الحب معه، لكن الحنان هو ما كنت أحتاجه، إنه شعور جميل يمنح الطمأنينة، وأن الدنيا ما زالت جميلة. حين أشعر به فجأة في منتصف الليل البارد وهو يحيطني بذراعيه، فأسحب نفساً عميقاً وتنتابني دوخة لذيذة، آه كم هو مذهل شعور العناق، حينما أتكوَّر في حضنه!

(35)

أفتح النافذة
كي يطير خفَّاش رفيق علق بشعري

ذات مرَّة أعطتني سارا بخاخاً مسيلاً للدموع، قالت لي: «احتفظي به واستخدميه عند الحاجة».

«كيف تحصلين عليه؟ أليس ممنوعاً؟».

«بلى، لكن الشرطة تمنحني إياه بشكل قانوني للدفاع عن النفس»، وأضافت: «أثبتُّ لهم حالات تحرُّش أكثر من مرة».

كانت تنصحني بألّا أذهب إلى ملهى ليلي ليلاً دون أن يكون معي أحد: «لا تعلمين ماذا يمكن أن يفعله السكارى، أحياناً يطلقون النار ويقتلون بلا وعي».

شكرتها ووضعت العلبة في درج سيارتي، ولم أحملها معي قط، بل نسيتها حتى فتشت سيارتي قبيل بيعها، فوجدتها قابعة هناك، في مخبأ باب السيارة.

مرَّت الأيام بطيئة، نقضيها بين الجامعة، الغداء، مراجعة وتحضير، اللقاء والعشاء في منزل هشام أو أحد الأصدقاء، ثم النوم. بينما كنَّا نرفِّه عن أنفسنا خلال عطلة نهاية الأسبوع التي

نقضيها غالباً في السهر واللهو والرقص، لا أجيد الرقص الغربي كما تفعل سارا، التي لا تتقنه فحسب، وإنما أيضاً رقصات أميركا اللاتينية؛ السالسا، والتشاتشا، والسامبا، تلك التي يتقنها سعود، فكانا يراقصان بعضهما كطائري فلامنجو، بينما أسامر هشاماً أو غيره ممن يشاركنا السهر.

لا أعرف ما حدث تلك الليلة الحزينة، الليلة السوداء، حيث لم يكن معنا هشام الذي اعتذر بأنه لم ينم جيداً، ولم يحضر معنا أحد من الأصدقاء، فقط سعود وسارا وأنا، ذهبنا إلى نادي أوك 1، واتخذنا طاولة جانبية فيها أربعة مقاعد، كأنما ظلال هشام وضحكاته تملأ المقعد الرابع الخالي، طلبا بيرة، وطلبتُ سبرايت، لم يكن سعود يشرب من قبل، لكنه بدأ منذ فترة يستسيغ البيرة، وفي كل مرة يستأذنني، وهو يقول إن الدخّان معها يصبح ألذ، كنت أضحك وهو يصفّق بصخب، وأفعل مثله، كان يجذب رأسي ويطلق نكات جميلة.

في منتصف السهرة ذهبت إلى الحمّام، وقبل أن أخرج توقفت قليلاً أمام المرآة، أعدّل شعري وأجدّد أحمر الشفاه. خرجت، وانعطفت يساراً حيث طاولتنا في مواجهتي، لا أتذكر لحظتها إن كانت الخفافيش فرَّت فوق رأسي قبل انعطافي أم بعد، لكنني متأكدة أن ثمة خفافيش خبطت أجنحتها الرقيقة فوق رأسي حينما أقبلت عليهما، هل خبطت بأجنحتها فزعاً من ضجة الموسيقى والصراخ وضحكات السكارى، وطارت كي تختبئ في الستائر العالية؟ أم فعلت ذلك كي أنشغل بها وأتابعها وهي تطير عالياً نحو السقف العالي للملهى الليلي، فلا أراهما وهما غارقان في قبلة طويلة وعميقة، حيث

سعود يطوّقها بذراعه، وهي مستسلمة له؟ كانت الأضواء الملوَّنة تصبغ وجهيهما لوهلة، ثم يغرقان في ظلام دامس، ثم يعود الضوء الكاشف بقوة، لم يتنبّها لوجودي إلّا حين وقفت أمامهما، وقتها علق الضوء الأحمر العنيف فوق وجهه، وفضحه أمامي. كنت صامتة، لم أصرخ ولم أبكِ، لم أصفعه أو أدفعه، أما هي فقد أشاحت بوجهها، وبصوت خافت همست: «أنا آسفة، أنا سكرانة» ثم ضحكت وهي ترمقني بنظرة سريعة، بينما هو لم يقل شيئاً، ولم يعتذر، بل أكمل رقصه معها كأن لم يحدث شيء، أما أنا فنكصتُ خلفاً، وحقيبتي على كتفي، هرولت دافعة الراقصين والأجساد المتلاصقة، حتى كدت أسقط كأس أحدهم، لحق بي راكضاً، يصوِّت لي، وعند الباب قبض على ذراعي بقوة، فصحت به غاضبة: «ابتعد»، وأنا أحاول إفلات يدي، فتدخل رجل الأمن الأسمر، وهو يصيح به: «دعها وشأنها»، فأجابه منفعلاً: «إنها حبيبتي» فنهره الأسمر بعنف: «وإن كانت! هيا ابتعد». أوقف لي سيارة أجرة، ثم صعدتُ للمقعد الخلفي، وانهرت أبكي بحسرة. قلت للسائق الأسود أن يفتح زجاج النافذة، فأجاب: «لكن الجو بارد سيدتي»، أصررت أن يفتحها كي يطير خفاش رقيق علق بشعري.

بدأ يحاول تهدئتي، بينما أنشج بمرارة، ومع أنني لست ممن يحكي عن حياته أو مشاكله، صرت أحكي للسائق عن خيانته وقذارته، وأنا التي كنت له نعم الرفيقة والمخلصة، فضحك وهو يقول: «كل الرجال خونة»، هل كان يواسيني أم يقول الحقيقة؟ لا أعرف.

وصلت شقتي، دخلت وأنا أتخبّط، أجأر، لم أبكِ في حياتي

كما تلك الليلة، كنتُ أتمرَّغ على فراشي كحيوان يكاد ينفق، كنت أبكي بجنون، وكانت أحشائي تتمزَّق، صوتي كان عالياً، وأنيني كمن في النزع الأخير. لم أستطع البقاء وحدي أكثر، خرجت كالمجنونة، وبلا تخطيط وجدتني أسير نحو شقة هشام، طرقت الباب، لحسن الحظ لم يكن نائماً، كان ببيجامته مستعدّاً للنوم، عانقته وأنا أجهش، فضمَّني مرعوباً، مسح على شعري، وأغلق الباب خلفي، هدّأني محاولاً أن يفهم، ومجرَّد أن قلت له: «سعود»، فهم باقي القصة.

ضمني إلى صدره، احتوى جنوني وخفَّف جزعي، أودعني حضنه حتى غفوت بسلام. للصديق حضن يورق حينما يمعن الخريف، عكس الحبيب الذي يخدعنا شجره المزهر.

استيقظت باكراً رغم أنه صباح الأحد، نهضت بمنامتي تجاه الحمّام، تأملت وجهي جيداً، رشقته مراراً، غسلته بالصابون، ونشَّفته، ثم عقصت شعري، وخرجت إلى الشرفة الصغيرة، المطلة على الشارع الثالث، كان الغيم متطامناً، والسيارات تشبه العناكب، بينما النخل العالي لا يكترث بالغيم، ولا بوقفتي على حاجز الشرفة، لم أفكِّر هذه المرة بأن أقفز من الشرفة إلى الشارع، لا، لن أنتحر مطلقاً. قبل أن أسحب الكرسي البلاستيكي الوحيد في الشرفة لأجلس، كانت ثمة حشرة سوداء تتعلَّق على حافة البلاط، خلف قوائم الحاجز المعدني، اقتربت منها، تأملتها، اقتربت بإصبعي الوسطى، ودفعتها حتى طارت متأرجحة نحو الأسفل. ابتسمتُ، لكن الحشرة فاجأتني وهي تطير وتقاوم الهواء البارد، ثم تلتصق بحافة الجدار الذي يعلو الشرفة.

ظننت الأمر سهلاً، لكن الصدمة كانت كبيرة، والقرار صعب، فكيف أحيا من دونه، كيف سيصبح العالم بعده، وأي وحشة في غيابه؟

تأملتُ الأسفل، كانت ثمَّة امرأة تقف بجوار لافتة إرشادية، وتنظر نحو الأعلى، نحوي تحديداً، ثم ابتسمت، كأنها تبتسم لي، وهي تشير بيدها أن: «تعالي». رأيتني أمشي مسرعة نحو الأسفل، وعند بوابة المبنى وقفت على الرصيف، بحثت عنها، ولم تكن بجوار عمود اللافتة، تلفَّت على الجانبين، وكانت تختبئ لصق جدار البناية، اقتربت منها، فلم تهرب: «من أنتِ؟ وماذا تريدين منِّي؟»، سألتها،

«أنا صالحة»، وأضافت: «أمك».

اقتربت منِّي كي تحتضنني، وفجأة كان هشام يحيطني من الخلف، وهو يقبِّل رأسي، التفت نحوه، ودفنتُ رأسي في صدره، قال لي إنني لم أنم البارحة، وكنتُ أفزُّ كل فينة، وأهلوس وأنا نائمة.

أمسك بيدي، وأدخلني الشقة وهو يعرض بأن أساعده في تحضير الإفطار، لم يشأ أن يجهِّزه وحده، لئلا يتركني وحدي مع القلق والهواجس، لا أعرف ماذا أعددتُ معه، كنت انتشلتُ جسدي البارحة من الملهى الليلي، لكنني نسيت عقلي هناك. كان هشام يثرثر تحت وطأة الشعور بالذنب، أعرفه جيداً، كان يعتقد أنه سبب في ذلك، وخصوصاً أنه من عرَّفني إليه، وقال إنه صديق يثق به تماماً.

(36)

غابة حاشدة من جنادب حمقاء

كأنني أقف على محور الأرض. أو على خطّ الاستواء، على وشك أن أهوي هنا أو هناك. أجزم أنني لن أعود إليه، لكنني أريده في الوقت ذاته، أي مأزق أتشظى في داخله، وأي قدر تورّطت فيه، ماذا حدث لي، بل ما الذي سيحدث؟ هل هي علاقة عابرة؟ أم الأمر أكبر من ذلك؟

ما الذي حدث في غيابي، هل خانني في سفري، لماذا لم ألتقط الإشارات؟ ألم يخبرني بأنها ستنام عنده كذا ليلة؟ ألم يقل لي البحريني جمال في سكايب: لا تصدّقيه، فالسعوديون لا يتزوّجون حبيباتهم؟ ألم يجنَّ جنونه لحظة ذاك؟ أليس توديعه لنا في المطار، وهو يعتصرها، جرس إنذار؟ هل أنا ساذجة وغبية إلى هذا الحدّ؟ كيف لم أصدّق الدلالات الواضحة؟ لماذا انتظرت هذه الصدمة العنيفة؟ ألم تقل عنه شمسة ما قالت في لحظة لؤم وشيطنة؟ هل كان يبحث عن الجنس، وهو ما لم أستطع منحه له؟

لم أعد إلى شقتي، ولم أخرج من شقة هشام، لا أستطيع أن أرى شيئاً بلا عينيه، ولا أشم شيئاً دون أن نشمه معاً، ثم ننظر معاً،

أحدنا تجاه الآخر، ونضحك في اللحظة ذاتها، لا . . . لا يمكن أن أخرج وحدي، لا الهواء في الخارج، ولا الشوارع، والبنايات، والمطاعم، والمقاهي، والملاهي، والبحر، ولوس أنجلوس كلها، ولا سانتا مونيكا، ولاغونا بيتش، لا شيء له معنى من دونه، كيف سأعيش يا رب؟ اللهم ألهمني من عندك. . . كنت أفكِّر وأهجس وأهذي وأوسوس، كنت أطالع شاشة جوالي ستين مرة في الدقيقة الواحدة، لكنه لم يرسل شيئاً أبداً. ما أقسى هذا الشعور، إذ أرهف السمع لرنة مباغتة، أو ألتقط جوالي كل ثانية، لأتفقَّد صندوق الرسائل، أو المكالمات الواردة، دون أن أجد شيئاً.

كانت الشمس الباردة تطل بخجل بين غيم خفيف، حين التقطتُ جوالي وقررتُ أن أعاتبه: «اعتقدت أنك تحبني، ومن يحب لا يخون»، انتظرت دقيقة، خمس دقائق، عشراً، حتى رنَّت نغمة الرسائل ففزعت، لكنها كانت من أختي زهرة، خرجت إلى الشرفة قليلاً، كي لا يأكل الانتظار أصابعي، بعد ربع ساعة لم يجب، فكتبت له ثانية، وثالثة، ورابعة، وعاشرة، كتبت له عشرات المرات:

«سعود، أنا حزينة، وأشعر بقهر وألم».

«لماذا فعلت ذلك، ودمرتني ببساطة؟».

«هل تشعر بالذنب لكن تكابر ولا تريد أن تعتذر».

«سعود، أنا خلاص سامحتك، تجاوزت الموضوع، اعتبرتها نزوة».

«حبيبي قل شيئاً، حتى لو تلومني سأتفهّم عتابك».

كنت أكتب ثم أمحو، أكتب وأرسل، أكتب وأبكي، أكتب وأتعذَّب، أكتب وأتمزَّق، أكتب وأكتب، لكن رسائلي تموت في

مقبرة صمته. لم أفكِّر أن أرسل لها، ولم أعاتبها، وهي لم ترسل شيئاً.

كنت أشكو لهشام، وهو وحده الذي يتفهّمني، ويشعر بالحزن لأجلي. وأكثر ما أدهشنا، هشام وأنا، أنه لم يُجب عليه حينما أتصل به، فأرسل له: «ما الأمر سعود؟»، ولم يجب أيضاً.

بعد يومين من الألم، فكَّرت بأغراضي التي وضعتها عنده، فكتبت له: «سعود، أحتاج أغراضي عندك».

أجاب مباشرة: «تعالي خذيها غداً ظهراً».

يا إلهي، لم يجب ليومين على رسائلي، والآن أجاب فوراً.

في اليوم التالي، ذهبت إلى شقته، في الطريق كنت أتذكَّر حينما أتى إلى شقتي كي يعتذر، بباقة ورد، والمثلجات التي أحبها، وسوار ذهبي، بعدما غضبت من غيرته الزائدة من زياد، فهو كان يغار من لا شيء، لم أخنه أبداً، فهل كانت غيرته شكّاً بي، وبتصرفاتي؟ هل كان ينظر لي بعين طبعه؟ هل لأن الخيانة تجري في دمه كان يرى النساء خائنات؟ لا أعرف، ولا أريد أن أعرف.

توقّفت عند باب العمارة، كنت أفكِّر هل سيعانقني بشوق وهو يعتذر؟ أم سيكابر؟ هل هي موجودة عنده في الشقة؟ أم لا؟

أرسلت له: «أنا في الخارج أنتظرك».

وقفتُ في بسطة السلَّم، فتح باب الشقة، مرتدياً بيجامته الحمراء، كان يحمل حقيبتي أمامه، لم ينظر نحوي، كأنني كائن هلامي، فقط هبط درجتين أو ثلاثاً، ووضع الحقيبة، ثم أتبعها بكرتون الكتب أمامي، وناولني ظهره دافعاً باب الشقة الموارب، هكذا رمي بي كالأشياء الزائدة، ومضى ببساطة شديدة.

فجأةً، غامت بي الدنيا، غبَّشت، لم أعد أرى شيئاً، حتى حطَّت على رأسي حشرة، نفضتها بيدي، ونهضت مفزوعة، طارت وحطَّت على حقيبتي، كانت جندباً غريب الشكل، فجأة حطَّ آخر بجواره، تكاثرت الجنادب فوق الحقيبة، الكرتون، الدرابزين، وفوق رأسي أيضاً. هرولتُ كمجنونة، أردت أن أنجو تاركة حقيبتي والكرتون، لكنها ثروة العمر من البحث والدراسة، عدتُ وأنا أغطّي عينيَّ بذراعي، حملتُ الكرتون بيد، وجذبت الحقيبة باليد الأخرى، كنت أصرخ بفم مقفل خشية أن يمرق جندب هائج إلى حلقي، ويسدّه، فأموت.

تحوَّلت السلالم إلى غابة حاشدة من جنادب حمقاء تختطفني كالموت، كانت شبكة هذه الكائنات المجنونة، بأعينها اللامعة، وقوائمها الرفيعة، وأجنحتها الشفَّافة، تسدُّ المدخل كساتر صلد، فاندفعتُ مسكونة بالرعب، حتى اقتحمت هذا الساتر، وقد تدحرج الكرتون أمامي على الرصيف، بينما أشدُّ على مقبض الحقيبة، حتى اصطدمتُ برفرف سيارتي الخلفي، ونظرت: «كان الشارع خالياً»، وشعرت فجأة بيد حانية فوق رأسي: «هل أنتِ بخير؟». رفعت رأسي، كان رجلاً عجوزاً، في عينيه المرهقتين قلق بالغ. هززتُ رأسي أن: «نعم»، فأضاف: «هل أساعدك في حمل الحقيبة؟». شكرته وقد وضعها في الخزانة الخلفية للسيارة، وأطبقها. حين ساعدني في الركوب إلى مقعدي أمام المقود، وقبل أن يغلق الباب: «هل أنت متأكدة أنك تستطيعين القيادة؟» أجبت: «نعم، لا تخف يا عم». أدرت المفتاح، وفتحت النافذة، وشكرته، ثم سرتُ بهدوء.

كان النخيل العالي يقف صامتاً دون أن يحرّك جدائله كالعادة،

والسماء موحشة وحمراء، بينما العربات من حولي تزحف كسحالٍ بغيضة، حتى سيارتي تحولت إلى سحلية خضراء ولزجة، ظلَّت تتمطّى بي لساعتين كاملتين دونما هدف.

«من لي إذا ذهب سعود؟»، كنتُ أفكِّر.

«لماذا يرحلون دون خطأ مني؟».

«هل أخطئ بحقهم وأنا لا أشعر؟».

«ألأنني لا أقبل أن يعبث أحدهم بجسدي يرحلون؟».

كنت أرمي الأسئلة أمامي، فتتعارك مع ضوء مصابيح الشارع الحمراء وهي تلمع كل فينة فوق زجاج سيارتي، كنت أغمض كي أعصر الدمعة من جفني، كأنني أجفّف روحي جيداً.

كنت أسأل لأفهم، لكنني أسأل لأتعذب. . .

لا أعرف كم رسالة أرسلت له، لقد انفطر قلبي، لم أذق مرارة حزن ولوعة كما تلك اللحظات، ولم أزل حتى بعد مرور سنوات طويلة أشعر بالمرارة ذاتها كلما تذكَّرت ذلك.

لم يجب مطلقاً على أي رسالة، سواء قبل استلام أغراضي أو بعدها، فقط حينما حدّد موعداً لاستلام حقيبتي وكرتون كتبي. . . احتفظت بكلمات رسالته الأخيرة لسنوات، حتى بعد أن غيّرت هاتفي المحمول.

ما أدهشني أنه حارب هشاماً أيضاً، لم يجب على اتصالاته، ولا على رسائله، ولم يتصل به قط، حتى إنه فيما بعد حذفني، وحذف هشاماً معي من ماسنجر وفيسبوك، وحتى هذه اللحظة لا أعرف لِمَ فعل كل ذلك بهشام رغم أنه صديقه المخلص، الذي عرفه قبلي؟ ما ذنبه؟ وما علاقته بشأننا؟ ومع كل هذه الرعونة، كان هشام

يذكره دائماً بكل خير، هكذا كان هشام، منذ عرفته لم يذمّ أحداً، بل يتضايق ممن يتحدثون بسوء عن الآخرين.

حاولت نسيانه مراراً، استخدمت كل الطرق التي قرأت عنها، أستغرق في بحوثي كي أنسى، وحين أنتهي منها أخرج متجوّلة في الأنحاء، أسير على غير هدى، في الأيام الأولى ساعدني هشام كي أخرج من الكارثة بسلام، بعدها صرت أخرج وحيدة، أمشي غالباً على الأرصفة التي أعرفها، أمشي دون توقف، تؤلمني قدماي، لكنني لا أتوقف، أحياناً أمشي عشرين ميلاً، وأعود بلا بصر، ولا روح، ورغم أنني أتضوَّر جوعاً، إلا أنني أسقط على فراشي منهكة دون أن أغيِّر ملابسي، كان التعب والإرهاق حلاً مناسباً للنوم رغماً عنِّي.

لا أحد يتخيَّل معنى ألّا ينام المرء، أو ينام على جمرة، فيفزُّ مذعوراً يتلفت في المكان، لا أحد يتخيَّل كمّ الحزن الثقيل حين يخرج وحده فجراً، هائماً في طرقات لوس أنجلوس، والسماء غائمة لدرجة يشعر معها أن الغيم يملأ أنفه، هكذا كنت ذلك الفجر بينما أمرُّ بجوار نافورة ويلشر بوليفارد، أنظر نحو تمثال الرجل الذي يجثو على ركبتيه، وأسأله: من أنت؟ ولِمَ تجثو هكذا؟ وقبل أن يجيب أمضي، وأنا أفكِّر كيف جثوت على ركبتَيّ أمام تعبي وخيبتي وحزني، أسير باتجاه الغرب، لا ألوي على شيء، كما لو كنت سأقطع الطريق مشياً حتى سانتا مونيكا. النوافذ مغمضة، والشجر نائم، لا أحد سواي والحافلات الصباحية، وهذه المرأة العجوز التي تخطو كسلحفاة، حتماً لن تسير حتى سانتا مونيكا وإلّا استغرقها ذلك شهراً على الأقل. لكنها مثلي تحمل فوق حدبة ظهرها المنحني حزناً

طويلاً وثقيلاً، أي شيء يفعله الحزن بنا؟ يلتهم أصابعنا، ويمضغ أرواحنا بحقد، حتى لا نستطيع أن نبكي.

أحاذي الحديقة الشاسعة، بينما الجندي التمثال يحمل بندقية، ولا يلقي عليَّ نظرة واحدة، ولا يعيرني بندقية الصيد ليوم واحد فقط، كي أصطاد غراباً ضالاً في هذه المدينة الكئيبة.

لم أكن لأقتله، لست قادرة على قتل نملة أو جندب، لكنني حاولت أن أملأ مكانه بآخر، وفي كل مرة أفشل منذ الأيام الأولى، لأنني ببساطة أقارن بينهما، فينهزم الآخرون ويبقى هو بملامحه، ونبرته، وأسلوبه، وضحكته، وشغبه، وشغفه، وطريقته الرائعة في الحب، في التعبير عن مشاعره، كان عاشقاً مجنوناً، لو كان كاتباً فسيكتب حتماً أجمل الروايات الرومانسية.

كنت أفكِّر هل منح سارا مشاعره كلها، تلك التي أعرفها جيداً؟ هل هو فعلاً يعشقها؟ هل يفكِّر أن يتزوجها؟ أم يتسلَّى بها لوقت ثم يعود إليَّ من جديد؟ هل لو عاد سأتقبّل الأمر؟ لا أعرف، أقول لا، مستحيل أن أقبل بخيانته، لكن داخلي يرفرف لأجله، لرائحته، لدفئه، لغيرته، حتى تحكّمه في حياتي افتقدته!

(37)

كلُّ شيء يقود إليه!

لم تتصل بي سارا، ولم أتصل بها، لم يكن بيننا رسائل أو محادثات مكتوبة، لكنها لم تحذفني من ماسنجر وفيسبوك، ولم أفعل أيضاً، لم تكن تنشر صوراً لهما في صفحتها في فيسبوك، ربما هو يحذِّرها من ذلك، لكنها تنشر في حسابها، بين حين وآخر، صوراً تعتصر قلبي: سواراً ذهبيّاً جديداً، قرطين لؤلؤيين، ساعة يد، وجبة عشاء في مطاعم أعرفها جيداً، أعرفها من أطباقها وملاعقها، تلك المطاعم التي قضيت فيها أجمل لحظات حياتي معه. هل كانت سارا تتقصد إغاظتي؟ أم أنها تنشر ذلك بتلقائية؟

لم أرَه مرة ثانية أبداً، ما عدا مرة، بعد عدة أشهر، ربما خمسة أو ستة أشهر، حيث يقف أمام أحد مباني الجامعة بجوار طالب خليجي، لا أعرفه، كانا يتصفحان دفتر مذكرات كبيراً، كنت على بُعد عدة أمتار منهما، رأيت جانب وجهه، تمنيت أن أركض نحوه لا لأصفعه، وإنما لأحتضنه بقوة، وأتركه يتنفس الهواء داخل شعري كما كان يفعل حين نعانق بعضنا بقوة بعد حالة خصام، وأضع يده على صدري كي يوقف وجيب قلبي، ولهاثي؛ لكنني لم أفعل شيئاً من ذلك، كبريائي يمنعني حتماً، فقط انسحبت ودمعة صغيرة

وخجولة بدأت تنز بإصرار، نكصت لا ألوي على شيء، حتى إنني نسيت ما كنت سأفعل، فقط هرولت حتى توقفت عند مقهى كوفي بين، حيث زميلتي اليابانية تبتسم في وجهي، وقد تغيَّر لونها حين شاهدت وجهي مخطوفاً.

تعبتُ كثيراً، ورغم مرور الشهر تلو الشهر، إلّا أنني أتذكّره في كل شيء، حين أعقد شعري على شكل ذيل حصان، أو أتركه حرّاً، حين أصبغ أظفاري بالبنفسجي الفاتح، أو بالأحمر الفاقع، حين ألبس فساتين السهرة، أو بيجاماتي البيتية، كل شيء في حياتي يقودني إليه. ليس معقولاً أن أعيش ما تبقّى من حياتي في ظلاله، ولأنني تعبت وأتعبت صديقي النبيل هشام، قرّر أن يحجز لي موعداً عند طبيبة نفسية، فوافقت على مضض، وما زالت ابتسامتها في ذاكرتي ما حييت، حينما قالت لي بذكاء وهي تشير بسبابتها:

«أنتِ عشتِ تجربة حب فاشلة».

ابتسمت كتلميذة خجولة، وأنا أهزُّ رأسي بالإيجاب. كانت عيادتها صغيرة، وغرفتها بنافذة طولية مفتوحة، والموسيقى الناعمة تحيط بها، لقد شعرت براحة كبيرة. كانت الدكتورة كارين تتابع بصري المتأمل في أرجاء الغرفة، وسألتني إذا لم أكن أشعر براحة، يمكننا النزول للشارع والتجول والحكي، أو الذهاب إلى مقهى قريب كصديقتَين. ابتسمت بطمأنينة: «ألم تكتشفي لِمَ جئتُ هنا؟ كيف لم تلاحظي أنني مرتاحة للمكان؟»، ضحكَت وهي تقول: «يبدو أنني أمام شخصية ليست سهلة».

حكيت لها طويلاً، لا أعرف كم قضيت من الوقت، نصف ساعة أو ساعة ربما. كانت معي بكامل حواسها، تحدق نحوي،

تنصت، تهزُّ رأسها، تُهدئ انفعالي كل فينة، ثم قامت وصنعت كوبين من القهوة من آلة بجوارها، وقالت إن الأمر أسهل مما أتوقَّع، وأن علاجي يكمن في نفسي، لم تُعب سلوكي، لكنها شرحت لي لماذا أفشل في علاقاتي، وقالت لي وهي تعدّد وصاياها الخمس على أصابع يدها النحيلة:

«أولاً، اشربي قهوتك، وتمتعي بالصمت لوهلة».

صمتنا لدقائق، بينما يكسر صمتنا صوت ارتشاف القهوة الساخنة. ثم تنحنحت وهي تضيف:

«ثانياً، لا تأخذي الناس وكلامهم على محمل الجد دائماً».

ثم صمتت قليلاً، وهي تحدِّق بي، كما لو تريد أن تثبِّت هذه الوصية في عقلي وقلبي معاً.

«ثالثاً، لا تحملي الحياة على عاتقك»، وأضافت: «لستِ مسؤولة عن الناس، طبعاً جيد أن نهتم بالآخرين، لكن ليس قبل أنفسنا، مفهوم؟»، هززتُ رأسي بالإيجاب.

ثنت الإصبع الرابع، وأبقت الإبهام مرفوعاً كشاهد عيان على ضياعي:

«رابعاً، لا تبالغي في عواطفك، أي تمهّلي في عاطفتك، وكل فينة راجعيها، بمعنى ارمِ بها في مطبخ عقلك الصغير».

ثم نهضت وأوقفتني أمامها، وضعت يدَيها فوق كتفَيّ، نظرت نحوي بعينيها الزرقاوين الجميلتين: «خامساً، لا ترضي أحداً رغماً عنكِ، فلا تضغطي على نفسك ومشاعرك كي يرضى عنكِ فلان أو فلانة».

طلبت مني أن أجلس مجدَّداً، ووضعت أمامي ورقة وقلماً، ثم

طلبت منّي أن أكتب هذه الوصايا، فكتبتها، وحين قرأتها مزَّقت الورقة وهي تبتسم: «لا داعي لأن تحتفظي بالورقة، فالأهم أنها محفورة في رأسك»، ثم ناولتني وصفة، كتبت فيها جرعة خفيفة من دواء للاكتئاب، وفتحت درجاً علوياً، ووضعتها، قائلة إنها لن تعطيني هذه الجرعة إلّا بعد شهر من وصفة الوصايا، ودّعتها، وخرجت ولم أعد إليها أبداً.

مرَّت أيامي رتيبة، عرف بعض أصدقائنا عن قطع علاقتنا، حاول جمال أن يتقرَّب منّي، لكنني لم أتقبّله، خرجنا معاً مرتين، في المرة الثانية حاول أن يحتضنني، فتقوَّست مثل قطة، متحاشية أن يلتصق بي، كنَّا نقف على النهر، وبعد أن ودّعته، غرست سماعتَي الأذن، بعدما سقيتهما بدمعي، فنبتت أغنية We Belong Together فكان صوت ماريا يخبرني:

Who's gonna take your place
There ain't nobody better.

لا يمكن لأحد أن يأخذ مكانك سعود، اللعنة، كيف سرقت قلبي، كيف لم تحافظ عليه، كيف رميته في النهر بلا مبالاة؟ كيف؟

في المرة الثالثة هاتفني جمال، فاعتذرت، وتحجّجت بدراستي، هو شخصية ظريفة، طويل ونحيل جداً، لكنه مدمن، لا يكفّ عن شراء قطع الحشيش، والدخان بشراهة، كنت أكره رائحته، ربما كانت عادات سعود، خياراته التي تطبَّعت بها، ما يحب وما يكره، عاداته الجيّدة والسيّئة، حكمه على الناس باكراً، انطباعاته تقوده فوراً إلى مواقفه، ولا أعرف لماذا تقبّلت فكرة الخروج مع جمال، هل لكي أنتقم من سعود، وهو الذي دخل معه في عراك حينما كنت أحادثه أثناء إجازتي عبر السكايب، هل كنت أظن أنه

سيثير غيرته كما زياد؟ ويأتي ليقبِّل قدمَيّ، أو الأرض التي أمشي عليها؟ لا، لن يحدث ذلك، فما رأيته من قسوته وتجاهله لي، يعني أنني لم أعد شيئاً بالنسبة إليه، وعليَّ أن أفعل الأمر ذاته.

أذكر في الشهور الأولى أنني كنت أخرج ليلاً، أجلس في الأماكن التي مررنا بها، وجلسنا فيها لساعات، كوستا، ستاربكس، مطعم إن إن آوت الذي أطلب فيه برجر على الطريقة الأميركية. أتسلَّل مثل قطة حزينة إلى مطعم ذا إيفي، وأطلب تشيز كيك وقهوة، وأتخيّل أصابعه وعينَيه وهو يناولني قطعة قطعة، وفي أمسيات نهاية الأسبوع أحجز طاولة لشخصين في مطعم كليو، وأذهب وحدي للعشاء، وأستعيد ملامحه، وأفتش رسائله القديمة، ومطعم سباجو المحلي، وبستيا الإيطالي، هكذا أطوف الأماكن الجميلة كلها، أحمل سيرته معي أينما ذهبت، لكنني لم أدخل ملهى ليلياً قط بعده، لقد كرهتها كلها بعد خذلاني الأخير.

كنت أحياناً، بعدما مرَّت سنة على وحدتي، وبين لقاءاتي المتفرِّقة مع هشام، أستعيد حياتي الطويلة هنا، منذ أيامي الأولى مع كيت، وحتى سعود، مروراً بالأشخاص الذين عرفتهم وأحببتهم، أستعيدهم واحداً واحداً، ملامحهم، طبائعهم، مواقفهم، وأدرك أنني أسير في قطار يسير بسرعة هائلة، أمرّ على الأشخاص كأشجار، لا شيء يبقى، الأيام تلتهم أقدامنا، والذكريات تسرق ليلنا، كنت أشعر أنني عجوز في الخمسين تتذكر الرجال الذين مرّوا بها.

بعد سنة دخلت الاختبارات النهائية، واجتزتها، كانت فرحة أمي كبيرة، وأبي كان فخوراً بي، طلبت منهما أن يحضرا حفل تخرُّجي، وأرسلت دعوات لكل أصدقائي وصديقاتي، وتوقفت لوهلة

قبل أن أكتب رسالة لسعود، وسارا. كانت آخر رسالة كتبتها له قبل عام. تنهَّدت بقوة، ولم أستطع كتابة دعوة رسمية كالأصدقاء، بل كتبت له: «سعود، سأتخرَّج، وأتمنى حضورك في الحفل»، وكذلك كتبت دعوة لسارا، فلم يجب على دعوتي، أما سارا فكتبت لي رسالة طويلة:

«أهلاً رشا، أتمنى ألا تكوني غاضبة مني.

أعلم بأنني أخطأت بحقّك كثيراً

وأعلم بأنكِ لن تسامحيني أبداً

لكنني كنت ضعيفة، وأحتاج شخصاً يقف معي، يشعرني بالحنان

وجدت كل ذلك في سعود.

أنا سعيدة لتخرّجك

وأتشرّف بالحضور

ولكن هناك شيء سأخبرك به، ربما يغضبك، وربما لا ترغبين بحضوري بعد سماعه، لقد تزوّجت سعود».

أحسست ببرودة شديدة في أطرافي، يا إلهي كيف يحدث ذلك؟ كيف فشل في أن يقنع أهله بي، نتيجة اختلاف قبائلنا، رغم أننا عرب، ومن بلد واحد، ودين واحد، وعادات واحدة. وفعلها مع أميركية، هل تزوّجها سراً؟ ولم يخبر أهله بذلك؟ هي أيضاً، كيف تزوّجت أجنبياً؟ كيف تعيد تجربة أمها الفاشلة؟

رغم الحريق الذي التهم قلبي، ورغم الشرر الذي يجتاحني، كتبتُ لها: «سأكون سعيدة بحضورك، ومبروك زواجكما».

(38)

أعود إلى نقصي!

في مايو 2010 كانت ضحكات الخريجات والخريجين تملأ المكان، وهم يتبادلون التهاني والقبلات، ويلتقطون صوراً تذكارية، كنت أتنقَّل بينهم كفراشة بجناحَين رماديَّين. في الحفل حضر الجميع، حضرت أمي الجميلة وهي تبتسم طوال الوقت، وأشعر بها فخورة بي.

وحضر أبي ببذلة رمادية أنيقة.

حضر صديقي المخلص هشام.

حضر جمال.

حضر زياد، سحر، عائشة.

حضرت سارا أيضاً.

حضر الذين أحبهم، والذين أكرههم، حضروا كلهم، وغاب هو.

لم أتوقَّع أن يحضر، لكنني حزنت أكثر حينما قدَّمت لي سارا عِقداً من الإكسسوار المطلي بذهب أبيض، وبداخله بطاقة صغيرة مكتوب عليها:

«مبروك تخرّجك رشا

سارا وسعود».

التقطتُ صوراً تذكارية مع الجميع، صورتي مع سارا لم أزل أحتفظ بها في جوالي القديم سوني أريكسون، كانت ترتدي فستاناً أزرق، ويظهر النمش في صدرها، تقف ضاحكة وعلى كتفيها العلم السعودي، تماماً كما حملته أمها أثناء مباراة في الثمانينيات؛ تعتزُّ كثيراً بوطنها الذي تخلَّى عنها، بل الذي لم يعترف بها، ولم يفتح لها أبوابه، هي تحب وطني أكثر مما أحبه، تشعر بالانتماء أكثر منّي، هي تعشق الانغلاق وأنا أحلم بالحرية، وربما تحلم بواقع لم تعشه بعد، ولا تدرك قسوته أبداً، ولو عرفت لتخلَّت عن هذا الحلم الكئيب، وربما وجدت في سعود بعض حلمها بالوطن، لم تذق الوطن لكنها ذاقت سعود وتخيّلت وطنها في شخصه.

لم أسألها وقتذاك عنه أبداً، ولا عن مستقبلهما، أو أتأكد من معلومة قالها لي ماهر، زميلي الفلسطيني، الذي كان على علاقة بسعود، بأن سعود لم يقدِّم طلباً للحصول على البطاقة الأميركية الخضراء، وإنما قدَّم أوراق زوجته إلى السفارة السعودية، كي تصحبه بعد تخرّجه، كنتُ أتساءل في داخلي، وهل سيتخرَّج، وأنا التي أعرفه جيداً؟

كلما تأملتُ صورتي معها، وهي تلتصق بي بابتسامة بلهاء، وكأن شيئاً لم يحدث. ابتسم بحزن، وأنا أستعيد كيف استقبلتها كالآخرين، دون أن أحقد عليها، بل كنت متماسكة، وأنا أخبئ غضبي جيداً، ولا أعاتبها، لكنني بالطبع لم أبتهج لرؤيتها، ولم نعد صديقتَين.

أنا لا ألومها، لكنني ألومه كثيراً، صحيح هي مذنبة لكنها لا

تعنيني هي أو غيرها، فالمحب حين يكون مستعدّاً لأن يهجر محبوبته، لا يهم مع من يهجرها، ولا لأجل ماذا، المهم أن حبيبته أصبحت في نظره لا شيء، بالضبط لا شيء، كنت أشعر أنني لا شيء، لا أحد، هو لا يراني مطلقاً، ولا يسمعني أبداً، تجاهلني تماماً كما لو لم يكن يعرفني من قبل، لدرجة أنني صرت أشك أن في الأمر شيئاً آخر، كأنني ضربته على رأسه في الملهى، كأنني لكمته وهشّمت أسنانه أمام الملأ، كأنني ارتكبت جريمة، كل ما فعلته أن وقفت مشدوهة، ثم خرجت ودفعته بعيداً عني حينما أصرَّ أن يمسك بي، هل استكثر أن أنفعل مثلاً، هل تعوَّد أن أذعن له، وأطيعه دائماً، وأنفّذ رغباته بلا تردد، هل كانت علاقتي به كما حلّلت الدكتورة كارين، واعتبرت طريقتي خاطئة في التعامل مع الرجل عموماً. لا أعرف.

عادت أمي وأبي إلى الرياض بعد أسبوع من الحفل، وبقيت أنهي بعض الإجراءات، أنهي علاقتي بهذه المدينة التي أعشقها حدّ البكاء، بقيت شهراً لا أنساه ما حييت، أسهر حتى الصباح، وأطوف فيها مثل ناقة فقدت جنينها، لم أترك محلاً إلّا اقتحمته، ولا مطعماً إلّا تلمست طاولاته كعمياء، ولا شارعاً إلا متَرته بجنون، ولا شجرة إلا تمسَّحت بها، كنت أطوف ليلاً وأبكي، لا أعرف لماذا، بالأمس القريب كنت أبكي سعود، واليوم أبكي المدينة كلها، أبكي كل شيء فيها، بل أبكي أميركا العظيمة كلها، يا اللّه، كم أحببت هذه البلاد، أحببت ترابها الحُر، وكلما تعبت من التجوال والبكاء، ذهبت إلى هشام الذي تحمَّل حزني، كأنما كانت مهنته الوحيدة مواساتي، كنت أبكي بين يديه، فيضمني ويسألني:

«لماذا تبكين؟».

«هشام لا أود أن أعود»، وأضفت: «أنت رجل، وتستطيع أن تعيش هناك».

خلال ذلك الشهر بعت أثاث شقتي، بعت سيارتي، وحريتي أيضاً بعتها عندما صعدت الطائرة، كنت كمعتقل يُقاد إلى منفى، أمشي في المطار بتثاقل عجيب، وأسمع السلاسل في قدميَّ وأنا أسحبهما بصعوبة. صحيح أن أميركا قدّمت لي خنجر سعود، لكنني على استعداد أن أتلقى مئات الطعنات مقابل أن أبقى في أرض الأحلام، أرض النخيل العالي، والهواء الحُر.

قبل يومين من سفري، ذهبت إلى مقهى بلاك دوغ، وتذكَّرت الجلسة المطلة على الشارع، حينما جلست وكتبت إلى سعود رسالة موافقة أن أمنحه فرصة، فتحت الرسالة من جوالي، وقرأت ما كتبته له: «سأعطيك فرصة أتمنى تكون قدَّها، ولو ناوي تجرحني يوم أرجوك أنا ماني ناقصة جروح، لا تحبني إذا تفكر في يوم تتركني»، تسلَّلت دمعة من عيني، وتنهَّدت بقوة، وأنا أهمس لنفسي: «رشا كوني قويَّة، ولا تأخذي الناس وكلامهم على محمل الجد دائماً». نهضت نحو طاولة الاستقبال، وطلبت أن تكون قهوتي «تيك أوي»، خرجت وهواء مايو يملأ رئتي، اتجهت للحديقة القريبة، كانت ثمَّة مقاعد حجرية جميلة، لم أجلس على أحدها، بل جلست على الزرع الناعم، وجلست أمسّده بيدي، كما لو كنت أمسّد شعر مدينتي الجميلة لوس أنجلوس، بالقرب مني جرت حشرة راكضة، فرفعتها فوق كفِّي وجلست أسلِّيها، مرَّت بجواري امرأة سبعينية يقودها كلب صغير، ونظرت نحوي وهي تبتسم، يا ربي، أليس من حقي أن أحيا

ما تبقّى من حياتي هنا، أليست سبعينية مبتسمة في وجهي أكثر جدوى من عجوز تلحق بي في السوق كي تجرَّ طرحتي وهي تصيح بي: «غطّي شعرك»؟.

مررت على معظم الحدائق في المدينة، جريفيث بارك، واتلس بارك، هارولد بارك، وجلست على الأرجوحة ذاتها، التي دفعني فيها نحو السماء، وقد تصالحنا بعد حكاية شمسة، تذكَّرتُ حين أخبرني بمحادثته مع أمه، وزواجنا، وأحلامنا الكاذبة. تأرجحَت دمعةٌ مالحة، نشجتُ لوهلة، ثم تنحنحتُ بصلابة، وصرتُ أتزحلق مراراً، أصعد وأهبط مثل طفلة مجنونة. جلست إلى الطاولات الخشبية العتيقة، تناولت الوجبات فيها، كنت هائمة على وجهي، أتأمل السياح، وأطارد الطيور والفراشات، كنت أليس في بلاد العجائب، وأدرك أنني بحاجة إلى أن أشحن بصري جيداً، قبل بلادي الشاحبة، حيث الحدائق النادرة الشهباء، التي يجتمع فيها الباكستانيون والبنغال.

في المطار ودَّعني هشام، احتضنني، وعانقته بقوة، كنت أريد أن أتسلَّل داخل ملابسه، ولا أغادر. عانقت جارتي وصديقتي جولي وصافحت زوجها جيمس، واحتضنت بناتها الجميلات الثلاث، كانت الصغيرة إيفا تبكي بحرارة، ولم تقبل أن تفك ذراعيها الصغيرتين عن عنقي، كأنها تعرف أنني أغادر للمرة الأخيرة، كنت أمشي وأنا ألتفت للخلف وألوِّح بيدي، خلافاً لمغادرتي بلادي أول مرة، حين لم ألتفت نحو أبي، لئلا يغيِّر رأيه في سفري.

حينما تحرَّكت الطائرة نسيت أن أربط حزام المقعد، نبهتني المضيفة وهي تمرُّ بجواري، أحسست أنني أريد أن أهرب في اللحظة

الأخيرة، وأقول لهم: كنت أمزح، لن أغادر هذه الأرض الجميلة.

نظرت من النافذة حيث الأرض التي فتحت ذراعيها لي، لم تشك في سلوكي، لم تحاصرني، لم تفرض وصايتها عليَّ، لم يُرسل ناسُها أعينهم كي تقيسني من رأسي حتى أخمص قدميَّ، لم يسألوني عن ولي أمري، ولا محرمي، كنت إنساناً كاملاً، وهأنذا أعود تاركة اكتمالي، أعود إلى نقصي، نقص عقل ودين، أعود جاهلة رغم شهادتي، وأحتاج من يصادق على تصرفاتي بدمغة وبصمة وتوقيع، أي عالم غير عادل هذا؟

بعد أن قفزنا فوق الغيم، ولم أعد أرى مدينتي الجميلة، بدأت أفكِّر لو كنت شاباً، لأمكنني الهجرة ببساطة، وربما الزواج من أميركية كسعود، لن ينتقدني أحد، فأنا أحمل عيبي في جيبي، كما يقولون، لكنني للأسف امرأة، لو فعلتها ورفضت العودة، فسأصبح حديث الإعلام والصحافة في بلدي، وقد تتم إعادتي مخفورة وبالقوة، لأنه ستنسج حولي قصص كاذبة، ويوصف سلوكي بالعاهرة، و... و... إلخ.

أرجعتُ مسند الكرسي للخلف، وطلبتُ من المضيفة لحافاً، تغطَّيت، بعدما غرست سماعتي الأذنين، وتصفّحت أسماء الأغاني العربية في جوالي، ثم تصفحت الأغاني الأجنبية، حتى توقفت عند أغنية We Belong Together، همزت التشغيل، وبدأت الكلمات تعيد لي المشاهد كلها، حينما كنَّا معاً، كأنما الكلمات على لساني، كأنما ماريا أنا، وأنا ماريا كاري:

أجلس هنا وحيدة

لأنني لم أعرفك

لأنني لم أعرف نفسي
ولكنني اعتقدت أنني عرفت كل شيء
لم أشعر أبداً
بالشعور الذي أشعر به الآن
الآن أنا لا أستطيع سماع صوتك
أو أن ألمسك، وأقبّل شفتيك

سحبتُ طرف اللحاف الصوفي الخفيف، وغطيت به وجهي، كي أواري الدمع في عيني. الحزنُ مرٌّ، والبكاءُ مالح، والغيم تحتي لم يعد ندفاً، بل أصبح معدناً. لم تعد الموسيقى تغسل الروح، بل تخز القلب.

لا أعرف كم بقيت أعيد الأغنية، عشر، عشرين مرة، لكنني دخلت في ظلمة أو إغفاءة قصيرة، رأيتني أركض بشعري المنكوش في حقل مليء بالضفادع، كانت تقفز حولي، وأنا أتحاشاها في قفزات متلاحقة، كأنني فتى الأدغال ماوكلي. تنبّهتُ فجأةً مذعورة ومتقزّزة، ثم تأملت الركاب من حولي، وعدت أختبئ من جديد.

(39)

خُدعت مرتين.. وماتت هي مرتين!

لا شيء تغيَّر في الرياض، بيتنا لم يتغيَّر، فقط دالية العنب ماتت، وشجرة التوت التي كنت أذاكر تحتها وجدتها مقصوصة الأغصان، وشبه عارية، أما الجهنمية فلم تزل تبتسم بخجل من وراء السور، وعلى الرصيف استُبدل شجر الفيكس، بشجيرات ياسمين هندي صغيرة، ذات زهور بيضاء. أختي فرحت بي كثيراً، إخوتي أيضاً، عانيت في الأيام الأولى من اختلال النوم أو ما يُسمّى Jet lag، ثم عشت فقد الديار، أو الـ Homesickness لكن ليس لوطني الأم، بل لبلاد أحببتها وصارت هي وطني. بعد أشهر استطعت تجاوز الأزمة، وانسجمت مع الرياض، لبست عباءتي وطرحتي، وركبت خلف السائق، وخفَّت وحشتي حينما التحقت بالعمل في المستشفى التخصصي، وفقدت الاتصال تماماً بسارا، لم أعد أراسلها، ولا حتى سعود، لكنني بقيت على اتصال بين فينة وأخرى مع هشام الذي عاد إلى البلاد بعد عودتي بعام واحد تقريباً.

أصبح لدي أصدقاء وصديقات عمل، وتعلَّمت ألّا آخذ الناس دائماً على محمل الجد. أيامي كانت رتيبة، أخرج صباحاً باكراً،

وأطلب من الهندي آصف أن يمر على دانكن دونات، فآخذ قهوة أميركية ودونات، ولا أخرج من المستشفى حتى الخامسة عصراً. في شتاء الرياض أعود للبيت مع الظلام.

ذات يوم من أيام شباط، كنت في المستشفى أتصفّح تويتر، بحثاً عن الأخبار الجديدة، ولمحت اسم عائلة سعود، ففكّرت أن أجرب البحث عنه، فجأة وجدت صفحته، لا يتابعه إلا قلّة، وآخر إعادة تغريد كانت منذ أكثر من شهر، فتحت الصورة، وجدته يحمل طفلة في الأشهر الأولى، قرّبت وجهها، ثم صوّرت الشاشة، وتأملتها، كانت تشبهه كثيراً، فكّرت، هل استطاع أن يحصل على جنسية لها، أم أحضرها بتأشيرة زيارة، أرسلت الحساب إلى هشام، وسألته بضعة أسئلة، فوعد أن يسأل عنه ويخبرني حالما يجد أخباراً عنه.

كنتُ تافهة، وأحسست بحسرة ومرارة، واجتاحني غضب عارم على نفسي حين كتبت له على الخاص: «مبروك ما جاك سعود»، ومرّت الأيام دون أن يجيب على رسالتي له. لم يتغيّر أبداً، تجاهلني كما كان يفعل.

في اليوم التالي اتصل بي هشام، وأخبرني بأن البنت في الصورة بنت سعود فعلاً، لكنها ليست من سارا، لقد تركها ببساطة وراء ظهره وعاد للبلاد، تركها كما تركني من قبل، وارتبط بفتاة سعودية ربما لم يعرفها من قبل، لم يقل لي هشام من هي تعيسة الحظ، لكنني تخيّلت أنها من أقاربه، أو غير ذلك، خطبتها له أمه وذهب لرؤيتها شرعاً، وبدت أمامه خجولة، بالكاد تتكلم وتفرقع أصابعها

حياء، حتى لو أنها عرفت غيره من قبل، لماذا لا يتزوج هؤلاء حبيباتهم؟ لماذا يعتقدون أنهنّ خائنات لأنهنّ صادقات حين عبَّرن عن مشاعرهنّ وأحببنهم بعمق، أخلصن في حبهم؟ ولِمَ يجزمون بأن غيرهنّ ممن تزوجوهنّ دون معرفة سابقة لم يعرفن أحداً قبلهم؟!

بقيت ثلاثة أيام أفكِّر بسخرية، أتأمل حياتنا الغريبة، حياة الأقنعة ذات المقاسات المختلفة، قناع للوظيفة، وللصديقات، وللأهل، وللزوج، وللحب، كل منا يحمل أقنعته السرِّية في حقيبة اليد، ويخبئها في خزانته، يرتدي منها حسب الحاجة، وحسب الموقف.

كنت عدت من المستشفى، وارتديت بيجامة رمادية، فتحت نافذتي، وجعلت أنصت للعصافير الصاخبة قبيل غروب شمس يوم ثلاثاء، أتذكَّر سارا، وأتخيل صدمتها، كم كانت فرحة وترفرف سعادة، ولم تدرك كم كانت ضحية مرتين، مرة حين ولدت لأب سعودي فرَّ ولم يفكِّر بها، وثانية حين تزوجت سعودياً آخر فرَّ ولم يفكِّر بها، فكما خُدعتُ مرتين، هي أيضاً ماتت مرتين.

ومن يدري ما إذا تكرَّرت حكاية ثمانينيات القرن الماضي، أليست الحكايات تتناسل وتتكرر وتتشابه؟ ماذا إذا هرب سعود كأبيها، وترك في رحمها سارا جديدة، عفواً ليليان أخرى، تبحث عن رشا أخرى، تساعدها في البحث عن أبيها وأسرتها في الرياض؟

فكَّرت أن أكتب لها في صفحتها على فيسبوك، لكنني تراجعت، فقد سرقت حبِّي في غيابي، وعليَّ أن أتركها لمصيرها، ذاك المصير الذي حزنت لأجله، وقاتلت معها بحثاً عن ضوء في نفق حياتها،

خسرت وقتي ومالي وحبِّي بسببها، أنا لا أتشفَّى بما أصابها، لكنني أصبحتُ أكثر قوةً أمام مآسي الآخرين، فلهم ربٌّ يتكفَّل بهم، ولي أيضاً ربٌّ يتكفَّل بي.

أقفلت زجاج النافذة، وأرخيت الستائر الثقيلة.

أطفأت ضوء السرير.

نمت.

الرياض - ديسمبر 2017

سان خوسيه - أبريل 2018

مكتبة نوميديا 126
Telegram@ Numidia_Library

يوسف المحيميد

أكثر من سلالم

فتاتان، إحداهما تهرب من تجربة حبٍّ قصيرة إلى حبٍّ أكثر نضجاً وعمقاً، من الرياض إلى لوس أنجلوس، في رحلة بحث واكتشاف، والأخرى تبحث عن هويتها، ووطنها، وأبيها الذي اختفى منذ عشرين عاماً. حكايتان تتقاطعان لتكشف كل واحدة منهما الصراع الأبدي بين مرارة الواقع ومتاهة الحلم، وتسيران بخطَّين متناقضَين؛ بين بحثٍ عن هواء حرٍّ في بلاد غريبة، وآخر عن هوية ضائعة ووطنٍ بعيد.

حكايتان تكشفان أن الحياة دوائر لا تنتهي، وسلالم تفضي إلى عدم وخواء.

❖ ❖ ❖

يوسف المحيميد، روائي من السعودية، حفر لنفسه موقعاً على المستوى العربي، حيث تلقَى أعماله إقبالاً من القرّاء واهتماماً نقدياً وبحثياً، وعلى مدى أبعد وأوسع أيضاً، إذ تُرجمت أعماله إلى عدة لغات، منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية والرومانية والتركية. ونالت جوائز أهمها: جائزة «الزياتور» الإيطالية عن رواية **فخاخ الرائحة**، وجائزة «أبو القاسم الشابي للرواية العربية» عن رواية **الحمام لا يطير في بريدة**.

صورة الغلاف لكميل حوا

ISBN 978-9953-68-929-6
9 789953 689296

المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com